

التراث العربي



مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب - دمشق

العدد : ٥٨ - شعبان ١٤١٥ كانون الثاني «يناير» ١٩٩٥ السنة ١٥

نج

التراث العربي

مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب - دمشق

المدد : ٥٨ - شعبان ١٤١٥ هـ كانون الثاني ١٩٩٥ م السنة الخامسة عشرة

المدير المسؤول د. علي عقله عرسان
رئيس التحرير د. عبدالكريم اليافي

أمين التحرير
عبداللطيف أزاوط
هيئة التحرير
د. إبراهيم الكيلاني د. عدنان البشري
د. أدهم السمان د. عدنان درويش
د. محمد ذهير البابا

ترسل المواد والراسلات الى العنوان التالي :

المدير المسؤول - اتحاد الكتاب العرب ، مجلة التراث العربي ، دمشق ، ص.ب : ٣٢٣٠ - ٢١٢٦٢٩٩ - ٢١٢٦٣٢٩

مكتبة لبنان العربي

تنويه :

- ١ - المواد الواردة الى المجلة لا تعاد الى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر .
- ٢ - يخضع ترتيب المواد لاعتبارات فنية وطبعية .
- ٣ - يرجى من كثياب المجلة ما يلي :
 - أ - كتابة دراساتهم بخط واضح ومقروء ، أو طباعتها على الآلة الكاتبة .
 - ب - كتابة تعريف وجيز بكاتب الدرامة ، يتضمن أبرز نشاطاته الأدبية والعلمية والمهنية .
 - ج - ارسمال عنوان الباحث مع البحث أو الدرامة .

الاشتراك السنوي

داخل القطرين للأفراد	: ١٥٠ ل.س.
في الأقطار العربية	: ٣٠٠ ل.س. أو (١٥) دولار أمريكي
خارج الوطن العربي	: ٤٥٠ ل.س. أو (٢٠) دولار أمريكي
الدوائر الرسمية داخل القطر	: ٣٠٠ ل.س.
الدوائر الرسمية في الوطن العربي	: ٥٠٠ ل.س. أو (٢٥) دولار أمريكي
الدوائر الرسمية خارج الوطن العربي	: ٦٥٠ ل.س. أو (٤٠) دولار أمريكي
أعضاء اتحاد الكتاب	: ٧٥ ل.س.

■ الاشتراك يرسل حواله بريدية او شيك او يدفع نقدا الى : (محاسب مجلة التراث العربي) ■





لسان العرب

www.lisanarb.com

رابط بديل lisanearb.com

المحتوى

۲

- نسلة المداثة والتراث
د. علي عقلة عرسان ٧

اسم الفاعل والموازنة بينه وبين الصفة المشبهة
صلاح الدين الزعبلاوي ١٥

الطوفان ... بين الحقيقة والأسطورة
إعداد: محمد فضائلة الماملي ٤١

زراعة التغيل عند العرب - مشروع دراسة مقارنة
فاطمة السباعي ٦٦

غمدان ... أول ناطحة سحاب في العالم
مطهر علي الرياني ٩٤

من تاريخ قنسرین
علي جعفر التوييل ١٠١

وجهًا لوجه امام المرأة
د. عبدالكريم اليافي ١٠٨

شخصيات أدبية من التراث القريب
عبداللطيف ارناؤوط ١٢٦

سمات الروح
عبدالوهاب الشیخ خليل ١٤٦

★ نشاطات في خدمة التراث :

حلب ... وطريق المرير
علي القيسي ١٤٨

أمثلةً أحداثه والترااث

د. علي عقلة عرسان

في العداثة ومنها اليوم قد يصبح ، مع الزمن ، في التراث ومنه ،
ما يكون وما يشكل قوام التراث يكون جنداً لساق وأغصان تورق عليها
العداثة ، فلماذا يقوم الرفض أحياناً بين العداثة والتراث؟! وهل
يمكن أن يؤدي ذلك الرفض إلى عطالة في إداء النسخ الدائبة السريان بين
جندر وساق وأوراق ، وبين تراث ومعاصرة وحداثة؟!

أطرح السؤال وأنا مقتنع بضرورة التفريق بين حداثة وحداثة ، بين
فوضوية تدميرية ، ضائعة أو ترمي إلى التضييع ، وبين بحث جاد وشوق متوجه
إلى الكشف وجلاء الرؤى وإرتياح العالم البكر ، بين محظوظ بليل تتخطفه
نوازع شتى وتقوده يداه وقدماه الفارقتان في الظلام عبر مهاوي الظلم ،
فيسحق النهر ويذمر الشمر أحياناً، وبين سار على ضوء بصيرته ، ينير قلبه لينيه
الطريق ، وتنقرى أنامله بساط الكشف على نور البصيرة ، فيتدفق بين يديه نهر
الابداع الذي يتواصل ماؤه مع بحر التراث .

أطرح السؤال وأنا أفرق تفريقاً دقيقاً بين حداثة عمياء تحركها حماسة
هوجاء ، ولا تملك من أدواتها ومسالكها شيئاً ، وقد تدفعها إلى ذلك دوافع
تنطوي على الاغواء وترمى إلى الایقاع بالثقافة والإبداع بأيدي من ينتمون لها

بينما المحرك معاد أو دخيل، وبين حداثة تملك أدواتها وتدرك أهدافها وترى مسالكها وكيف تصل إلى ما تريد مع الحفاظ على الانتماء والاتصال ، وتتبخ من حب الإنسان للتتجدد ، ورؤيه في الأعمق تسكن قلوب المبدعين وتوجههم في حصول الانتاج سعيًا وراء الاغناء والاقتناء .

كما أطرح السؤال على أرضية اليمان بضرورة التجدد ، الذي هو صراط العداثة الحقة ، وبأهميةه سواء سمي حداثة أم لم يسم ، وعلى أرضية الاقتناع التام بأن الإنسان ، في كل عصر ومكان ، لا بد له من أن يكون ابن بيته الثقافية ، وخصوصيته القومية ، وهو يسمى ليؤكد ذاته ويقدم للآخرين مكتشفاته ، من خلال الخروج على المألوف خروجاً واعياً لأهدافه وغاياته ، يرمي إلى البناء والى ترك بصمة في مجالات ذلك المألوف تزيينه أو تحركه نحو ما يغدوه وما يزيده فعالية وجمالاً وتأثيراً وحيوية ، ونحو ما يشير قدراته على اغذاء الناس والحياة والإبداع الإنساني .

وطرحني لسؤال التراث والعداثة نابع من شعوري بوجود هوة بينهما وقيام أزمة ثقة وأزمة توافق واعتراف متتبادل بين ممثلي كل فريق – على تفاوت فيما بينهم – وتزايد عشرات في طريق التفاهم والتعاون والتكميل ، يؤدي إلى تضخمها وتذكر بعض ممثلي كل فريق للفريق الآخر ، ورفضهما لاستقرار معيار بعكم الأمور .

وعلى الرغم من أن جسر اللقاء متحقق في الاتفاق حول شرعية التجدد ومشروعيته ، إلا أن لكل فريق نظرته لمفهوم التجدد ومداه وحدوده ، ولكيفية الوصول إليه وتحقيق أهدافه .

فالعدائي يصل أحياناً إلى رفض كل معيار ومفهوم مستقر ، ويرتمي في أحضان التمرد المطلق حتى ليصل في حالات إلى فوضى التدمير مأخذًا بالاحتجاج على القيود منطلقاً على أجنحة ترفض تقييد الحرية ، والتراثي . قد يصل إلى حدود رفض الخروج على أبسط تفاصيل القواعد والمفاهيم المستقرة . ويستمر

الأداء في الاتجاهين دون الالتفات إلى حقيقة وجود جسر التواصل المأمون القائم في التجديد المعترف به ، والذي ينضج به تاريخ الأدب .

ففي تاريخ الأدب العربي من أهل ، كل من أسس مرحلة أو دفع باتجاه تأسيسها كان مجددًا من جهة وخارجًا على ما أسسه السابقون إلى حد الاتهام له في بعض الحالات من جهة أخرى ، وربما كان خروجه ذاك « حداثيًّا » بالمعنى السلبي أو الإيجابي للكلمة ، حسب تداول المصطلح ومدلولاته اليوم ، بالنسبة لشريحة من المهتمين والمتلقين في ذلك الزمان .

فالشعر العربي في العصر الأموي ، مثلاً ، فيه خروج على ما تألف عليه شعراء الجاهلية ونقاد الشعر ومتلقوه في ذلك الزمان ، وفي العباسى خروج على الأموي وعلى رصانة الشعر وأغراضه في بعض الحالات والأذمنة ، وفي الشعر الأندرلسي « المoshayat مثلاً » خروج على بعض معاير الشعر العربي ، وقس على ذلك ما شئت أن تقيس ، حتى تصل إلى الشعر الحر ، أو شعر التفعيلة ، وإلى ما يسمى « قصيدة النثر » وضروب أخرى من الانتاج الذي يلتصق بالأدب المدربي اليوم .

وعليه فإن سؤال الحداثة والتراث ، سؤال يكاد يكون قد يملا حديثًا في آن معاً ، إذا ما حملنا كلمة الحداثة على ما فيها من تجديد أو خروج على المألوف ، ولكن حداثة اليوم ، من بعض الوجوه والمسارب تأخذ على عاتقها التدمير وإشاعة الفوضى ، ويخرج قصار القامة من يسيرون في ظواهراتها على كل شيء ، حتى على سلامة اللغة وقواعدها ، وبالتالي لا يملك بعضهم أدوات الصنعة ولا يحسن استخدامها إذا ما وضعت بين يديه ، فضلًا عن عجزه الظاهر عن استخدام المواد التي تكونُ الابداع أو يتكون منها الابداع ، فكيف يصل إلى التشكيل الفني المتفوق ، والتكون والتلوين والموسقة العذبة ، وإلى السعر الذي يشيعه في النفس توافق سحر الماء وسحر الاناء ، سحر المضمون والشكل ، وتتاغم ايقاع عميق الغور بين النص والمتلقي فتكتون متنة التلقى وشرارة التغيير العميق في نفس المتلقى ، وبالتالي أداء الوظائف العامة للأدب والابداع !!؟

يقول حدائي^٢اليوم : إبني أكتب لأجيال قادمة يصعب على من يعيشون في الماضي ويحيطون أنفسهم بأسواره أن يتعرف على احتياجاتها وطلباتها ، وإنني أعيش حالة خاصة في عصر متتطور يفوق تقدمه كل توقع ولذلك فاني لا ألزم نفسي بأي قيد وأجد أن انطلاقتي ينبغي ألا تحكم بشيء ، وحتى بعدم فهم الماصرين لما أقول .

و حين يواجه ذلك القائل بامكانية ألا يكون لما ينتجه أية قيمة في المستقبل وربما في العاضر ، يصعد خده ويتشفي الأرض مرحًا غير آبه بما سيكون .

ومسار التراث يطرح أمامه حقائق منها أن في التراث الأدبي ، الذي يشكل جذر الأدب ومنهله وقوامه العام ومغزونه العيسوي الهائل ، انتاجاً تم تخزينه في مخابئه أكله الفبار وتناولته الأقدام ، ونسقه الخلق ، ولم يعد له تأثير أو حضور ، وربما ولد أصلًا دون حيوية أو تأثير أو حضور ، وصار شيئاً مما يتراكم على عتبات الابداع ويسد الطريق إليه وعليه في بعض الفترات ، ولا شك في أن ذلك عديم التأثير في مجرى النسخ العي المتواصل بين قديم وجديد ، وربما هو عديم القيمة ، فهل يصح أن يكون ذلك عنواناً للأدب وللتراث ، من وجهة نظر العدائيين الذين ينعون على التراث احتواءه بعض مالا يهضم ولا يفهم ولا يصح تسويقه أو تسويقه ؟!

ولكن في التراث كذلك ابداعاً حياً مستقبلياً مؤثراً يحيي موات النفوس ويجدد متعتها ، ويكتسب جدة بالتداول ، ويطاول كل جديد ، فهل ينسب ذلك الجمود والتجدد ويصبح أن يكون عميقاً أو عائقاً طريق من يزعمون أن الابداع في ظل العدائية يجب أن يعطي ظهره لكل قديم وكل معيار أو قيمة ؟ وهل ينسب ذلك النوع من الابداع الذي يمعن به التراث وتزдан به المعاصرة ، ويكتسب تأثيره النفوس ، هل ينسب إلى العدائية بمفهومها الایجابي أصولاً رغم انتمائه من حيث الولادة إلى عصور سابقة ، وهو أكثر انسجاماً مع مفهوم الابداع الجديد المتفوق من أي ابداع جديد ومتفرد ، وأكثر قرباً من الناس الذين يعانون ويبحثون عن راحة وتجدد من ابداع ينتمي إلى حداثة الآن ويشكل قوامها ؟!

ان تأثير الأدب وحضوره وامتداد حيويته يكاد يشبه تموجات حلزونية ودوائر اهليجية ذات أفلاك ومدارات تمتد مع الزمن ودورة التأثير والتواصل البشري معها ، واذا كان استمرار التأثير ، بكل قيمه ومقوماته ، واستمرار الاقبال على أدب وقبوله هو من أهم مميزات التجديد والجديد ، فان في التراث الانساني عامة وفي التراث الأدبي العربي خاصة إنتاجاً يتتفوق على كل حداة وحداثية من حيث الجوهر والفعالية ، وهذا يدفع باتجاه طرح سؤال يتصل بهوية « العدائي » من حيث السمات والمقومات والمواصفات من جهة ، ومن حيث الممايشة والحضور والتأثير ، ومن حيث الفعالية والتفاعل مع المتلقى من جهة أخرى . ويمكن بلورة ذلك السؤال وهوامشه في الصيغة التالية :

هل العدائية مجرد معاصرة وجود ، ومناصرة لأحلام وأوهام وطلبات يطبع أصحابها بالانتشار والخلود لأنهم يطهرون خيول النزوات دون أن يكونوا فرسان الرؤى والمواقف والكلمات فعلًا ، وتعل عليهم المصداقية لأنهم يديرون في الفضاء عيوناً مهووسة يمزاعم رؤية البعيد والعيش في المستقبل ، ويراكمنون أوهاماً فوق أوهام ، في حطام من كلمات وأخيلة ، تنوء بها نصوص كسيحة تزحف نحو الوضوح فيلقطها الوضوح ، وتعلق بالشفيف والمرمز من الابداع فتقع في الاغلاق وتفرق في برك التشوش أو يبتلعها مهماً " ضبابي جاف في قفر لانصيب فيه لحياة الروح والمعنى والكلم الطيب والفكر المنير !؟

وهل العدائية من الاعتداد بالذات والاستغناء عن الصفات الى العد الذي تزعم معه أنها بمعنى عن الغير وعن كل معيار وكل نظير ، وكل مطلق وتقدير ونقد ، وأنها تكتفي بأن تكون مسكنة بالطموح المشروع والتعلق بكشف مستقبلي أو بحضور ما في المستقبل ، دون النظر الى أهمية العلاقة مع الحاضر ، أو اهتمام بتقويم المعاصر لها ، وتفاعلها معها ، واستفادتها منها ؟! إنها ان وصلت الى ذلك تكون حالة الوهم والضياع في تجسد من غرور يسعى على قدمين ، وأقدام الغرور من قصب ، وإقدامه رخو " كأشجار الغَرَب !!

وهل العداثة جدة ولادة ليس الا ، وتشبث بالبحث عن تورمات ومتغيرات ، حتى لو كانت تلك التورمات سرطانية خبيثة قاتلة ، والمتغيرات تقود الى المتابعة والهجرة والضلالة ؟ ! أم ان العداثة ولادة طبيعية للجديد المدهش المتألق في جدته وتتجديده وحضوره ، ولادة لنصوص فنية وأفكار جريئة ورؤى مستشرفة أخاذة بصواليتها وادهاشها وجماليتها ، نمت في رحم حنون حماها وغداها وقدمها للحياة ، فتلقفتها بيئتها تحنو عليها وتعن اليها وتعاطف معها وتتلهف لها ، فينمو كل ذلك نمواً سليماً ويحقق نهضة شاملة وسليمة بتواصله الخلاق مع الاحياء ومكونات الحياة الثقافية ، ويشكل جزءاً عضوياً من كل متكامل في مشهد حضاري يزداد زهواً بالاقبال عليه والانتفاع منه ، وتكبر أهميته بالعاجة اليه والاستفادة منه .

ان التراث يحقق تواصلاً اعمق وأدوم مع الناس والأدب والحضارة ، وعندما يصبح انتاج « العداثة والعداثي » تراثاً ، قد يكتسب بعض تأثير التراث بقوه القدم - للقديم قوه لا تنكر - ولكن الى أن يرسخ العداثي حضوره وجذوره ، والى أن يكتسب اعتراف المتداول ومكانته وتأثيره ، فلا بد له من أن يدقق في سؤال هام : هل يمكنه أن يستغنى كلياً عن التراث ويستمر في رفضه والاعتراض عليه والت الشامخ فوقه وعدم الاكتتراث برأي سದنته والناظرین اليه نظرة احترام ؟ ! ألا يمكن أن يكون ذلك الموقف من العداثي شمرحة لا معنى لها ولا غناء فيها ؟ ! ربما كان ذلك التعارض والتناقض من طبيعة الاشياء وسفن الحياة ، فالابن يخرج على أبيه ، وقد يلد الصالح طالعاً والطالع صالحًا ، وتتوالى صيرورة الحياة ضمن سيرورتها التي تتضمن جوهر الصراع ، ولكن الحياة تعلمنا أيضاً أنه لا يمكن أن يتتفوق الجنون على العقل ويصبح أساس نظام الحياة والابداع ، ولا يمكن أن يصبح الاضطراب العصابي حالة سلامية ومقاييساً للسوية البشرية ، وأنه لا يمكن مجاوزة معياریة الزمن والقفز فوق امتحاناته وغر باله .

ان الأسئلة التي يطرحها التراث على العداثة ، وتلك التي تطرحها

الحداثة على التراث كثيرة ومتشعبه ومثيرة ، وينبني التوقف عندها بدقة موضوعية للتمييز بين تطلعات ايجابية مشروعة وبناءه وأخرى قاصرة وهدامة، بين علاقة سليمة تؤدي الى استمرار تيار الوعي والذاكرة والهوية في الابداع، واستمرار التواصل والتاثير بشكل سليم، كما تؤدي الى تنوع الولادات وغناها في ظل الصحة والسلامة والتمايز والرعاية، وصولاً الى التفوق المرتفع ، وبين اجهادات متتالية كحالات حمل قد يكون متميزاً فيما لو تم بصورة طبيعية ولقى حضانة سليمة .

ومن حق العدائي على التراثي الا يكون الاخير له قيداً أو غلاً، وألا يجبره ضمن قوقة ويعجب عنه الشمس والرياح والانطلاقرة الحرة التي هي مناخ الابداع وماء حياته وسر حيوته ، وأن يفيض عليه من رحابة الاستيعاب ويتسع له ما اتسع مجال الابداع للتجدد ، مع الحفاظ على الهوية وتمايز الأنواع في خطوطها العريضة التي تبتها جواهر المقومات والقيم والمعايير .

ومن حق التراثي على العدائي أن يكون الاخير مستوياً لأهم معطيات الأول ومقوماته وقيمه ، وأن يتعرف اليه جيداً ويقبل عليه ليتمكن من استيعاب ما لديه، ويخرج عليه اذا ما خرج خروج المقدرين المتمكنين العارفين من هم وما يريدون ، وما يرفضون وما ينشدون ، ومن حق التراثي على العدائي أيضاً أن يحمل معالم هوية الأصالة لديه ليكون وريثاً شرعياً له حتى لا تأكله الهجنة وينتمي الى الغير ، وحتى لا يكون سلاحاً فتاكيماً يهوي على الشجرة / ساقاً وجدرأً وأغصاناً وأوراقاً / فلا يترك لها قيمة ولا قواماً .

ولا بد أن تحكم العلاقة بعض الأسس والمعايير التي تجعل للاستمرار وجوداً وتجعل له معنى . وربما كان من واجب العدائي أن يكون جاداً في سيره دون أن يشتطط به السير والمسار فيصبح كالمنبت لا ظهرأً أبقى ولا أرضاً قطع .

ان الأسئلة التي تطرح عند نقطة السرة بين الحداثة والتراث تبقى من الأهمية بحيث تستحق أن تعالج بعمق دائماً ، وفي أزمنة ومراحل متتالية ،

لأنها أكثر من إعادة نظر بمسيرة التواصل ، وأنها أكثر من تجديد للعلاقة ، واستبصار بتفاصيلها ونتائجها، واستشراف للدروب والآفاق التي تؤدي إليها ، وأنها قبل ذلك كله وبعد ذلك كله ، نظرة تقويم على أسس منطقية ومنهجية تقتضيها حركة الحياة والابداع ، ومتطلبات التواصل بين جيل وجيل في أمة وبين مبدع ومتلق ، وبين ثقافة وثقافة في اطار الفن الذاتي والانساني الذي ينتج عن تلاعهما واستمرار تفاعلهما ، التفاعل القومي والانساني ، وبين ثقافة ذات هوية وخصوصية تصب جدولًا صانعًا في حضارة انسانية شاملة فتنفي تلك العضارة وفروعها التي تكونها .

التراث والعداية – بمعناها الابجبي السليم – صلة حية بين جذر يمنح الثبات والحياة ، وثمرة لا تثبت أن تتجدد على فرع يفلظ ليزيد الساق قوة، وليعتمد أكثر على الجذر بانضمامه إلى كيانه العام .

فلنحافظ على مناخ سليم ل التواصل سليم يؤدي إلى أطيب الشار في أكثر الأدوات اتصالاً بالجمال والحياة والناس . واننا على ذلك قادر وون .
بعون الله .

دمشق في ١٢/٢٨/١٩٩٤



الاسم الفاعل

والموازنة بينه وبين الصفة المشبهة
وما يعرض الكتاب فيه من لبس وإشكال

صلاح الدين الزعبلاوي

١ - اسم الفاعل ودلالته :

الائمة في تعريف اسم الفاعل أنه اللفظ المصور من الفعل المعلوم للدلالة على معنى وقع من الموصوف ، او قام به على جهة العدوث لا الشوت ، على حين يقولون في تعريف الصفة: المشبهة أنها اللفظ المصور من الفعل اللازم للدلالة على معنى قائم بالموصوف على وجه الشبوت لا العدوث .
ويتبين بذلك أن الصفة المنبهة تتميز بانها تدل على الشبوت ، وتشتق من اللازم ، وأن اسم الفاعل يدل على العدوث ويصاغ من اللازم والمعنى .
ويأتي مبني اسم الفاعل من الثلاثي المجرد على (فاعل) بكسر ما قبل آخره ، وهو اما ان يصاغ من (فعّل) المقصوح العين في الماضي ، متعدياً ولازماً ، كضارب من ضرب وقادع من قعد ، او من (تعّيل) المكسور العين فيه متعدياً كشارب من شرب . هذا هو القالب فيه . وهو يصاغ من غير الثلاثي على ذئنة مضارعه بابداً اوله مימה مضمومة وكسر ما قبل آخره، كمسْعِفٍ من اسْعَفَ ومجيب من اجَبَ .

آ - ما جاء من اسم الفاعل على غير الأصل :

قد يأتي اسم الفاعل خلافاً للأصل المقيس الذي ذكرناه ، كان يصاغ من (فعّل) بكسر ما في الماضي ، ولكن من فعل لازم غير متعد ، فيدل على الشبوت كسلام من سليم وتأله من تله وخطيء من خطيء ، بكسر عين الماضي فيها جيئاً . او يأتي من (تعّيل) بكسر عين الماضي اللازم على صورة المتredi بعنف الجبار ، فيدل على الشبوت ايضاً ، كساخط من سيخطه بالكسر ،

والأصل سخط منه ، أو يأتي مما يستوي فيه المذكر والمؤنث كرجل بالغ وامرأة بالغ ، ورجل خادم وامرأة خادم ، فيدل كذلك على الثبوت . وقد ذهب المحققون إلى أن ما استوى فيه التذكير والثانية من الصفات ليس صفة مشبهة ولا اسم فاعل ، بل هو صفة (على النسب) كرجل عاشق وامرأة عاشقة ، أي ذي عشق ذات عشق .

ب - دلالة اسم الفاعل على الحال أو الاستقبال :

خص "النهاية دلالة اسم الفاعل بالحدوث حين قرئته بالصفة المشبهة الدالة على الثبوت . وقد قصدوا بذلك إفادته للحال أو الاستقبال نحو افاده مضارع فعله . وبني على ذلك اعمال اسم الفاعل مجرد من (الـ) في معموله ، وذلك بتقويمه وتنصبه المعمول اذا كان متديلاً . على أن يستوفي شروط الاعمال كوقوعه خبراً أو صفة أو صلة او حالاً ، أو وقوعه بعد نفي أو استفهام ، ذلك لستحكم المشابهة بينه وبين الفعل .

ويستعراض عن اعمال اسم الفاعل المدّ للعمل ، باضافته اضافة لفظية لا تقييد التعريف . وهذا يعني أن اسم الفاعل ما دام يفيد الحال أو الاستقبال لا يتعرف بالإضافة . والشاهد على ذلك قوله تعالى : « كلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ » - ال عمران / ١٨٥ . فقد جاء (ذائقه) لعكابية الحال ، وقرئه بالإضافة فكانت اضافته لفظية لا تقييد التعريف ، كما أعمل فيما بعده فقراء بالتنوين ونصب (الموت) ، قال المكيبي حب الدين أبو الباقم في كتابه (إملاء ما منْ به الرحمن من وجوه الاعراب والقراءات في جميع القرآن) : « وأضافة ذاتقة غير معضة » أي لفظية لا تقييد التعريف . وعلل المكيبي ذلك فقال : « لأنها نكرة يُنْكَرُ بها الحال » ، وأردف : « وقرئه شاذة ذاتقة الموت بالتنوين والاعمال » . أقول ما دام قد قرئ به فهو جائز على كل حال . قال القرطبي أبو عبد الله في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن) : « وقرأ الأعمش ويعيبي وابن أبي اسحاق ذاتقة الموت بالتنوين ونصب الموت ، قالوا لأنها لم تدق الموت » . وقال الفراوي في كتابه (معاني القرآن) : « ولو نوّنت ذاتقة ونصبت كان سوابيا » . ومكذا اذا جاء اسم الفاعل على الأصل فدل على الحال أو الاستقبال . يمكن إعماله اذا استوفى شروط الاعمال ، وأمكن اضافته فكانت بالإضافة لفظية لا تقييد التعريف .

ج - دلالة اسم الفاعل على تجدد الصدث مستمراً :

قد لا يقت اسم الفاعل عند دلالته على الحال أو الاستقبال فيتجاوز ذلك إلى افاده تجدد الحدث باستمرار ، وهو ما اصطلاح عليه متعدد النهاية باستمرار التجدد . فيقوم اسم الفاعل حينئذ بعمله بعد التنوين وينصب المعمول ، على الأصل ، فإذا أضيف كانت اضافته كذلك لفظية لا تقييد التعريف . ومثال هذا قولك (زيد مكرم الضيفان) على بالإضافة ، و (زيد مكرم ضيفانه) بتنوين اسم الفاعل ونصب ما بعده . قال الشيخ ناصيف اليازجي في كتابه (نار الفرج) (١٧٨) : « وجرى مجرى ما كان على الحال والاستقبالما أريد به الاستمرار التجددى تعم زيد مكرم ضيفه » بتنوين مكرم ونصب ما بعده .

وقد جعل بعضهم من هذا القبيل قوله تعالى : « فالآيات صباح وجعل الليل سكنا - الأنعام / ٩٦ . فقد قرئه « وجعل الليل سكنا » وجاء في قوله :

الأول أن اسم المفاعل دال على تجدد الحديث باستمرار ، ويمكن حينئذ إضافته ، فتكون إضافته لفظية لا تفييد التعريف ، واعماله فيكون (سكننا) منصوباً به . وقد أشار البيضاوي ناصر الدين في تفسيره (أنوار التنزيل) إلى دلالة اسم المفاعل هذه فقال: « على أن المراد منه جعل مستمر » . كما أشار العكبي في حب الدين أبو البقاء في كتابه (أملاء ما من) به الرحمن من وجوه الاعراب) إلى اعمال اسم المفاعل فقال: « وجاء في الليل مثل فالق الأصحاب في الوجهين ، وسكننا مفعول جاعل اذا لم تعرفه » .

والثاني أن اسم المُعامل دال على الماضي بدليل قراءته الأولى (وجعل)، فيجب حينئذ إضافة تكون إضافته معضة تفيد التعريف، ويُمتنع في هذه الحال عمله فيقدر نصب (سكننا) بفعل مخدوف، كما سُندَ ذكره بعد. قال المكري : « وان هـ فـ كان منصوباً بفعل مخدوف اي جمله سكـنا » .

د - دلالة اسم الفاعل على الماضي :

قد يدل اسم الفاعل على المضى وحده دون الحال أو الاستقبال فيلفنى عمله وتجب فيه الاضافة فتكون اضافته معنوية حقيقة معرفة تفيد التعريف كاصفه الاسم غير المشتق . ومثال ذلك قوله تعالى : « الحمد لله فاطر السموات جاعل الملائكة رسلاً - فاطر / ١ » ، فقد جاء (فاطر وجاعل) مضافين اضافة معرفة تفيد التعريف . قال المكري في كتابه (املاء ما من به الرحمن من وجوه الاعراب) : « فاطر السموات : الاضافة معرفة لأن للماضي لا غير . وأما جاعل فذلك في أجود المذهبين »

٩ - دلالة اسم الفاعل على الاستمرار :

وقد لا يدل اسم الفاعل على زمن معين فيفيد الاستمرار فيعامل معاملة ما يدل منه على الماضي . قال تعالى : « حم تزيل الكتاب من الله العزيز العليم ، غافر الذنب وقابل التوب - غافر / ١ - ٢ » .

☆ ☆ ☆

ويتبين مما تقدم أن دلالة اسم الفاعل على المحدث تعني مشابهته للمضارع وافتاده للحال أو الاستقبال أو تجاوزه ذلك بالقصد إلى دوام التجدد ، وهو يعمل في هذه الحال فينصب المفعول إذا كان متعدياً أو يضاف ف تكون أضافته لفظية . وقد يتتحول من مشابهة المضارع فيفيد الماضي بغيرهية أو يفيد الاستمرار فيلتفت عمله في الحالين ويضاف ف تكون أضافته حقيقة معنوية . قال عبدالرحمن الجامبي في شرح المكافحة لابن العاچب : « كان كان اسم الفاعل المتعدد للزمان الماضي بالاستقلال أو في ضمن الاستمرار ، وأريد ذكر مفعوله وحيث الإضافة ، أي إضافة اسم الفاعل المفصول معن ، أي إضافة معنوية » .

و - انزال اسم الفاعل منزلة الاسم غير المستق :

وقد ينزل اسم الفاعل مثلاً الاسم غير المشتق كالمال والمؤمن والكافر فانها أسماء فاعلين يريد بها الشيئ . و (ال) الدالخة عليها للتعریف وليس موصولة ، لأن (ال) الموصولة انت تدل على ما يراد به المدحث لا الشيئ . واذا جئت اسماء الفاعلين هذه من (ال) التعریف وأضيفت

كانت اضافتها معنوية لا لفظية . تقول جاء عالم بلدنا ، فصال في الأصل صفة أضيفت إلى غير مسؤولها فأنزلت منزلة الاسم . وهكذا قوله جامع مسارع العلبة . ومكدا الكاتب والقاريء والشاعر والمامل والقاضي اذا أريد بها من يزاول الكتابة والقراءة وقرض الشعر والعمل والقضاء .

٢ - كلام الباحثين المحدثين على اسم الفاعل ودلالته :

١ - كلام الدكتور ابراهيم السامرائي :

تحدث كثير من الباحثين المحدثين عن دلالة اسم الفاعل ومنهم الدكتور ابراهيم السامرائي في كتابه (ال فعل زمانه وأبياته)، فانكر أن يكون الأئمة قد نسبوا دلالة الاستمرار إلى اسم الفاعل، فقال: « والقول بدلالة فاعل على الاستمرار ما انفرد به المخزومي . فقد اقصى السابقون على دلالة فاعل على المستقبل ، وهو اسم الفاعل المتون العامل ، نحو أنا صائم يوم الخميس ، أي ماصوم . وعلى المضي وهو اسم الفاعل المضاف نحو قاتل أخيه أي قتل/٤٢» ! قال هذا وكأنه لم يعain ما جاء في اسنفار المستلت لا سينا الفقيه ابن مالك وشرح الأشموني لها ، وحاشية الصبان على هذا الشرح، بل كافية ابن العاجب وشرحها للرضي والجامي ، فضلاً عن كتاب (معجم الموامع في جمع الجواب) للسيوطى . وقد عبّر السيوطى عن دلالة اسم الفاعل على الاستمرار بعدم اختصاص هذه الدلالة بزمان دون زمان . فقال : « قاتل قصدى ترقيقها ، أي الصفة المضافة إلى مسؤولها ، بأن قصد الوصف بها من غير اختصاص بزمان دون زمان تعرفت . ولذا وصف بها المرارة في قوله تعالى : مالك يوم الدين ، فاللقي العجب والنوى ، غافر الذنب ، الا الصفة المشبهة » . « ولا ننسى ما ذكرناه من قول أبي البقاء الكوفي في كلياته : « مبني الاستمرار هو الثبوت من غير أن يتعذر منه الحديث في أحد الأزمنة - ٣٢٢/٥ » .

وليس هنا وحسب فقد جعل أبو البقاء الكوفي دلالة اسم الفاعل على الاستمرار أو الثبوت في أصل وضمه ، اذ قال : « اسم الفاعل يستفاد منه مجرد الثبوت صريحاً بأصل وضمه ، وقد يستفاد منه غيره بغيره - ١٧٣/٥ » .

ولوجه النظر هذه في اعتداد الثبوت أو الاستمرار هو الأصل في دلالة اسم الفاعل وجه متقبل . ذلك أن اسم الفاعل (اسم) والاسم على الثبوت والاستمرار ، ولكن يشبه الفعل وشبيهه هذا قد تقول به إلى ما يدل عليه الفعل المضارع من حرقة وتجدد . وهذا ما كشف عنه الإمام عبدالقاهر الجرجاني في كتابه (دلائل الاعجاز ١١٥)، فاقصع عن الفرق بين قوله (زيد منطلق) و (زيد ينطلق) . فقولك (زيد منطلق) يثبت الانطلاق لزياد دون أن يقتضي تجددآ، أما قوله (ينطلق) فإنه يثبت لزياد انطلاقاً يتجدد فنيع منه شيء يدعشه . وإذا كان النهاية قد ذكروا أن قوله (خالد دائم) في عمله (يدأب فيه) ، فإن قوله هنا على المشابهة لا على الماثلة والمطابقة . ذلك أن في أصل دلالة المضارع من التجدد ما ليس في أصل دلالة اسم الفاعل ، وقد أشار الأشموني إلى دلالة المضارع هذه ، في شرح ما جاء من قول ابن مالك في الفقيه (أحمد ربى الله خير مالك)، اذ قال: (واختار صيغة المضارع المثبت لما فيه من الاشمار بالاستمرار التجددى ، أي كما أن آلامه تعالى لا تزال تتجدد في حقنا دائماً كذلك نحمده بمحامد لا تزال تتجدد) . وهذا يعني أن الأصل في التجدد

أن يكون لل فعل ، فإذا وصف به اسم المفاعل فقد استدعت ذلك قرينة تحولت باسميته إلى مشابهة الفعل .

وإذا كنا قد جارينا النعمة ما هنا فجعلنا الأصل في اسم المفاعل الدلالة على العدد ، فإذا دلَّ على الاستمرار فقد تحول عن أصله ، فذلك لأننا نراه بالصفة المشبهة الدالة على الثبوت فوازنا بينه وبينها فتغدر عنها بافادة العدد . ولو قرئنا اسم المفاعل بالفعل فوازنا بينهما لكان الفعل صاحب العدد وكان اسم المفاعل هو الدال على الاستمرار .

٢ - كلام الدكتور مهدي المخزومي :

تحدث المخزومي في كتابه (في النحو العربي) عما جاء في (فأمثل) اسم فاعل في مذهب الكوفيين فقال : « وأما مثل فاعل فهو أحد أقسام الفعل وهو الفعل الدائم الذي لا دلالة له على زمن معين اذا لم يوصل بصلة من مضاف اليه او مفعول » . وفي كلامه هذا موضع للنظر ، ذلك أن الكوفيين لم يسموا اسم المفاعل الفعل الدائم لعدم دلالته على زمان معين ، بل لدلالته على الماضي ذارة والحال والاستقبال ثانية أخرى . والمخزومي قد اشتغل بالدلالة اسم المفاعل على زمن معين ان يضاف او يتضمن مفعولاً . واضافة اسم المفاعل الى معمولة قد تدل على الحال او الاستقبال ، كما في مثال (ذائقة الموت) او على الماضي كما في مثال (فاطر السموات) ، لكنها قد لا تدل على زمن معين فتنيد الاستمرار كما في مثال (خاف الذنب قابل التوب) .

٣ - كلام الاستاذ محمد العدناني :

بعث الاستاذ محمد العدناني في كتابه (معجم الأغلاط اللغوية المعاصرة) عمل اسم المفاعل فقال : « يعمل اسم المفاعل الشتق من الفعل التمدي عمل فعله في رفع المفاعل ونصب المفعول به كقولنا – هندي دارسة جميع دروسها ، والقانون شامل كل القوانين السابقة ، وأرى جيشنا ساحقاً جيش الأعداء » . وهكذا أتي بمفهولات أسماء المفاعلين منصوبة ، وهي (جميع وكل وجيش) ثم أردف : « ما عدا اسم فاعل واحداً هو – صاحب – فتقول: صعب حسام ياسراً فهو صاحبه ، ولا يجوز أن تقول حسام صاحب ياسراً ، بتثنين صاحب ، بل تقول حسام صاحب ياسراً، بالإضافة لأنهم استعملوا اسم المفاعل – صاحب – استعمال الأسماء فغيرت عليه أحكامها » .

اقرول لا شك أن اسم المفاعل لا يعمل عمل فعله ما لم يدل كمضارعه على الحال او الاستقبال او يفيد الاستمرار التجديدي ، فإذا أنزل منزلة الأسماء الغي عمله . وقد بسطنا القول في ذلك وأتينا بأمثلة من أسماء المفاعلين أنزلت منزلة الأسماء . لكن الغريب حقاً أن يذهب العدناني الى أن المرء لم تنزل من أسماء المفاعلين منزلة الاسمي (صاحب) ، فكيف يمكن أن يُخصَّ (صاحب) بهذا ، على اتساع لغة الصاد وتقليل مساني مفرداته وتشعب أساليب التعبير فيها وتبنيتها . وسا أثيرنا اليه من أسماء المفاعلين التي خصت بهذه المنزلة ، منزلة الاسم : عالم وقاض وكاتب وعامل وشاعر اذا أريد بها من زاول المعلم والقضاء والكتابة والعمل وقرض الشعر ، ومثلها كثير .

وقد قرئ سيبويه في (الكتاب – ٢/١٠٠) بالصاحب (الوالد) والوالد هو الأب . وقد بعث قياس جسمهما بعد أن كانوا صفتين فالصبي اسين، فقال : « قاما والد وصاحب فانهما لا يجممان

ونعوها كما يجمع قادم الناقة ، أي لا يجمعن جمع الأسماء ولو إنزا منزلة الاسم ، فلا تنسى في جمع (والد) أو والد ، وفي جمع (صاحب) صواحب ، كما تقول في جمع (قادم) قوادم . وقادم الإنسان رأسه ، وقادم الناقة مقدمتها . قال الرزوفى فى شرح الحاسة (ص ٧١) : « صاحب وفمه صاحب صفة فى الأصل استعملت استعمال الأسماء ، فلم يجر مجرى أسماء الفاعلين ، ويجري على طريقته قولهن والد » . وقال نحو من ذلك ابن سيده فى مخصوصه (٥٥/١٧) .

وفي اللة (قائم السيف وقائمه) أي مقبضه ، والقائمة كذلك واحدة قوائم الدواب ، كما جاء في مختار الصحاح . ويدخل في هذا الباب قولهن (قافلة الماج) ، وقد أسميت بها الرفة . قال ابن قتيبة في (أدب الكاتب) : « سمي الرفة بالقافلة قبل قفلوا تفاؤلاً » . . وقال الصاغانى في كتابه (الذيل والصلة) : « من قال القافلة للراجعة من السفر فقد غلط ، بل ذلك للمبتدئة في السفر تفاؤلاً لها بالرجوع » . ومكنا (الازفة) في قوله تعالى : « واندرهم يوم الازفة إذ القلوب لدى العناجر - غافر ١٨ ، والأزفة يوم القيمة وهي مشتقة من (ازف الرحيل) اذا قرب .

٣- تبع الصفة للموصوف في التعريف والتنكير :

يشترط في الصفة أن تتبع موصوفها في التعريف والتنكير ، فإذا كان الموصوف معرفة وجب أن تكون الصفة معرفة ، وإذا كان نكرة كانت الصفة كذلك أيضاً . تقول (الحمد لله) وهي جملة اسمية اختيارية لفظاً ، اثنائية معنى ، وقد رفع فيها (الحمد) على الابتداء ، وكان الجار والمحور في محل الرفع خبراً للمبتدأ . فإذا أردت أن تصف اسم البلاهة (الله) قلت مثلاً (الحمد لله المعرف من غير روبيه) كما جاء في نهج البلاغة (١٥٢/١) ، إذ جاء (المعروف) صفة وكان معرفة لأن الموصوف معرفة . ومكنا قول القائل (الحمد لله الأول فلا شيء مقبله) كما جاء في نهج البلاغة (١٨٧/١) ، فال الأول صفة معرفة والموصوف علّم وهو اسم البلاهة . وفي التنزيل « الحمد لله رب العالمين » ، وقد جاء فيه (رب) صفة لله وهو معرفة لضافته إلى معرفة ، ومكنا قوله تعالى : « فسبارك الله أحسن الخالقين - المؤمنون » . ٨٤/

اما مثال التنكير قوله تعالى : « ولهم عذاب "أليم" بما كانوا يكتبون - البقرة/١٠ ، فاليم صفة لعداب وكلامها نكرة . وقوله تعالى : « ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون - البقرة/٢٥ ، فمطهرة صفة الأزواج وكلامها نكرة . وقوله تعالى : « ولا تشرعوا بآياتي ثماً قليلاً وإبئي فائتون - البقرة/٤١ ، فقليلًا صفة لقوله (ثماً) وكلامها نكرة .

وقليلاً يُشكل على الكتاب تعريف الوصف بـ (ال) أداة التعريف ، ولكن يشكل عليهم تعريف الوصف بالإضافة . فالسؤال ما هنا متى يكتسب الوصف التعريف بالإضافة فيصبح أن يوصف به الموصوف المرفق .

١- متى يتعرف الوصف بالإضافة :

القاعدة الا يبرئ المضاف عامة بالإضافة ما لم تكن اضافته معنوية محسنة تفيد التعريف ، وضابطها في الوصف ، سواء أكان اسم فاعل أو مفعول أو صفة مشبهة ، الا يكون مضافاً إلى

مموله فاعلاً أو منفولاً ، والا كانت اضافات لفظية لا تغيد التعريف . فليس لك ان تقول مثلاً (على النفس ذاتقة الموت ان تهتم بآخرها) ، بل الصواب ان تقول (على النفس ذاتقة الموت ان تهتم بآخرها) اي على النفس التي متذوق الموت ان تهتم بآخرها ، والأخرى هي الآخرة ، اي دار البقاء . وليس لك ان تقول (على المرء مهضوم العق الـ يسكن على ظلمه) بل الصواب ان تقول (على المرء المهزوم العق الـ يسكن على ظلمه) ما دام معناه الذي يهم حقه ، وليس لك ان تقول (المرأة حسنة الوجه تفتن الرجال) بل الصواب ان تقول (المرأة العسنة الوجه تفتن الرجال) .

وقد استثنوا من ذلك اسم التفاعل او المفعول اذا دلَّ على الماضي ، او لم يدل على زمن معين ، كما فعلنا في القول . قال السيوطي في كتابه (مع الهوايم - ٤٨/٢) : « فان قصد تعريفها اي الصفة المضافة الى معمولها، بان قصد الوصف بها من غير اختصاص بزمان دون زمان تعرفت ، لذلك وصف بها المعرفة » . وهو يعني بذلك دلاللة الصفة على الاستمرار ، فقد جاء في شرح (الأزهرية في علم العربية) خالد بن مبادة الأزهري، في اعراب الفاتحة: « رب نعمت اول شه ، وهو مضاف والعلمين مضاف اليه . والرحمن نعمت ثان شه ، والرحيم نعمت ثالث ، وما لك نعمت رابع » . وأردف: « وصح ذلك للدلالة على الدوام والاستمرار وهو مضاف اضافة محسنة ، ويوم مضاف اليه ومضاف ... » . وكذلك كلام السيوطي على الصفة اذا دلت على الماضي ، فقد سبق منه قوله : « فان كانت ، اي الصفة بمعنى الماضي ، فاضافتتها محسنة ... » اي اضافة معرفة يصح بها وصف المعرفة .

ولكن هل يصح في اضافة الصفة المشبهة ما صح في اضافة اسم الفاعل والمفعول . أقول قد استثنى السيوطي الصفة المشبهة فافردتها بحكم خاص وقال : « الا الصفة المشبهة فلا تتراء لأن الاضافة بها نقل عن أصل وهو الرفع بخلافها في غيرها فهي من فرع وهو النصب : ولأنه اذا قصد تعريفها ادخل عليها اللام » .

وما جاء هنا عن اضافة الصفة المشبهة وكونها لفظية ، لا تغيد التعريف في كل حال ، وأنها انت تتراء بـ (الـ) ، أقول ما جاء هنا هو رأي جمهور النحاة . فقد صبح الأشموني في شرحه ما ذهب اليه ابن مالك في النتيج فقال : « فهي اي الصفة المشبهة ليست بمعنى الحال او الاستقبال بل للثبات والدوام ، وهي وان كانت كذلك لا تتراء بالاضافة اصلاً » . وقد سبق الرضي الى ذلك في شرح كافية ابن الحاجب فقطع بان اضافة الصفة المشبهة لفظية ابداً وبني ذلك على كونها عاملة في محل المضاف اليه اما رفعاً اونسبة ، فقال : « فهي جائزة العمل دائماً فاضافتها لفظية دائمة » .

٢ - اختلاف حكم الوصف اذا أضيف الى معموله عاممة بين ان يكون اسم فاعل او مفعول او يكون صفة مشبهة :

يتبيَّن بما قدمنا ان اسم الفاعل واسم المفعول يتعرفان اذا أضيفا الى معمولهما بشرط دلالتهما على المضي او الاستمرار ، وأن الصفة المشبهة لا تتراء بالاضافة الى معمولها ، مهما كان حالها، مع دلالتها على الثبات في الأصل . وقد بني على ذلك أن الصفة المشبهة لا تصح وصفاً لموصوف

معروف اذا أضيفت الى معمولها ما لم تتمرس في اقتراحها باللام ، خلافاً لاسم الفاعل والمفعول ،
اذ يصبح أن يكونا وصفين لمحض معرفة اذا أضيفا الى معمولها دلالة على الماضي او
الاستمرار .

٣ - بحث اللغة العربية بالقاهرة وتعريف الصفة المشبهة المضافة :

قضى بحث اللغة العربية بالقاهرة في مؤتمر (عام ١٩٨٢) بتعريف الصفة المشبهة المضافة ،
واعتبر اضافتها معنوية ، فجاز وصفها للمعرفة قياساً الى اسم الفاعل والمفعول المضافين اذا دلالة
على الاستمرار فقد اهتم النحو اضافتها معنوية وأقرروا وصفهما للمعرفة ... فما الرأي في ذلك ؟

اقول أقول أقول بحسب اللغة القاهري تعريف الصفة المشبهة ، بعد أن شهد بمغایلة رأيه هذا رأى
النحو لا سيما الغليل ويونس وسيبويه ، فقال : « وترى اللجنة أن المضافة المشبهة أقرب إلى أن
تكون اضافتها معنوية » .

وعندى أن المجمع القاهري لم يُصب فيما ذهب إليه وأن قيامه ليس صحيحاً . ذلك أن
الصفات ، اذا أضيفت الى معمولها ، أما أن تضاف الى فاعلها او الى مفعولها ، فإذا كان الاول كانت
اضافتها لفظية لا تقييد التعريف ، صفة مشبهة كانت او اسم فاعل او مفعول . وإذا عرفنا أن
الصفة المشبهة لا تضاف الا الى فاعلها ادركنا ان اضافتها لفظية لا سبيل الى تعريفها . خلافاً لاسم
الفاعل والمفعول فإنها يضافان الى مفعولهما فاعلاً لاسم الفاعل ونائب فاعل لاسم المفعول ف تكون
اضافتها لفظية كاضافة الصفة المشبهة .

فاللسرا اذا في تعريف اسم الفاعل الصاف هو اضافته الى مفعوله أولاً ثم دلالته في هذه الاضافة
على الاستمرار ، فكيف يمكن أن تقايس به الصفة المشبهة ، وهي لا تضاف الا الى فاعلها ؟ قال
الرضي : « أما عمل اسم الفاعل والمفعول فهو جائز في المرفوع مطلقاً باضافتها ، فاضافتها
إلى فاعلها لفظية دائمة » .

٤ - اضافة الوصف الى مرفوعه لا تكون الا لفظية ، صفة مشبهة كان الوصف او اسم فاعل او مفعول :

هذا ما قضى به النحو . ولكن ما علة ذلك ؟ أقول علة ذلك اذا قلت (زيد حسن الوجه)
باضافة الصفة المشبهة الى فاعلها مثلاً ، فكانك قلت (زيد حسن وجهه) برفع (وجه) ، ولا بد من
تلازم الوصف وفاعله في التولين وتكميلهما وعدم انفكاك أحدهما عن الآخر ، كما هو شأن الفعل
وفاعله ، فاي تعريف يمكن أن يغييه الوصف باضافته الى ما هو كالجزء منه والاضافة انتها
تكون بين متفايرين ، كما يقول النحو . وقد أشار النحو الى تعلق الفعل بفاعله فقالوا : « تعلق
الفعل بفاعله أشد من تعلق المبتدأ بخبره ، لأن المبتدأ ينزلة الجزء من الفعل » جاء ذلك في
(الأشياء والنظائر - ٥٦٦/١) للمام السيوطي . كما قالوا : « الفاعل لا يتقدم على فعله لأنه
كالجزء منه » وأردفوا « الصفة لا تتقدم على الموصوف لأنها من حيث أنها مكللة له ومتيمة ،
أشبهت الجزء منه » المصدر - ٥٩٣/١ .

ويجزي خلاف ذلك اذا أضفت الوصف الى مفعوله، لأن المفعول ليس جزءاً من الوصف ، وهذا شأن الفعل ومفعوله فهما لا يتلازمان ولا يتكملان. فقد يكون الفعل لازماً لا مفعول له ، وقد يكون متعدياً ويستغنى عن مفعوله . فالوصف قد يفيد تعريضاً اذا ما أضيف الى مفعوله . والذى يضاف الى مفعوله من الوصف هو اسم التفاعل أو المفعول من الفعل المتصدي دون الصفة المشبهة ، وهما يفيدان من هذه الاضافة تعريضاً اذا دلّاً على الاستمرار . أما الصفة المشبهة فاذًا نسبت نسبتاً لفظاً لا معنى وقد أسموا منصوبها الشبيه بالمفعول، فقد قالوا (الحسن الوجه) تشبيهها له بـ (الضارب بالرجل) بالنسب فيما .

وانظر الى ما جاء في (املام ما منْ به الرحمن من وجوه الاعراب) للمكربري في اعراب قوله تعالى : « حم تتنزيل الكتاب منَ الله العزيز العليم . غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب - غافر ٢/١ » قال المكربري : « غافر الذنب وقابل التوب ، كلثاما صفة لما قبله ، والاضافة محضة » أي صفة لاسم الجملة . وقد أشار بقوله هذا الى أن اسم الفاعل (غافر وقابل) المضافين الى مفعوليهم قد تغيروا بالاضافة ، فاضافتھما محضة اي معنوية تفيد التعريف ، لدلائلهما على الاستمرار . وأردف : « وأما شديد العقاب فنكرة ، لأن التقدير : شديد عقابه » أي ان اضافة الصفة المشبهة (شديد) اضافة لفظية لا تفيد التعريف لانها مفقة ابداً الى فاعلها . ثم قال : « ويجوز أن يكون شديد بمعنى مشدد» فتكون اضافة محضة فيتعرف فيكون وصفاً ايضاً . اي اذا كان (شديد) صفة مشبهة فلا سبيل الى ان يكون صفة لاسم الجملة ، بل يكون بدلاً لجواز ان يكون البديل نكرة والبدل منه معرفة . أما اذا كان (شديد) على فعيل بمعنى مفعول بكسر العين المشددة اي بمعنى (مشدد) اسم الفاعل ، امكن ان تكون اضافته الى مفعوله ((العقاب) اضافة محضة فيتعرف ويكون صفة لاسم الجملة ، ما دام يدل على الاستمرار .

وإذا كانت الصفة المشبهة في قوله (زيد حسن الوجه) باضافة الصفة منكرة لاضافتها الى فاعلها ، وكانت الصفة المشبهة في قوله (زيد الحسن الوجه) باضافة الصفة ايضاً معرفة ، فإن تعريفها قد كان باللام دون الاضافة . فالصفة المشبهة لا تتراءف بالاضافة مطلقاً .

٥ - الصفة المشبهة في كلام الفصحاء :

قضى النحاة بأن تعريف الصفة المشبهة المضافة انما يكون باللام دون الاضافة لأن الاضافة لا تفيدها تعريفاً . وذهب بجمع اللغة العربية القاهري في مؤتمره الى جواز تعريف الصفة المشبهة بالاضافة وحدها خلافاً للنحاة ، فain يقع كلام الفصحاء من الرأيين ، وهل جاء في مأثورهم من النثر او الشمر ما يؤيد رأي المجمع القاهري دون النحاة ، فكانت الصفة المشبهة فيه معرفة بالإضافة !

اقول يجمع الباحثون على صحة قوله (مررت برجل حسن الوجه) باضافة الصفة الى معمولها وهو الفاعل ، وقد جاء هذا في أمثلة النحاة . ويستدل بذلك أن (حسن الوجه) منكرة لأن جاء صفة لنكرة . فاذا صح هذا فكيف يصح قوله (مررت بزيد حسن الوجه) ؟ فلو أفاد (حسن الوجه) تعريضاً لما جاز قوله الاول (مررت برجل حسن الوجه) . فالوصف بالمعرف لا يوصف به المنكر . قال الباجي في شرح كافية ابن الحاجب : « ويستثنى تركيب : مررت بزيد حسن الوجه ، فلو أفادت

تعريفاً - أي الصفة - لم يجز مررت برجل حسن الوجه / ١٢٣ ، . ومثل ذلك ما جاء في (الطائف اللفظ / ٣١) لأبي منصور الشافعى : « رأى الاسكتدر ، رحمة الله ، رجلاً حسن الاسم قبيح السيرة فقال له : أما أن تغير اسمك أو سيرتك » ، وقد جاء (حسن الاسم) و (قبيح السيرة) صفتين لنكره فدل هذا على أنها مذكرتان ، وأن اضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها اضافة لفظية لا تفيد تعريفاً . ونحو ذلك أيضاً ما جاء في الكتاب نفسه : « اشتري بعضهم جارية بديعة الحسن / ٩٨ ، كما جاء : « رأى بعض الفقراء امراة حسنة الوجه / ٩٨ » .

وفي نهج البلاغة وصية علي لابنه الحسن عليهما السلام : من الوالد الفان ٠٠٠ الى المؤلود المؤلم ما لا يدرك ، السالك سبيل من قد هلك غرض الأستقام ، ورهينة الأيام ورمية المصائب ٠٠٠ وأمير الموت وحليف الهموم ٠٠٠٤٢/٣ ، فهو شموجه لاعتداد (غرض أو رهينة أو رمية أو أسير أو حليف) صفة مشبهة مضافة إلى فاعلها ؟

أقول : أما (الفرض) فهو اسم لا صفة ومنناه الهدف ويجمع على أغراض ، وأما (الرهينة) هنا فهي صفة غالباً خلبة الأسماء . وتسمى الصفة غالباً اذا استفنت عن موصوفها وأنزلت منزلة الأسماء . وهي في الأصل صفة مشبقة من فعل متعدد بمعنى اسم المفعول . قال الجوهري في الصحاح : « الرهينة واحدة رلهائن » . وكذلك (الرميّة) واحدة (الرميا) ، وهي بمعنى المصيّد يرمي . قال الرازي في مختار الصحاح : « الرميّة الصيد يرمي ، يقال بئس الرميّة الأربب ، أي بئس الشيء مما يرمي الأربب » . والرهينة والرميّة تلزمهما الناء ، والناء فيها ليست ناء التائث في الصفات ، وإنما هي ناء التقل من الوصفية إلى الاسمية ، كما جاء في كتاب الفروق لسامuel حق (من ٤٦) .

وما يشيع استعماله من الصفات الغالية (العجبية) تقول هذه احدى العجائب ، و (الغربيّة) تقول هذه من الغرائب ، و (الكبيرة) تقول الشّرّك احدى الكبائر ، و (الصنيعية) تقول الانسان صنيعه الاحسان ، و (المزيمة) تقول زيد ماضي المزيمة . و (الخضراء) وتجمع جميع الأسماء على خضروات . لا جمع الصفات على خضر كحمراء وحمر . وفي الحديث : « ليس في الخضروات صدق » ، وهي البقول . قال الفيومي في مصباحه : « لكنه غالب عليها جانب الاسمية ، أي الخضراء ، فجمعت جميع الاسم كمحارم وصعرووات » .

اما (حليف) فهو فعل بمعنى مفاعل كجليس بمعنى مجالس ، وقد اشتقت من فعل متعدد وهو (حالف) ، فليس هو اذا صفة مشبهة . ففي الصحاح : (الحليف : المحالف) . وما جاء من فعل بمعنى المفاعل كالثنديم بمعنى المذدم والاكييل بمعنى الماكل ، والعليف بمعنى المحالف صفات ثابتة ثبوت الصفة المشبهة ، لكنها لا تعمل بالاتفاق . وهي اذا أضيفت الى ما هو بمعنى مفعولها تعرفت . وأما (اسير) فهو في الأصل فعل بمعنى مفعول ، وقد اشتقت من فعل متعدد ، فليس هو كذلك صفة مشبهة ، وإنما هو صفة ثابتة لا تعمل ، فإذا أضيف الى معرفة تعرفت . وهو كرهين الذي يذكر ويؤثر . قال تعالى : « كل نفس بما كسبت رهينة - الدرر / ٣٨ » ، فجاءت (رهينة) صفة ثابتة لمؤثر . وقال تعالى : « كل امرئ بما كسب رهين - الطور / ٢١ » ، فجاء (رهين) مذكرة صفة ثابتة لذكر . فانت تقول المرء رهين الموت كما تقول هواسير الموت ، والخلاف رهينة الموت كما تقول هي اسيرة الموت .

٦ - ليس في كلام الفصحاء ما عرّفت فيه الصفة المشبهة بالإضافة :

اذا تبعينا ما أضيف من الصفة المشبهة ، وهي لا تضاف الا الى فاعلها ، وما أضيف من اسم الفاعل والمفعول الى مرفوعه ، في كلام الفصحاء، لم نعش على ما جاء من ذلك معرّفًا بالإضافة . ومثال الصفة المشبهة المضافة قوله تعالى : « علّه شديد القوى - النجم / ٥ » ، فهذه صفة مشبهة أضيفت الى فاعلها فكانت اضافتها لفظية لا تفيد تعريفاً ، فلا بد ان يكون موصوفه اذا متكرراً . وهذه ما اشار اليه الامام البيضاوي في تفسيره حين قال : « ملك شديد القوى ، وهو جبريل عليه السلام » .

وجام في الحديث عن أنس بن مالك ، رضي الله عنه ، قال : « كنت أمشي مع النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، وعليه برد نجاني غليظ العاشية » . وفي الحديث ايضاً : « ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت بالقرآن يجهد به » .

وجام في كليلة ودمنة لابن المقفع (باب بَرَزُوَّيْهِ) : « وان كان الملك حازماً عظيم القدرة ربيع الهمة بليغ الفحص ٠٠٠ فانا قد نرى الزمان مدبراً في كل مكان » .

وجام في المقامة العادية عشرة لأبي محمد القاسم الغريري : « ثم حَسَرَ رُدْنَهُ عن ساعد شديد الأسر ، وقد شد عليه جباري المكر لا الكسر ». كما جاء في المقامة الثالثة والعشرين : « وشيخ طويل اللسان قصير الطليسان قد لبئه - أي جذبه - فتى جديد الشباب خلق الجلباء » .

فإذا جاء الموصوف معرّفًا عرّفت الصفة المشبهة باللام . ومن ذلك ما جاء في الحديث : « وأما الرجل الكريه المرأة الذي عند النار يحشها يسمى حولها فانه مالك خازن جهنم » . ونحو ذلك ما جاء في كليلة ودمنة لابن المقفع : (باب بَرَثَةَ بَرَزُوَّيْهِ إِلَى بَلَادِ الْهَنْدِ) : « فاني بحمد الله مستغنٍ عن المال بما رزقني الملك السعيد الجيد العظيم الملك » .

وهكذا اسم الفاعل والمفعول اذا ما أضيفنا الى مرفوعهما ، فمثال اسم الفاعل قوله تعالى : « فهي فاقرات الطرف لم يطمنهنْ إنس قبلهم ولا جان - الرحمن / ٥٦ » . فاقارات اسم فاعل أضيف الى فاعله فكانت اضافتها لفظية لا تفيد التعريف ، وهو يدل على الثبوت دلالة الصفة المشبهة ، فحكمه في هذه الاضافة كحكمها . قال المكري في (اعراب القرآن) : « لم يطمنهنْ » : وصف لاقارات لأن الاضافة غير محسنة ، اي لفظية لا تفيد تعريفها .

وفي رسالة الباحظ (في النساء) قوله : « شيخ متخلع الأسنان مُفْضَنَ الوجه » . فقد جاء (متخلع) اسم فاعل مضافا الى فاعله . وهو مشتق من (متخلع) الفعل اللازم ، وهذا شرطه . كما جاء (مُفْضَنَ) اسم مفعول مضافا الى نائب فاعله؛ وهو مشتق من (عستانه) اذا ثناه وجده ، وهو فعل متعدد ، وهذا شرطه .

وما جاء في اضافة اسم الفاعل الى فاعله قول الغريري في مقامته الرابعة : « وصادفنا أرضًا مُخْلَفَةَ الرُّبَا مُعْتَلَةَ الصُّبَّا فَعَيْرَنَا هَامَّا تَحْتَاهَا » . والمقصود بالصُّبَّا الريح الشرقية ، وبالمتعللة الليئة ، وبالسخاخ المبرك .

وهكذا تقول في اسم الفاعل المضاف إلى فاعله المشتق من فعل لازم : رأيت رجلاً معتقداً
القامة قاتم الجندع ، وأعرف جاراً لي مستقيماً الخطة طاهراً القلب نافذ الرأي . كما تقول في
اسم المقول المضاف إلى مرفوعه ، المضوغ من فعل متعد : صحبت أمّاً مرضيَّةً السيرة محمود
الخلال ، ومرفوعه هنا في الأصل ثابث فاعل ، وهو هنا ثابث فاعل مجازاً ، لأن المرضيَّة والمحود
لا يدلان على العدوث ، كما هو شأن اسم المقول في الأصل ، وإنما يدلان على الثبوت . ويسمى
اسم المقول هنا ، الدال على الثبوت ، اسم مقول مجازاً ، إذ ليس هو على الأصل الذي يصاغ
للعدوث ..

وهكذا فإن اسم الفاعل والمقول يجريان مجرّى الصفة المشبهة إذا أريد بهما الثبوت دون
العدوث فيكتفي كل بمرفوعه . ويكون هنا إذا كان اسم الفاعل من فعل لازم واسم المقول من فعل
متعد إلى واحد ف تكون اضافتها إلى مرفوعها لفظية لا تفيد التعريف . فانت إذا أردت التكير
اكتفيت بالإضافة فقالت : عرفت جاراً لي صادق الوعد محمود السيرة كريم الشيم ، فإذا أردت
التعريف قلت : جاء الرجل الصادق الوعد محمود السيرة الكريم الشيم ، بادخل لام التعريف .

وإذا كان ابن السراج أبو يكر قد عد ما بين اسم الفاعل والصفة المشبهة من فروق ، في كتاب
(الأصول) فجعل منها أن اسم الفاعل لا يضاف إلى فاعله كما تضاف الصفة المشبهة ، فقد قد
 بذلك (اسم الفاعل) المضوغ من فعل متعد ، إذ قال : لا يجوز أن تقول عجبت من ضارب زيد ، وزيد
 فاعل ، ويجوز في الصفة المشبهة اضافتها إلى الفاعل لأنها اضافة غير حقيقة ، أما اسم
 الفاعل المضوغ من لازم فهو كالصفة المشبهة سواه بسواء . وقد تنا نحو ابن السراج ابن مالك في
 شرح الكافية فقال : « انفرد اسم المقول عن اسم الفاعل بجواز اضافته إلى ما هو مرفوع معنى نحو:
 الورع محمود المقاصد - الأشياء والنظائر للسيوطى - ٤٦٢ / ٢ » .

★ ★ ★

ولكن ما الرأي في قول الشاعر :

كم ذا يكابد عاشق ويلاقى في حب مصر كثيرة العشاق

وقد ذكر البيت في مجلة الرسالة القاهرة (١٠ / ٤٧٧ - ٨٣٠) ، فقال الأستاذ علي محمد حسن:
كثيرة تعرّب حالاً من مصر ، والعامل : حب ، وأردف : « وتعرب صفة على أن اضافة الصفة
المتشبهة مضمة ، أي اضافة معرفة ، وعلى ذلك فكثيرة معرفة » . أقول أما اعراب (كثيرة) حالاً من
(مصر) وبالحال تكرة كذلك يعني أن الصفة المشبهة متكرة لا تتعرف بالإضافة ، وعلى ذلك جمهور
النحو . وأما اعراب (كثيرة) صفة لمصر ومصر معرفة فإنه يعني أن الصفة المشبهة تتعرف
بالإضافة ، وهو قول لا مند له فيما أثر من كلام الفصحاء ثثراً أو شمراً ، وما صح من مذاهب
النحو . وإذا كان البديل التحوي قد آلى ببعض الأئمة من الكوفية إلى القول بجواز تعريف الصفة
المتشبهة بالإضافة ، فقد ظلل المقول مفتقرًا إلى ما يصححه من مساع أو قياس . وقد عقب السيوطى
في كتابه (مع المواهم - ٤٨ / ٢) على ذلك فأصر على تكير الصفة المشبهة المضافة متحججًا بجواز
اقترانها بالتعريف ، فلو صح أنها معرفة لامتنع اقترانها بال هذه ، كما يمتنع ذلك في كل مضاف
معرف ، منعاً لاجتماع تعريفين .

٤ - الرأي في بعض ما شاع استعماله من أسماء الفاعل :

١ - انوافر لا الوفير :

يقول الكتاب (مال وفير) فهل هذا صحيح ؟ أقول الصواب أن تقول (مال وفر) بفتح السكون او (مال موفر) على زنة اسم المفعول او (مالوافر) على زنة اسم الفاعل .

اما (الوفر) بفتح فسكون فهو من فر بضم انفاء يوفر وفارزة فهو وفر بسكون الفاء ، كفخم يضم خمامته فهو ضخم بسكون الخام ، وفقط يضم خمامته فهو ضخم بسكون الخام ، وهو مسامع لا قياس فيه .

واما (الموفور) فهو من وفتر المال وفرا ، بالخفيف ، فالمال موفر .

واما (الوافر) فهو وفر بفتح الفاء كومد ، تقول وفريفر بالكسر وفورة ووفرة فهو وافر .

اما (الوفير) على فعل فلم يرد في اللغة ، وانما وردت «الصفة على (وـفر)» بفتح فسكون من (وـفر) بالضم ، كما جاتت الصفة على (صبـب) بسكون العين من (صبـب) بالضم ، وعلى (سهـل) بسكون انهاء من (سهـل) بضم الهاء . وهكذا جاء (فـخم) بسكون الغاء من (فـخم) بضمها . والغريب ان يعمد الشيخ مصطفى اللذيبني رحمة الله الى اجازة (الوـفير والـفـخم) فيقول في كتابه (نظارات في اللغة والادب) : « فنـدم ذـكر وـفير وـفـخم في كـتب الـلغـة وـعدـم روـايـتها في شـعـر أو شـنـقـديـن لا يـدلـ علىـ أـنـ ذـلـكـ غـيرـ جـائزـ وـلاـ مـقـبـولـ ، فـهـماـ مـقـبـولـانـ فيـ الدـوـقـ » . أـقولـ لـاـ مـعـلـ لـتـحـكـيمـ الدـوـقـ فيـ مـسـاعـ اوـ قـيـاسـ ، وـلـاـ وـجـبـ لـاقـرـارـ (وـفـيرـ وـفـخمـ) ، وـالـأـفـلـفـ تـقـولـ صـعـبـ وـسـهـلـ وـفـخمـ وـعـدـبـ بـدـلـاـ منـ قـوـلـكـ صـعـبـ وـسـهـلـ وـفـخمـ وـعـدـبـ ، بـسـكـونـ الـعـيـنـ وـالـهـاءـ وـالـخـامـ وـالـذـالـ فـيهـ ؟ »

٢ - الوارث لا الوريث :

اعتاد الكتاب ان يقولوا (خالد هو الوريث الوحيد) ، يحسبون ان (الوريث) هو الصفة المشبهة من (ورث) بالكسر كعلم ، والصواب هو (الوارث) وجمعه (وراثة) بفتحتين ككاتب وكتبة ، و (وراثة) بتشديد الراء ككاتب وكتاب . ففي مختار الصحاح : « ورث آباء وورث الشيء من أبيه يرثه بكسر الماء فيما ورثا ووراثة ووراثة بكسر الواو في الثلاثة وإرثا بكسر المهمزة » . وفي المصباح : « والـفـاعـلـ وـالـهـاءـ وـالـجـمـعـ وـرـاثـ وـوـرـاثـةـ مـثـلـ كـافـرـ وـكـفـرـةـ » .

والقياس في صيغة (فاعل) ان تأتي باطراد من (فـعلـ) بفتح العين لازما كجلس فهو جلس ، ومتديلا كنصر فهو ناصر . كمساتي من (فـعلـ) بكسر العين اذا كان متديلا ، تقول ورث المال يرثه بالكسر فيما فهو وارث والتعل متدد ، كما تقول عليه فهو عالم وبقله فهو قابل وكهر فهو كاره وحذره فهو حاذر وسمعه فهو سامع ، والمضارع فيها مفتوح العين .

وفي التنزيل : « وعلى الوارث مثل ذلك - [البيقرة/ ٢٢٣] » . وفي الحديث : « اللهم متعنى بسمعي وبصرني وأجملهما الوارث مني ، اي ابغهماصحبيين سالين الى ان اموت » . كما جاء في النهاية لابن الاثير .

والوارث قد يأتي صفة عامة فيدل على العدوى ويعتمد على موصوف مذكور أو مقدر ، لكنه يأتي ، في الحالب ، منفرداً بخصوص ، فيستعمل منقطعاً عن موصوفه مستفيضاً عنه ، فيدل حينئذ على الثبوت . فانت اذا قلت (خالد وارث أبي) فقد عنيت أنه مستحق لهذه الوراثة . وانت تقول رأيت وارث فلان أو ورثته ، كما تقول رأيت زوجته وزوجاته ، فلا يلزمك ذكر موصوفه لفظاً أو تقديرأ . ولما جاء من الصفات على هذا الوجه حكم ، في الجمع ، غير حكم الصفات العامة الدالة على العدوى .

والقاعدة اذا جاء الوصف عاماً على زنة (فاعل) ودل على العدوى ، كما هو الأصل واعتمد على موصوف مذكور أو مقدر ، كان لا مناص من جمجمه جمع تصحيح ، وهو القياس فيه . فإذا انفرد بخصوص فأشهر استعماله منقطعاً عن موصوفه مستفيضاً عنه ، صبح فيه التكسير ، الى جانب التصحيح . فقد جاء (الوارث) دالاً على الثبوت وجمع جمع تصحيح ، كما في قوله تعالى : « وَنَعْنَ الْوَارِثُونَ - العِجْر / ٢٣ » . قال الأصحابي صاحب المفردات : « وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى نَفْسَهُ بِأَنَّهُ الْوَارِثُ ، مِنْ حِيثِ أَنَّ الْأَشْيَاءَ كُلُّهَا مَسَائِرُهُ إِلَيْهِ تَعَالَى . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « وَهُنَّ مَيْرَاتُ السَّمَاوَاتِ - آلُ عُمَرَانَ / ١٨٠ » . وقال : وَنَعْنَ الْوَارِثُونَ وَلَا نَسْنَ أَنَّ (الوارث) أَسْمَ مِنْ أَمْهَأَهُ الْمُسْتَنِي . »

وكما يجمع (الوارث) جمع تصحيح كذلك يجمع جمع تكسير . ففي الحديث « العلماء ورثة الأنبياء » . فانت تقول هؤلاء ورثة الأنبياء كما تقول هؤلاء حملة الأقلام وقادة الفكر ، وكلها صفات على البثوث .

وقد جاء في الأشياء والنظائر للإمام السيوطى (١٢٧/٢) : « قال في البسيط : كل صفة كثر ذكر موصوفها منها صفت تكسيرها لقوة شبهها بالقول . وكل صفة كثر استعمالها من غير موصوفها قوي تكسيرها ، لاتتحققها بالأسماء كعبيد وشيخ وكهل وضعيف » ، وجاء في الكليات لأبي البقاء الحسيني الكفوئ مثل ذلك (ص ٢٢٠) .

ولنات بمثال يكشف عما قصدنا اليه . فإذا نحن تدبّرنا ما جاء من (كتب) على فاعل أي (كاتب) وجدنا أن الأصل فيه أن يفيد العدوى في جميع جمع الصفات فيقال (كتابون) ، ويكون معناه القائم بالكتابة ، والكتابة في الأصل هي الخط ، فكتاب السطر هو الذي يخطه . فإذا أردنا بـ (كاتب) من ينشئه النشر ويزاوله صح تكسيره وجمعه على (كتاب) ، ويكون (الكاتب) هنا الذي يزاول صناعة الكتابة أي إنشاء النشر . فتقول جلست إلى كاتب من أشهر الكتاب كقولك حاورت عالماً من أظهر العلماء . قال ابن منظور في معجم اللسان : « كِتَابُ الشَّيْءِ يَكْتُبُهُ كِتَابًا وَكِتَابَةً ، وَكَبَهُ : خَطَّهُ » بشتديد الطاء ، هذا هو الأصل . ثم قال : « وَالكتابة لن تكون له صناعة مثل الصياغة والخياطة . ورجل كاتب والجمع كثياب وكثيبة ، وحرفته الكتابة . ابن الاعرابي : الكاتب عندهم العالم » . وجاء في كشف الطرة (ص ١٠٧) : « وفي الدر المصور الصفة لا تقوم مقام الموصوف الا اذا كانت خاصة نحو : مررت بكاتب ، او دل دليلاً على تعيين موصوف » . فانت اذا استعملت (الصفة) استعمال الاسم فتحولت بها عن العدوى قامت مقام الموصوف فكان لها في الجمع شأن الأسماء . قال المرزوقي في شرح ديوان العمامية (٤٦٦/١) : « لأن الصفة لا تقوم مقام الموصوف حتى تدل عليه دلالة قوية . فاما اذا كانت عامة في اجناس ، فلا يجوز ذلك فيه . فإذا قلت مررت بطويل وانت تريده رجلاً ، لم

يعسن ، لأن الطويل يكون في غير الرجال ، كما يكون في الرجال . ولو قلت مرت بكاتب يحسن أذ كانت الكتابة مختصرة ، والمهم في (الكاتب) الذي مرت به أن ينتهي فيكون صاحب صناعة (الكتابة) سواء أكانت هذه الكتابة انشاء للشراهم الخط .

وهكذا الحكم في الوارث حين استعملوه استعمال الأسماء فقام مقام الموصوف ، فانت تقول جاء ورثة فلان كما تقول حاورت كتبة المجلة ، فتستفي بالصيغة عن الموصوف .

٣ - مشهد شائق لا شيق :

إذا شائق مشهد أي هاجك فاستهواك حسنه فالمشهد شائق وأنت المشوق ، بصيغة اسم المفعول ، أو الشيق ، بتشديد الياء المكسورة ، أو المشتاق . ففي القاموس المعجم « والشيق : المشتاق » . وفي المصباح : « واشتقت اليه فانماشتق وشيق » بتشديد الياء المكسورة .

ولكن كيف آل معنى (الشيق) بتشديد الياء المكسورة إلى معنى (المشوق) أي المشتاق . أقول (الشيق) بتشديد الياء المكسورة ، أصله قيل الاعلال (شيوخ) بفتح الشين وكسر الواو ، بينماها ياء ساكنة ، على (فيفل) بفتح الفاء وكسر العين، بينماها ياء ساكنة . كما كان أصل (الجيد) بالياء المشددة هو (جيود) بفتح الجيم وكسر الواو ، بينماها واو ساكنة . وأظهر آراء الآئمة أن صيغة (فيفل) هذه بمعنى فعله إذا صيغ من فعل متعدد ، وشائق فعل متعدد ، فليس غريباً على هذا أن يكون (الشيق) هذا بمعنى فعله إذا صيغ من فعل متعدد ، وشائق فعل متعدد ، فليس غريباً على هذا أن يكون (الشيق) بتشديد الياء المكسورة بمعنى المشوق ، وهو اسم المفعول من (شاقه) . وانتظر إلى قوله المتبع :

ما لاح برق او ترنت طائر الا انشيت ولی فؤاد شیق

قال البرقوقي شارح الديوان : « انشيت : رجمت . ولی فؤاد جملة حالية ، والشيق: المشتاق» وأردف : « ومعلوم أن لمان البرق يهيج الماشق ويحرك شوقة إلى أحبتـه لأنه يتذكر به ارتعالهم للنجمة وفراقهم ... وكذلك ترنت الطائر ، فتأمل . »

٤ - هذا عمل شائن لا مشين :

أقول إذا شائن عمل منكر ، أي عايك ، فالعمل شائن لك . والكتاب يقولون (عمل مشين) بضم الميم ، وسوابه (عمل شائن) . تقول هذه أعمال شائنة مخزية ، كما تقول هنا العمل يشين صاحبه ويسعى من قدره ويتحقق في سمعته ، والياعي أول هذه الأفعال مفتوحة لأنها ثلاثة ، وأسم الفاعل منها شائن لصاحبه واضح من قدره قادر في سمعته . وقد جاء في أساس البلاغة للزمخشري : « هو فعل شائن ، وهذه شائنة من الشوائب . ووجهك شين ووجهي ذين » بفتح الشين والزاي فيها . كما جاء في المصباح المنير : « شانه شيئاً من باب باع ، والشين خلاف الزين » بفتح الأول وفيها . وأردف : « وفي حديث : ما شانه الله بشيب . والمفهوم مشين ... » بفتح الميم كسبع ومدين من باعه ودانه .

ونحو من ذلك قول الكتاب (هذا عمل مُحط بالشرف) ، وسوابه : (حاط نشرف ، أو حاط) في شانه أو حاط من مكانته)، لأنه من (حط) الثاني .

٥ - لافت للنظر لا ملتفت :

اذا استوقفك مشهد فللت نظرك اليه وجعلك تتأمله ، فالمشهد لافت للنظر ، لا (ملفت) بضم الميم كما يقوله الكتاب . وهم يلمون حق العلم انه من (الافت) الثالثي المجرد ، لا من (الافت) المزید . فاسم الفاعل منه (لافت) لا (ملفت) .

وانت كما تقول (الفتش اليه) اذا صرفته اليه ، فانت تقول (الفتشه' عنه) اذا صرفته عنه ايضًا . ففي معنی المصالح « لفت وجهه عنه صرفه ، ولقتنه عن رأيه صرفه » . وفي التنزيل : « قالوا أجيئتنا لتلقينا عما وجدنا عليه أيامنا - يونس/٧٨ » ، أي لصرفنا .

وتقول الى ذلك (الفتشه عليه) اذا عطفته . ففي اساس البلاغة : « لفت» ردائي على عنقه عطفته ، «

٦ - هو عادم النفع وعدمه ومدلومه :

ذهب الباحثون المحدثون ان (العديم) هو الفتير وحسب ، ومنهم الأستاذ جار الله في كتابه (الكتابة الصحيحة) ، وخلصوا الى ان الصواب ان تقول : انه عادم الذوق لا عديمه . فما الرأي في المسألة ؟

اقول اذا عُولنا على ظاهر ما جاء في الماجم خلصنا الى ما خلص اليه الأستاذ جار الله . قال الجوهري في المصالح : « عدتم الشيء بالكسر اعدمه بالفتح عدما بالتعريف ، على غير قياس ، اي فقدته . والعدم بفتح الدين والدال : الفقر . وكذلك العدم اذا ضمت اوله وسكتت ثانية . وأعدمه الله . وأعدم الرجل : افتقرب فهو عدم بضم الميم وكسر الدال وعديم » . ونحو ذلك في سائر الماجم . وقد تبين لي بمراجعة (عدم) في الماجم وكتب اللغة وتدبر ما جاء فيها ما يلي :

آ - تقول اذا عدتم من الثالثي المجرد : عدتم بالكسر اعدمه بالفتح عدما بضم المين وسكون الدال ، بمعنى فقدته . فال فعل متعد الى واحد ، واسم الفاعل المقيس منه (عدم) بمعنى فاقد ، واسم المعمول المقيس (معدوم) بمعنى مقود ، وتقول في الغير : لا أعدم كذا بمعنى أنك واجهه ، وفي الانشاء : لا عدتم ودك وبربك ، أي لا أفقدني الله ايامنا . وفي المعنی الأول يقول الشافعی :

انا إن عشت لست اعدم قوتا واذا مت لست اعدم قبرنا

ب - وتقول من المزید (عدم الرجل) بمعنى افتقر فهو (معدوم) بضم اوله وكسر ما قبل آخره، بمعنى فتير ، فليكون الفعل لازما . ومثل (معدوم) اسم الفاعل من (عدم) اللازم منوز ومقلس ومطلق ومدقع ، بضم اولها وكسر ما قبل آخرها . جاء ذلك في معظم الماجم ، كما جاء في التلخيص لابي هلال السكري ، وفي التواادر لابي ميسحل الأعرابي . قال المتبنی يسخر عمر بن سليمان الشرابي :

الذ من الصهباء يلام ذكره واحسن من يسر تلقاءه معدم

يقول ان ذكر معدومه افضل في النفس من وقع اليه اي الشئ في نفس الفتير المدبر .

ج - وتقول من المزيد أيضاً (أعدمته) كمدته يعني فقدته ، فتعمدي الى مفعول واحد ، كما جاء في الأفعال لابن القوطة . والاشكال في اسم المفعول منه ، فالقياس أن يكون (المدم) بضم أوله وفتح ما قبل آخره ، ولم تذكره المعاجم المتقدمة ، وذكره معجم المتن للشيخ أحمد رضا وجمله يعني الفقير . وإنك الأستاذ محمد المدناوي في معجمه (الأغلاط اللغوية المعاصرة) ما جاء به صاحب المتن معجباً بالمعاجم المعتمدة التي سكتت عن ذكر ذلك ونصئت على (المدم) بضم الأول وكسر ما قبل الآخر بمعنى الفقير من (أعدم) اللازم بمعنى اتفق ، كما ذكرناه .

والذي أراه أنك تقول : (المدم) بفتح الدال بمعنى [الفقير] ، كما تقول : (المدم) بكسر الدال . ذلك أن سكت المعاجم عن القياس لا يعني اغفال العمل به . ولا شك أن صاحب المتن حين أثبت في معجمه (المتن) : المدم بضم أوله وفتح ما قبل آخره بمعنى الفقير ، أثبته وهو يعلم حق العلم أن المعاجم المتقدمة قد أغفلته ، فذكر مو القياس لثلا يتبع عن ذهن القارئ جواز السيل به ، ما دامت المعاجم قد خلت من النص على إنكاره . وقد تصفت كثيراً من أقوال الفصحاء أبى عن (المدم) بفتح الدال ، فلظرف بشاهد في شعر الإمام الشافعي ، اذ قال :

وأظهر أسباب الفنى بين رفقي ليغفام حالي واني لمعدم

فقد أتي في البيت (معدم) بفتح الدال ، في سائر النسخ المطبوعة ، ويؤكد صحة ذلك أن قافية البيت السابق (يتاليم) والثالي (اعلم) !

وهكذا صح قولك (المدم) بكسر الدال و (المدم) بفتحها ، الأول من (أعدم فلان) اللازم ، والثاني من (أعدم فلان) بالبناء للمجهول ، من (أعدمه المال) اذا أفسدته اياه فجمله (معدماً) بفتح الدال .

د - وتقول من المزيد أيضاً: أعدمه الشيء أفسدته اياه . وتقول من ذلك : (لا أعدمني الله فضلك) كما في المسباح ، فتعمدى الى مفعولين ومن ذلك قول أبي تمام :

لما عذمت نواه اعدمته شكري قرحتنا معدمين جميعا

ـ فباء (عدمت) مبنياً للمجهول ، و (معدمين) مبنياً للمفعول . ومن ثم تقول : أعدم فلان ماله ، بالبناء للمجهول ، فاصبح معدماً بفتح الدال ، تختلف فيه المفعول . وهكذا تقول أعدم فلان بالبناء للفاعل ، مفتوح الأول ، وأعدم فلان بالبناء للمجهول مضبوط الأول بمعنى : ذهب ماله . ونحو ذلك (الفتح) ، فقد جاء في الأفعال لابن القوطة : « الفتح الرجل ، بالبناء للمجهول ، والنفع أيضاً بالبناء للفاعل : ذهب ماله - ص ١٦٨ . وهكذا (ادنت) . قال ابن القوطة : « وادنت بضم الهمزة مبنياً للمجهول ، وادنت بفتحها مبنياً للفاعل أيضاً: أفسدنا المرض أو الهوى » . وفي مختصر تهذيب الأنطاظ لابن السكينة : « وتدنت وتدنت / ٦٩ » بكسر النون وفتحها مع ضم الميم فيها .

ـ وجاء من المزيد أيضاً قول المسباح : « أعدمه فعدم وأفسدته ففُقد » ببناء عَدْم وقد للمجهول . ويعنى ذلك أنك تقول : أعدمت الرجل فعدم الرجل بالبناء للمفعول ، فيكون الفاعل من (أعدم) المزيد ، والمفعول من (عدم) المجرد . قال صاحب المسباح : « ببناء الرباعي للفاعل

والثلاثي للمفعول » . تقول أعدمه فعدم بالبناء للمجهول فهو معذوب بمعنى فقير ، فيكون (أعدمه) كافرته فافتقر . وقد جاء كادمه فهو معذوب : ازكمه فهو م Zukom وأجبه فهو محبوب وأحشه فهو محموم ، وتقول من ذلك ز'كم فلان وحب' وحُمّ بالبناء للمجهول ، كما تقول عدم بالبناء للمجهول وهكذا تقول أفقده فقد بالبناء للمجهول أيضاً فهو مفقود .

و جاء على (فيفيل) بمعنى (مفصول) : (عديم) ، فهو كالمعذوب بمعنى الفقير ، كما في الماجم ، وقد قصره الباحثون باخذهن بظاهر النص على هذا المعنى . والسؤال أليس للمعذوب والمديم معنى آخر غير الفقر ؟

أقول اذا تدبرنا المادة الفينا أنها تستعمل في المعينين : العام وهو فقد والخاص وهو الفقر ؛ تدرجنا من أولهما الى ثانهما . فقد جام (المعدوم) بمعنى المفقود من (عدمته) الجرد ، تقول عدمت الشيء فهو معذوب كما تقول فقدته فهو مفقود . ويأتي (عديم) كذلك بهذا المعنى ، خلافاً لما انتهى اليه المحدثون حين قسروا معنى (المديم) على الفقير . وشاهد استعمال (المعدوم) بمعنى المفقود قوله أبي حيان التوحيدي في كتابه (البصائر والذخائر) : « وانك ترى زمانك معذوب الفضل قليل الناصر » . وشاهد استعمال (المديم) بهذه المعنى قوله الراغب الأصفهاني في مفراداته (في غرب) : « وقيل لكل متباعد غريب ، وكل شيء فيما بين جنسه عديم النظير، غريب » ، فجاء (عديم) بمعنى مفقود .

وهكذا (عدم) من عدمه اذا فدنه . فعادم الشيء فادمه ، وعليه قول أبي حيان التوسي في البصائر والذخائر : « قال فيلسوف : عادم بصر البن يكون قليل الحياة ، وكذلك عادم عين العقل يكون كثير الشدة » . واللقة بكسر الفات وفتح الحاء : الواقحة . فانت تقول اذا : عادم النفع كما تقول فاقد الوعي ، وعديم النفع . كما تقول معذوب الفضل ، كل ذلك صحيح .

و - وجاء من المزيد قولهم (أعدمني الشيء : لم أجده) كاعوزني ، كما في القاموس المعيب . وفي أساس البلاغة : « وأعوزني هذا الامر وأعجزني اذا اشتدع عليك وعسر ، وهذا شيء معوز ، بضم أوله وكسر ما قبل آخره ، هزير لا يوجد » .

ف - ولكن ما القول في (انعدم) ، ولم تأت به الماجم المعتمدة كالافعال لابن القوطيه والصالح والمختار واللسان والمباح ، والمماجم الحديثة كاقرب الموارد والمنجد والمعنى والموسيط ، بل انكرته ولحقت قائله كتب اللنة والماجم على السواء ، كالمفصل للزمخشري والقاموس والتاج .. واعتذر ! الزمخشري بأن (انفل) ائما ي يأتي من فعل ذي ملاج وتأشير ، وذكر ذلك الاستاذ محمد المدناني في معجمه (الأغلاظ اللغوية المعاصرة) ، فانكر (انعدم) .

ويبحث هذا من المحدثين الشيخ ظاهر خير الله ، رحمة الله ، في كتابه (المنهج السوي في التحرير اللغوي) ، فانكر قولهم (انعدم) وقال : « وانعدم لعن .. وغاية ما هناك أنهم قالوا ان انفل مطاوعة فمَلَ ذي العلاج اي التأثير المحسوس كقسمته فانقسم من ١٨ » . واشتteroوا في (انفل) كذلك ان يأتي مطاوعة لفعل دون افضل ، فنحو اقول القائل (انضاف) لأنه من (اضاف) لا من (ضاف) . ذكر ذلك ابو محمد القاسم العريبي في كتابه (درة الفواد في اوهام الغواص) .

وعندي أن نتجيز من (انفل) ما جاء استعماله فجري في كلام الفصحاء ، لا لأن الخطأ لا يجري عليهم ، بل لأنهم كانوا من أئمة اللغة فمارسو الكتابة فيها ، خلافاً للكثير من كتابينا المحدثين ، ومن ثم أحاطوا بما انتهى إليه علماء النحو والصرف من قواعد وأصول . فإذا استبعذوا ما كان ظاهر كلام العلماء على خلافه فقد التمسوا بذلك وجهها أو حكمه عن العرب . فقد جاء (انعدم) مثلاً في كلام ابن جني ، اذ قال في (الخصائص) : « فلما انعدم من آن المصدر الذي هو أصل الفعل علم أنه مقلوب في آنٍ يأنى بآنٍ ٦٨٠ / ١ » جاء ذلك في نسخة الكتاب المطبوعة بمصر عام (١٢٣١ مـ ، و ١٩١٣ مـ) ، أما في نسخته المطبوعة بتدقيق الأستاذ محمد علي النبار فقد جاء « فلما انعدم من آن المصدر ٢٠٠ - ٢٠٢ » فايدل من (انعدم) عدم أخذنا بأقوال الآئمة النجاة .

وقد يعث هذا مجمع اللغة العربية بالقاهرة في مؤتمره خلال دورته السابعة والثلاثين عام (١٩٧١ مـ) فاقر جواز استعمال (انعدم) ولو لم يكن ثمة نص صريح على جوازه ، ذلك لم يربى عليه في الاستعمال منذ قرون ، وال الحاجة إليه في التعبير في غير مجال من المجالات المصرية ، واقتصر ذلك باعتراض بعض الأعضاء .

وأما (انضاف) فقد أسامي استعماله الإمام المحقق ابن بري وذكر كثيراً من أشباهه مما جاء مطابعاً لأنفل دون فعل . حكى ذلك الإمام أحمد شهاب الدين الغناجي في (شرح درة الفوادص) . كما أسامي ذلك ابن عصفور الاندلسي ، اذ حكى عنه أنه صحيحة قياسية (انفل) من أفعال الرباعي ، وقد بسط القول في ذلك شهاب الدين محمود الألوسي في كتابه (كشف الطرفة عن الغرفة) .

وجاء (انضاف) في كلام الإمام عبد الرحمن بن عيسى الميداني . اذ قال في مقدمة كتابه (الألقاظ الكتائية) : « فإذا كانت الألقاظ مشاكلاً للمعاني في حسنها ، والمعاني موافقة للألقاظ في جمالها ، وإنضاف إلى ذلك قوة من المسواب وصفاء من الطبيع ومادة من الأدب . . . كان الكمال وباء التوفيق . . . فاورد في كلامه (انضاف) . والميداني من أئمة القرن الرابع الهجري . وهكذا جاء في كلام أبي الحسن الجرجاني صاحب الوساطة (بين المتباين وخصوصه) اذ قال : « فإذا اجتمعت تلك المادة والطبيعة وإنضاف إليها التعميل والصنفه خرج كما تراه - أي الشمر - فخماً جزلاً قويًا متيناً - من ٢١ » والجرجاني هذا من أئمة القرن الرابع الهجري أيضاً .

٧ - الأعزب والعزباء ، والعزب والعزبة ، والعازب والعاذبة :

إنكر بعض النقاد قولهم (رجل أعزب) اذا لم يكن له زوجة و (امرأة عزباء) اذا لم يكن لها زوج ، وجعلوا المسواب (رجل عزب وامرأة عزبة) بفتح العين والزاي .

وانما عدنا إلى الماجم الفينا من الأئمة من ينكر (أعزب) صراحة كما فعل أبو حاتم السجستانى . قال الأزهري في معجمه (التهذيب) : « قال أبو حاتم ولا يقال رجل أعزب » . وهكذا فعل ابن الأثير الشيباني صاحب النهاية ، اذ قال : « رجل عزب . . . ولا يقال فيه أعزب » . وقد اقتصر بعضهم على (عزب) وأفضل (أعزب) ، كما فعل صاحب الصعاح وصاحب المختار والأصفهانى صاحب المفردات فهل عنوا بذلك انكار (أعزب) ، هذاما اختاره صاحب النهاية . على أن أكثر الأئمة قد أجازوا (أعزب) لكنهم أثروا عليه (عزبة) . قال الأزهري في معجمه (التهذيب) : « قال أبو

حاتم : ولا يقال رجل أعزب ، وأجاز غيره رجل أعزب . • وقال صاحب القاموس : « ولا تقل أعزب أو هو قليل » . • وقال صاحب اللسان : « ولا يقال أعزب وأجازه بعضهم » . • وبسط القول في ذلك ابن الحنفيي الحلبـي فقال : « رجل أعزب ، ومن أبـي حاتم لا يقال رجل أعزب . • وقال الأزهري وأجازه غيره » ، وأردف : « ومنه قوله : ما في الجنة أعزب . • قال التنووي : في جميع نسخ بلادنا بالآلف ، وهي لغة المشهور في اللغة : عَزَبْ » ، ثم قال : « وقال صاحب المقرب ، وهو المطرزي المغربي ، رجل عَزَبْ بالمعنىـكـ : لا زوج له ، ويقال : أعزب . • وقد جاء في حديث النوم في المسجد عن نافع ، قال : أخبرني عبد الله أنه كان ينام في مسجد النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وهو شاب أعزب » . • وقال صاحب الساج : « ولكن أبا حاتم أجاز أعزب فاستدل بحديث : ما في الجنة أعزب » . •

وعلى ذلك تقول : (رجل أعزب وامرأة عزباء) . • قال صاحب المصباح : « وقياس قول الأزهري أن يقال امرأة عزباء مثل أحمر وحمراء » .

★ ★ *

وتقول رجل عزب وامرأة عزب وعزبة ، بفتح العين والزاي . • ففي تهذيب الألفاظ لابن اسحاق السكريـتـ : « ورجل عزب وامرأة عزب . • قال الفراءـ : « إذا لم يكن لها زوج . • قال وانشد الجرمـيـ : يا من يدل عزباء على عزب » . • فثبت بذلك أنك تقول رجل عزب وامرأة عزب وعزبة . • ويريد ذلك ما حكاه السيوطيـ في كتابـهـ (الأشبـاهـ والنـظـائـ - ٤/٢٢٧) . • فقد حـكـيـ من الإمام ثعلـبـ أنه روى (امرأة عزبـ) كما حـكـيـ عنـ ابنـ خـالـوـيـهـ أنهـ قالـ : « ويـقـالـ اـمـرـأـةـ عـزـبـ وـعـزـبـةـ » . • غيرـ أنـ ثـلـبـ اـخـتـارـ الفـصـحـيـ » .

والعزبـ كما قالـ ابنـ خـالـوـيـهـ اسمـ وـصـفـةـ بـعـنـزـلـةـ (الـماـزـبـ)ـ،ـ وـهـوـ يـجـعـلـ لـذـلـكـ عـلـىـ (عـزـبـاـبـ)،ـ تـقـولـ :ـ قـوـمـ عـزـبـ بـضـمـ الـمـيـنـ وـتـشـدـيـدـ الـزـايـ،ـ كـمـ يـجـمـعـ (عـازـبـ)ـ .ـ وـقـالـ صـاحـبـ المصـبـاحـ :ـ «ـ وـعـزـبـ الرـجـلـ مـنـ بـابـ قـتـلـ فـهـوـ عـزـبـ بـقـتـعـتـينـ وـامـرـأـةـ عـزـبـ ..ـ وـجـمـعـ الرـجـلـ عـزـبـ،ـ بـاعـتـبـارـ بـنـانـةـ الـأـصـلـيـ،ـ وـهـوـ عـازـبـ،ـ مـثـلـ كـافـرـ وـكـفـارـ» .

★ ★ *

أماـ (الـماـزـبـ)ـ فهوـ اـسـمـ الـفـاعـلـ الـمـقـيـسـ مـنـ (عـزـبـ)ـ .ـ قـالـ ابنـ القـوـطـيـ فيـ كـسـابـهـ (الـأـفـعـالـ)ـ :ـ «ـ وـعـزـبـ الرـجـلـ عـزـبـةـ وـعـزـبـوـيـةـ بـضـمـ الـمـيـنـ فـيـهـاـ ،ـ لـمـ يـكـنـ لـهـ أـهـلـ» .ـ فـاسـمـ الـفـاعـلـ الـمـقـيـسـ مـنـ (عـازـبـ)ـ .ـ وـلـيـسـ فـيـ كـتـبـ الـلـغـةـ مـاـ يـنـفـيـ ذـلـكـ بـلـ فـيـهـاـ مـاـ يـؤـكـدـهـ ،ـ وـقـدـ عـلـلـواـ جـمـعـ (عـزـبـ)ـ بـيـنـعـتـيـنـ عـلـىـ (عـزـبـ)ـ بـضـمـ أـوـلـهـ وـتـشـدـيـدـ ثـانـيـهـ،ـ بـاـنـ الأـصـلـ فـيـهـ (عـازـبـ)ـ .ـ قـالـ ابنـ خـالـوـيـهـ :ـ «ـ وـالـعـزـبـ اـسـمـ وـصـفـةـ بـعـنـزـلـةـ الـماـزـبـ»ـ .ـ وـقـالـ صـاحـبـ اللـسـانـ :ـ «ـ ..ـ فـهـوـ عـازـبـ وـالـجـمـعـ عـزـبـاـبـ»ـ .ـ

وـلـاـ نـنسـ أـنـ (الـفـعـالـ)ـ بـضـمـ أـوـلـهـ وـتـشـدـيـدـ ثـانـيـهـ ،ـ وـهـوـ الـجـمـعـ الـمـطـرـدـ لـفـاعـلـ،ـ كـكـاتـبـ وـكـتـابـ وـعـاـمـلـ وـعـمـالـ وـجـاهـاـلـ وـجـهـاـلـ وـعـالـمـ وـعـلـامـ وـحـارـسـ وـحـارـسـ وـكـاهـنـ وـكـاهـنـ وـحاـكـمـ وـحاـكـمـ ..ـ فـيـ كـتـابـ الـهـمـعـ لـلـسـيـوـطـيـ:ـ «ـ فـعـالـ بـضـمـ الـفـاءـ وـتـشـدـيـدـ الـمـيـنـ يـطـرـدـ جـمـعـ جـمـعـاـ لـوـصـفـ عـلـىـ فـاعـلـ كـسـاتـمـ وـصـوـاـمـ»ـ .ـ وـشـرـطـهـ أـنـ يـكـونـ صـحـيـحـ الـلـامـ»ـ .

وإذا قلت (رجل عازب) فالقياس أن تقول (امرأة عازبة) . والأسأل في جمع (العاذبة) أن يكون (العواذب)، ولكن جاء قولهم (ونساء عزاب)، فساواها في الجمع بين عازب وعاذبة . وقل جمع (فاعلة) على (فصال) بضم الناء وتشديد العين كصادة وصاد بضم أوله وتشديد ثانيه ، كما في (الجمع) ، وهو من صدأ عن الأمر اذا صرف ومنعه ، وكذلك صاد وصاد .

على أن ثمة (عاذبة) يعنى آخر . ذلك أن (عزب) فعل لازم أصل معناه يَمْدُ ، كما جاء في (المقاييس) لابن فارس . وقد جاء في شرح الحاسنة للمرزوقي « ويقال مال عازب وعزب اذا يَمْدُ عن اهله ، وروض عازب : بعید الطلب » . كما جاء في أساس البلاغة : « ولا يكون الكل الماذب الا بفلة حيث لا زرع » وفيه : (رمي عزب : منفرد) . فأصل معنى (المادة) هو البعد والانفراد، وأسسوا على ذلك قولهم (رجل عازب) اذا يَمْدُ من الأهل فانفرد وبقي بلا زواج . على ان في اللغة (عاذبة) . . . وهو فعل متعدد معناه في الأصل (ازال عزوبته) . ويكثر سلب معنى الفعل بزيادة الهمزة في اوله كقولك (أشكى) اذا ازيلت شكواه . ولكن جاء السلب في (عزب) بتعديته ، ففي اللسان : (وزعته تعزبه ، اي المرأة . . . قاتل ياموره) . وإذا قاتل ياموره فقد اذعبت عزوبته ، وكذلك تعزبه تتعزبه ، اي ينكمح اللسان : « ليس لفلان امرأة تعزبه - بالتشديد - اي تذهب عزوبته بالنكاح » . فثبت بهذا أن (العاذبة) كذلك امرأة الرجل لأنها تذهب عزوبته ، وكذلك (المذيبة) بضم الميم وتشديد الزاي ، فتأمل .

٨ - ارض وطينة لا واطنة :

يَمْدُ بعض الكتاب الى وصف الأرض المنخفضة بـ(الواطنة)، وهو خطأ شائع . فالواطنة اسم فاعل من (وطنه) اذا دامه . ففي المصباح : « وطنته برجلٍ أطوه وطاً : علوته » . ومن ثم سمى (الماء) في الطريق واطناً لأنه يطأ الطريق . ويجمع (الواطنة) بمعنى (الماء) على (الواطنة) ، كما يجمع الماء على الماء ، ففي الناج : « وطنه بالكسر يطأه وطاً ، دامه برجله . . . والماء والساطة والساطة ، وسموا بذلك لوطتهم الطريق » . والمطرود الشيء الذي تطأه اي تدوسه .

اما صواب قوله (الأرض الواطنة) فهو (الأرض الوطينة) . فالوطيء من وطء كالكريم من كرم والتربيب من قرب . وأما معنى (الوطيء) في الأصل فهو : السهل اللين . ففي الناج : « وطء الوضع يوطئه ، بضم الطاء ، وطاً ووطامة : اي سهل وطيئاً سهلاً . . . والوطيء من كل شيء ما سهل ولان . وفراش وطيء لا يؤذى جنب النائم » . ولكن هل يعني (وطء) معنى انخفاض ، كما هو الشائع ؟ قال أبو المفضل جمال الدين الانصاري اللوني صاحب لطائف الذخيرة : « هذه ارض مستوية لا رباء فيها ولا وطاء ، اي لا صعود فيها ولا انخفاض » . فالوطاء هو الانخفاض ، ويلزم من هذا أن يكون (وطء) بمعنى انخفاض ، والوطيء بمعنى المنخفض ، لأن الوطاء كالوطامة مصدر (وطء) ، كما جاء في الأفعال لابن القوطة . فقولك ارض وطاء وصف بالمصدر . وجاء في كلام الانصاري : « والوطاء ما انخفض من الأرض » وجاء نحو ذلك في الناج . ولذا قل الأرض الوطينة بمعنى السهلة او المنخفضة ، لا الواطنة .

٩ - دفعه لا دافعه :

أقول : أما النفل فهو (دفعه) بالضم دفامة كظرف ظرافة و (دفعه) بالكسر دفأ بفتح الدال والفاء في المصدر كظرف طر Isa ، ودفامة كسلم سلامه ، كما في الصحاح ومتداره .
وأما الصفة من (دفعه) بالضم فهو (دفعه) على فعيل . ومن (دفعه) بالكسر فهو على (دفعه) على فعل بفتح فكسر ، ودفعان بالد وامرأة دفائي .

وأما الموصوف فقد خص الصحاح الفعل المضوم العين وهو (دفعه) بالشيء فقال دفوه اليوم والبيت والثوب والليلة فهو دفعه وهي دفيئة على فعيل وفيقيلة . كما خص النفل المكسور العين وهو (دفعه) بالرجل فقال دفعه الرجل فهو دفعه كتيم فهو تعب بفتح فكسر ، ودفعان كظمان ، وامرأة دفائي كظماي .

وأخذ المفهومي في المصباح بعكایة الزخيري فجعل (دفعه) بالكسر كتيم للرجل والمكان ، وجعل (دفعه) لما سوى ذلك من يوم وليلة . فقد قال الزخيري في كلامه على (الرجل) : « دفعه من البرد بالكسر دفأ ودفامة وتدفأ وادفأ واستدفأ » وأردف : « ورجل دفآن دفآن دفائي ، فشائع الصحاح . وقل في كلامه على (اليوم والليلة) : « ودفعه يومنا بالضم ودفعه ليتلتنا » ف تكون الصفة منه دفيم ودفيئة على فعيل وفيقيلة ، كما في الصحاح أيضاً . أما (المكان) فقد خصه بـ (دفعه) بالكسر فقال : (مكان دفعه) على فعل كتبه فهو تعب ، فخالف الصحاح .

وأما اللسان فقد انتهي نهجاً آخر ، إذ أجاز (دفعه الرجل يدفع) و (دفعه الرجل يدفع) ومثلهما (تدفأ وادفأ واستدفأ) فكان للرجل من الصفات (دفعه) بفتح فكسر و (دفعان) كظمان و (دفعه) على فعيل ، فقال : « ورجل دفعه ، بفتح فكسر ، ودفعان » وأردف « والدفع كالدفعان » . وجمل (دفعه) بالضم للمكان والزمان ، فكانت الصفة منه (دفعه ودفيئة) على فعيل وفيقيلة . ويستتبع من كل ذلك :

آ - تقول في وصف الرجل (دفعه) بفتح فكسر كتيم و (دفعان) كظمان كما في الصحاح واللسان . وتضيف إلى ذلك (الدفع) على فعيل كما في اللسان . كما تقول في وصف اليوم والبيت والثوب والليلة (دفعه ودفيئة) على فعيل وفيقيلة ، كما في الصحاح . ولكن أن تضيف إلى وصف المكان (الدفع) بفتح فكسر ، كما في أساس الزخيري والمصباح ، وقد خصوها به .

ب - ليس لك أن تقول (الدفع) كما يقول الكتاب ، لأن ما جاء على قائل قياماً لا يكون من (فعيل) بفتح فكسر ما لم يكن متديلاً ، ولا يكون من (فعيل) بالضم أيضاً . ولم يرد بالدفعه ماءع .

ج - جاء من مصادر المادة الدفأ والدفاص والدفأ والدفاعة بفتحتين ، وكذلك (الدفع) ، بفتح فسكون ، ففي اللسان عن الأصمعي : « ثوب ذو دفعه ، بفتح فسكون ، ودفامة » أما الاسم فهو (الدفع) بكسر فسكون ، ففي المصباح : « والدفع وزان حمل خلاف البرد » . وهكذا تقول أحياناً بالدفع بفتح فسكون ، اذا أردت المصدر ، أي الدفاعة ، كما تقول أحياناً بالدفع بكسر فسكون ، اذا أردت الاسم ، أي أحياناً بما يدفعه .

٥ - تقول في تعرية الفعل (أدفاته) بزيادة المهمزة و (دافاته) بتشديد معين الفعل ، كما في الآنس ، وقد جاء فيه : « ومن المجاز ۰۰۰ وأدفأه فلاناً ودافأته : أجزلت عطاءه وأعطيته دفأً كثيراً ۰۰۰ » .

١٠- عاطل ومتغطرل من العمل :

أخذ «الاستاذ عباس أبو السعود» في مجلة الأزهر (في عدد تشرين الثاني من عام ١٩٧٤) ، أخذ على الكتاب قوله (عاطل) للرجل اذا خلا من العمل فقال : « العاطل صفة للمرأة التي خلا جيدها من الحلي » وجعل المساواة أن يقال (متغطرل) بصيغة اسم الفاعل من تعطل ، و (تعطل) بصيغة اسم المفعول من عطل المبني للمجهول . فما الرأي في المسألة ؟

أقول اذا عدنا الى الماجم الفينا (عطلت المرأة) يكسر الطاء من باب طرب ، و (تعطلت) اذا خلا جيدها من القلائد فهي (عاطل) . و (المطل) بفتح العين والطاء هو الغلو من القلادة . على انه جاء في الصحاح ومختاره ان (المطل) يفتحتين ليس مقصوراً على «الغلو من القلادة او الحلي » ، بل يتناول الغلو من سواهما ايضاً . ففي الصحاح ومختاره : « عطل الرجل من المال والأدب » .

اما (تعطل) فقد قصر معناه على الغلو من القلادة اذا بقي بلا عمل . وهكذا فقد استثنى عن الصلة اي (الجار والمجرور) في تعطل وذكرت الصلة في عطل . وعندى الا فرق بينهما ذلك انه يمكن الاستفهام في (عطل) عن الجار والمجرور أيضاً فتقول (عطل الرجل فهو عاطل) اي خلا من العمل ، اذا دلت على ذلك القرينة فتقول (مؤلاء عاطلون) كما تقول (مؤلاء متغطرون) .

وشة (عمل) قتلت ، وأصل استعماله للمرأة ايضاً . ففي المصباح « عطلت المرأة عطلاً من باب قتل اذا لم يكن عليها حلي فهي عاطل » ، واريد : « وعطل الأجير مثل بطل يبطل بالضم وزناً ومعنى » اي ان قوله (عمل الأجير) كقتل يعني انه يبطل اي لم يعمل . ففي الأفعال لain القويمية : « وبطل الأجير بطالة يكسر الباء في المصدر لم يعمل » . ثبت بهذا صحة قوله (عمل الأجير) فهو عاطل ، اذا لم يعمل .

والأخير هو العامل ، ذلك أن الأجير هو من عاقدته على ان يعمل لك بأجر معلوم ، وتقول في هذا المتن (أجرت الأجير) فالأجير مؤاجر بفتح العين ، على ما جاء في الآنس للزمخري ، او هو من عاقدك على ذلك فهو مؤاجر يكسر العين ، على ما جاء في المصباح . او ليس الأجير اذا هو العامل ؟ فانا صحي هذا جاز لك ان تقول (عطل العامل فهو عاطل) كما تقول (عمل الأجير فهو عاطل) . وقد يقولون في (الاجارة) هذه استأجرت جماعة ليصلوا كذا ، كما جاء في الحديث : « قال مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استأجر قوماً يملؤن له عملاً يوماً الى الليل ، على اجر معلوم ۰۰۰ » جاء ذلك في كتاب (التبرید المریع لاحادیث الجامع الصحيح لللامام أبي العباس الشهیر بالحسین بن المبارک - ص ١٣٧ - ح ١) فالأخير اذا هو العامل ، وقد ثبت بذلك صحة قوله (العاطل والتعطل) للعامل ، كما تقوله للأجير ، خلافاً لما ذهب اليه الناقد .

ويبحث ما نعن بصدره الأستاذ محمد العداني، في معجمه (الأخطاء الشائنة) فأنكر قول القائل (فلان عاطل عن العمل) وقصر الصواب على قوله (فلان عاطل من العمل) بعرف الجر من دون عن ، واستشهد ببعض الشعر ومن ذلك قول أبي تمام :

فاسيل حرب للمكان العالى
لا تنكري عطل الكريم من الفنى

فما الرأي فيما ذهب إليه ؟

أقول ان النص على استعمال (عطل) بعرف من حروف الجر لا يمنع من استعماله بعرف آخر اذا اتسع له معناه . وقد عرضنا لذلك في كتابنا (مسالك القول في النقد اللغوى) فقلنا : « ليس شيء أولى بالتدبر وأحق بطول الدرية والدرامية من استعمال حروف الجر . اذ لا يمكن للثبات في صحة اختيار العرف لتصريف الفعل في معنى من معانيه أن تعود إلى الماجم وحدها ، بل لا يجزيك حينما ان تقف ، في كتب النحو ، على ما يطرد فيه استعمال كل حرف ٠٠٠ او تضرب بهم من تصفع كتب الأدب شره وشمره ، ذلك أنه لا بد لأحكام استعمال هذه العروض من أن تطلق من كل ذلك بسبب وتحظى بطائل ٠٠٠ فتتعصل بمعطالمتك هذه ومدارستك ما يصرك بتصريف هذه العروض واجرانها في مبارتها ٠٠٠ من ٩١ »

واعندي أن قوله (عطل عن العمل) و (عاطل عن العمل) صحيح لا غبار عليه . فانتظر الى قول الراغب صاحب المفردات : « العطل فقدان الزينة والشفل » وقد دلّ بقوله هنا على أن (العطل) لا يقتصر على الغلو من (الزيينة) ، ولو كان هنا هو الأصل في استعماله كما ذكرنا قبل . وأارى فالقال : « وعطلته من العلى ومن العمل فتعطل » فدلّ بذلك على صحة ما انتهينا اليه من صحة قول القائل (عطل من العمل فهو عاطل ومتغطى) لثبت (عطل) اللازم و (عطلته) المتبدى فتعطل ، خلافاً لما ذهب إليه الأستاذ عباس أبو السعود . ثم قال : « وعطل الدار عن ساكنها والإبل عن راعيها » بتشديد الطاء ، فاستعمل (عن) للتعبير عن تعطيل الدار من ساكنها أي إخلانها ، خلافاً للأصل ، كما استعمل (عن) في تعطيل الإبل عن راعيها أي قطعها عنه باخلام ذرعها منه . قال صاحب المصباح : « وعطلت الإبل خلت من راعيها ، ويتمدّى بالتضعيف فيقال: عطلت الأجير والإبل تعطيلًا » .

ويتبين عند التحقيق أنك اذا قلت (عطل الرجل من العمل فهو عاطل منه) فقد أخذت بالأصل الذي هو (عطلت المرأة من العلى) وامتددت به . وإذا قلت (عطل الرجل عن العمل فهو عاطل منه) فقد أخذت بما انتهى اليه معناه وعوئلاته عليه . ذلك أن (تعطيل الرجل) حجز له عن العمل الذي به قواه ، وجبس له عن السعي الذي به كيانه . فتعطيل الرجل يعني تحيطه بما قطع عليه ، لا مجرد إخلائه أو محض تعریته من صفة محمودة يعوزها كاذب أو مال أو سوى ذلك .

ولا يعد (عطل) فريداً في تعديته بمن ومهن . فانت تقول بعد عنه ومنه وتبتعد عنه ومنه . كما تقول تحول عنه وهو المشهور ، وتحول من حال إلى حال كما جاء في (الطائف اللطاف/٦٤) للنيسا بوري .

وهكذا قيل (تنقل من موضع كذا) كما هو الشائع ، وقيل (اصبح السلطان متنقلًا عن أهل الفضل الى أهل النقص) كما جاء في كلية ودمنة(باب بروزه) لابن المقفع . ونحو ذلك (انصرف عنه) كما هو الجاري و (انصرف من بلاد الهند) كما في المصدر نفسه .

وتقول (تعرّز منه) كما في الصحاح والقاموس والمصباح ، وتقول (تعرّز عنه) ، كما جاء في الادب الكبير لابن المقفع ، اذ قال : (تعرّزا بذلك عن تقصير فعلٍ ٨٥) . وتقول (خرج منه) و (خرج عنه) . قال ابن المقفع في كتابه المذكور : (وكان خارجاً من سلطان بطنه فلا يشتهي ما لا يجد ، وخارجًا من سلطان لسانه فلا يقول ما لا يعلم ١٣٢) ، كما جاء في سر الفصاحة لابن سنان المتفاخي : (وخرج عن حد الاستعمال) وفي مقدمة الكتاب (وخرج عن مقدور البشر) ، أي تجاوز ، ونحو ذلك ما جاء في المخصوص لابن سعيد (تخلّيته عنه وتخلّيته عنه) .

ولا شك أن لكل حرف من هذين معنى يقتضيه عند التحقيق . فلا بد أن ينضي الفعل مع حرف بعينه إلى معنى لا ينضي إليه مع حرف آخر . وقد بسطنا القول في ذلك بكتابنا (مع النعامة ١١١) .

★ ★ ★

ويتصل بما نعن بصدره ما جاء في معجم الأغлат اللغوية المعاصرة . فقد ذهب الاستاذ محمد المدناني في معجمه هذا الى تعليله قول القائل(عاشه عن الشيء) يجعل صوابه (عاشه الشيء) و (عاشه منه) ، مستشهدًا بما جاء في الحديث عن أبي هريرة : « فلما أحلَّ الله ذلك للMuslimين ، يعني الجريمة ، عرفوا أنه قد عاشهم أفضل مساخفاوا » ، على صحة (عاشه الشيء) ، ومستشهدًا بما جاء في الألفاظ الكتابية للمدناني وفي أساس البلاقة للزمخشري وسواهما ، على صحة (عاشه منه) . لكنه أقر بصحة قول القائل (اعتابه عنه)، كما جاء في المقاومة الدمياطية لأبي القاسم العربي ومحيط المحيط ، الى جانب قول القائل (اعتابه منه) !

والغريب أن يثبت المدناني (اعتابه عنه) ويمنع (عاشه عنه) ، والأصل أن يتفق العرف في (فعله فافتغل) كجmetه الى فلان فاجتمع اليه ، ونسبته الى فلان فانتسب اليه وخصصه بكلدا فاختص به . ونحو ذلك (أفلته فافتغل) كايعدته عنه فابتعد عنه وهكذا ٠٠ و (اعتابه) معناه أخذ الموض ، و (عاشه) أعطاء الموض . فصواب المسألة أنك تقول (عسته من كذا) فاعتراض منه ، كما تقول (عسته من كذا) فاعتراض عنه . وتقول الى ذلك (هذا عوض من ذاك) و (هذا عوض عن ذاك) أيضًا . ودليل ذلك ما جاء في كلام الفصحاء . فإذا عدت الى (خزانة الأدب) للامام عبدالقادر البغدادي (المطبوع بتحقيق محمد عزي الدين مبدالحيد)، وتصفحته ، لا سيما الجزء الثاني منه ، أنت تألف (عاشه) ومشتقاته والاسم منه في الصفحتين (٩٤ و ١١٣ و ١٤٩) خاتمة ، قد عدلت بالغرفين جميما ، كقوله (الموض عنه ومنه ، والموض هنومته) وقد تكرر ذلك .

وإذا تدبرنا الأمر وجدنا أنه كلما عدّي (عاشه) بين كان بمعنى (أبدل) وكان (الموض) بكسر ففتح ، وهو الاسم ، بمعنى (البدل) . والغالب فيما جاء من (عاشه منه) أن يشار فيه إلى أن الموض بمعنى البديل . قال الامام عبدالرحمن بن عيسى المدناني في كتابه (الألفاظ

الكتابية) : « اعتراض هذا الأمر من ذاك اعتياداً وأعاصه فلان وعوّضه عوّضاً ، وخذ هذا عوضاً من ذاك » ، وأردف « والموضع .. والبدل والبدل واحد » .

على أن الموضع يعني آخر ، يفارق به البديل ، فقد ذكر ابن جنبي في الخصائص (١/٢٦٥) : أن جماع ما في الامر أن البديل أشبه بالبدل منه ، من الموضع بالموضع منه . فالبدل يقع في موضع البديل منه ، ولا يلزم من الموضع ذلك . فالمعنى لا يجعل محل الموضع منه أما البديل فيجعل محل البديل منه فلا يجتمعان . وهكذا لا يتشرط في (الموضع) إلا أن ينوب عن (الموضع عنه) ولا يتشرط أن يشابهه أو يعل محله . وبهذا المعنى يمكن أن تقول (هذا عوض عن هذا) أي ينوب منه ويجزي عنه ، أي يقتضي ، ومن ذلك قوله تعالى : « ولا تجزي نفس عن نفس شيئاً - البقرة/٤٧ » ، وبذلك يتجلب معنى (من) . قال أبو البقاء الكوفي في الكليات : « والبدل لا يكون إلا في موضع البديل منه ، والموضع لا يكون في موضع الموضع عنه - ١/٣٩٩ ، فمدحى (عوض) بمن ليشير به إلى المعنى الذي يفارقه به (بدل) أو (بدل) !

وانظر إلى قول الإمام الشافعي :

سافر تجد عوضاً عمن تفارقه وانصب فإن لذيد العيش في التصub

وتأمل قوله (عوضاً عمن تفارقه) ، فلماذا اختار الشافعي ذلك عن أن يقول ، بل على أن يقول : (بدلًا من تفارقه) أو (عوضاً من تفارقه) ؟ أقول قد أثر (عوضاً عمن تفارقه) لأن المسافر إنما يكتفي بل يجزيه أن يجد من يناس به ويطمئن إليه ، ويفتنه أن يظفر بمم يشق به ويسكن إليه ، فيسلو به عن يفارقه فتطلب نفسه عن ذكره . وهو لا يطمع أن يلتقي (البدل) من نزح عنهم و (التشبيه) بمن ألف صحبتهم ، فكان قوله (مواضعاً تفارقه) واقعاً موقعه سائراً إلى مستقره . وقد يدق هذا فيخفي على الناظر حتى يتلطف له فيظهر من أكمامه وينشر عن طيه .

★ ★ *

هذا ما رأيت الكشف عنه ، في موضوع دلالة(اسم الفاعل) والوازنة بينه وبين الصفة المشبهة ، وما يعرض الكتاب فيه من لبس واشكال او يتصل باستعماله من خطأ واشتباه . وارجو أن تكون قد وقفت ، فيما اذليت به من وجوه الرأي ، إلى ما يمكن الوثوق بصحته فلم اخطيء القصد فيما ابتفيت ، ومن الله المون والتسديد .

★ ★ *

الطوفان بَيْنَ الْحَقِيقَةِ وَالْأَسْطُورَةِ

إعداد: محمد فيض الله الحامدي*

مجلس أنس جمع شلة من الأصحاب ، احتد النقاش حول طوفان نوح ، هل كان الطوفان عاماً على كامل الكورة الأرضية ؟ أم حادث في موقع جغرافي محدد كبلاد ما بين النهرين ؟ وهل البشرية العاية هي من سلالة نوح فقط ؟ وهل حمل نوح معه كل الأنواع الحيوانية التي تتنفس الهواء وهي آلاف الأنواع ؟ وإن رست سفينة نوح ؟ على العبودي أم على أدارات ؟ وهل حمل نوح زوجته في السفينة ؟ وأهمت في النقاش بقدر اطلاعى على هذا الموضوع ، وكان رأيي أن الطوفان حدث في زمن ما وفي مكان معين ، وترك أثراً كبيراً في وجدان الناجين، وتناقلت ذاكرة الأجيال هذا الحدث ، بصيغ مختلفة فكانت أسطر الطوفان ، وجاءت الكتب المقدمة تؤكّد حقيقة الطوفان ، ففصلت التوراة قصة الطوفان وأجمل القرآن .

وفي هذا البحث سأتناول الطوفان في الروايات الأسطورية ، ثم رواية التوراة ، وقصة الطوفان في القرآن الكريم . ثم الدلائل التاريخية والجيولوجية على حدوثه ، مع التعليق المناسب في المكان المناسب .

□ أساطير الطوفان :

أساطير الطوفان منتشرة في جميع انحاء العالم، عند الشعوب المتحضره والبدائية ، وقد كشفت العقريات التي تمت في منطقة بلاد ما بين النهرين، عن الواقع ورقم دوّنت عليهما ملامح أدبية تتحدث عن الخلقة وفي سياقها ترد حادثة الطوفان، فهذا الملجمة السومرية والملجمة الأ Zukidية (البابلية) وفي تراث الهند الثقافي ملجمة ورد فيها عن الطوفان ما يشبه الى حد ما ملجمة بلاد الرافدين

والأسطورة اليونانية عن الطوفان مقتبسة من بلاد ما بين النهرين مع تعديل بسيط . وتبعد رواية التوراة والطوفان متشابهة مع رواية الطوفان في الأساطير السومرية والبابلية . أما القرآن الكريم فقد أجمل القصة كما ذكرنا ولم يحدد مكان وزمان الطوفان ولم يعدد من كان مع نوح ، ولكن أكد على حقيقة الطوفان . ونبأ بالأسطورة السومرية .

أولاً - النص السومري عن الطوفان :

« السومريون شعب سكن في بلاد ما بين النهرين في الالف الرابع قبل الميلاد ، ويعتقد العلماء ان هذا الشعب قدم الى هذه البلاد من مرتفعات فارس او المنطقة الواقعة وراء الخليج العربي »^(١) ولدى التنقيب في خرابات مدينة (نفر) السومرية عام ١٩١٤ م عشر المالم آرنو بوبل Arno Boebel على مجموعة الواح تعود للالف الثالث قبل الميلاد ، دون عليها نص عن الطوفان يتشابه مع رواية التوراة عن الطوفان ، فترك ذلك الاكتشاف صدئاً واسعاً في الأوساط العلمية ، والنرص فيه تشوّهات ، ولكن المقصود منه ، ملخصه أن الآلهة قررت افشاء البشر بالطوفان ، وبغض الآلهة كان معارضاً لهذا القرار ، وأحدمهم أخذ على عاتقه مهمة إنقاذ بذرة الحياة على الأرض ، وكان على الأرض ملك صالح يدعى « زيو سودرا » فيتسلّم به الآلهة المنقد من وراء حجاب فيخبره بقرار الإنقاص ، وفيما يلي مقاطع من الأسطورة^(٢) : « في ذلك العين يكتَّنْتُ ، كامرأة في المخاض . وأننا المقدسة ناحت على شبيها . وانكى تفكَّرْ ملياً وقلب الأمراض على وجهه ٠٠٠ في تلك الأيام « زيو سودرا » كان ملكاً وقيساً على المبد . قام بتقدمة ذبيحة عظيمة جداً ، وجعل يسجد بحضور ٠٠٠ بتجييل . وباسرار كل يوم كان يقف متضرراً وهي الآلهة . فرأى في أحد الأيام حلام لم يرَ له مثيلاً قط ، يتشوه النص والمقطع التالية تقول: « زيو سودرا واقفاً يجاهنه (اي الجدار) يسع صوتاً . قفت الجدار على يساره واسمع ، ماتوجه لك بكلمة عند الجدار فاتبع ما قوله لك وأعطي أذناً ساغية لوسياي ، بايدينا منرسيل ملوكانا من المطر ٠٠٠ للقضاء علىبني الإنسان ٠٠٠ ذلك حكم وقضاء بجمع الآلهة . قضاء (آتو) و (آنليل) لمحو سلطة البشر والقضاء على حكمهم » .

يتشوّه النص ، تليه مقاطع واضحة عن حوادث الجو التي أدت الى الطوفان : « هبت كل المؤاسفات دفعة واحدة . ودفعت سيول الأمطار أمامها ٠٠٠ ، بعد سبعة أيام وبسبعة ليال ، غمرت سيول الأمطار وجه الأرض ، ودفعت المؤاسفات المركب العملاق فوق المياه العظيمة . ثم ظهر « أوتو » - اي إله الشمس - ناثراً ضوءاً على السماء والأرض . ففتح زيو سودرا كوة في المركب الكبير وسمع لأشعة البطل « أوتو » بالدخول إليه . زيو سودرا الملك خرّ ماجداً أيام أوتو ونعر ثوراً وقدم ذبيحة من غنم » . يتشوه النص ولكن تنتهي القصة بـ « زيو سودرا الملك سجد أيام آتو وأنليل . ومثل إله وهباه حياة أبدية ، ومثل إله وهباه حياة خالدة ، عند ذلك زيو سودرا الملك دعي حافظ بذرة الحياة ، وفي أرض ٠٠٠ ملؤون حيث تشرق الشمس أسكناه » . ومن هذا النص السومري نسبيل الملاحظات التالية :

- ١ - ايمان الشعب السومري بتعصّد الآلهة ، وقرار الطوفان يصدر من جمع الآلهة لتدمير البشر والعبيّة على الأرض .

- ٢ - صاحب السفينة هو زيو سودرا وهو ملك قيّم على المعبد ، فهو رجل صالح ، يعبره أحد الآلهة بقرار الطوفان ، ويأمره ببناء السفينة (المركب العملاق) . لينجو بنفسه .
- ٣ - حدوث الطوفان بعواصف جوية ، وأمطار غزيرة دامت سبعة أيام بليلها ، ونجاة زيو سودرا .
- ٤ - لم تخلد الأسطورة مكان استواء المركب العملاق ، ولكن يفهم أنه في أرض دلوون حيث شرق الشمس .
- ٥ - يفهم من النص المكتشف أن الطوفان عام ، لأنه دمث الحياة على الأرض ، وزيو سودرا انقض بذرة الحياة . ولكن مدة العواصف والأمطار غير كافية لتشكيل طوفان يعم كامل الأرض .
- ٦ - لم يكلف زيو سودرا بتلبية قرار الآلهة ، ولم يكن رسولاً ، ولكن كان صالحًا متبعًا فاختبرته الآلهة لصلاحه ، لينجد بنرة الحياة ، وينجو من الفرق .

ثانياً ، النص البابلي عن الطوفان : (ملحمة جلجامش) :

في عام ١٨٧٢ أعلن الباحث الانكليزي جورج سميث أنه قد توصل لحل رموز أحد الواح مكتبة الملك الآشوري «آشور بانيبال» في نينوى، الذي حكم في القرن السابع قبل الميلاد وان هذا اللوح يحتوي على نص للطوفان . فتتبعت البثاث التقطيفية على المنطقة لاكتشاف المزيد . إلى أن تم الشور على الألواح الائني عشر التي تشكل ملحمة جلجماش التي تأخذ قصة الطوفان معظم اللوح العادي عشر منها » (٣) .

ومن غير الدخول في تفاصيل ملحمة جلجماش Gelgamish ، ينفرد جلجماش صديقه (إنكيدو) فيحزن عليه ، ويريد إعادة الحياة له ، فيهيم على وجهه في البراري والمقارب باحثاً من سر الخلود ، ويقصد جلجماش شخصاً يدعى « أوتناباشتم » Ut Napishtim الذي مئتَ عليه الآلهة بالحياة السرمدية ، ليسأله عن سر الخلود . ويصل جلجماش إليه بصعوبة ويسأله عن سر الخلود ، فيقص عليه (أوت-ناباشتم) كيف حصل على الحياة الابدية بحادث فريد هو الطوفان الكبير وفيما يلي مقاطع من الأسطورة (٤) : يسأل جلجماش « أوتناباشتم » أخبرني كيف حصلت على رققة الآلهة ونلت الخلود ؟ فقال أوتناباشتم لجلجماش : جلجماش ... ساكتش لك سراً كان مخبواً ، وأبوج لك بسر من أسرار الآلهة . « شوربيلاك » مدینة أنت تعرفها ، تقع على شاطئ نهر الفرات . لقد شاخت المدينة والآلهة في وسطها ، فعدتهم نقوسهم أن يرسلوا طوفاناً . كان هناك « آنسو » أبوهم ، كما كان « انليل » مستشارهم و « نورتا » مثلكم و « اينسوجي » وزيرهم ، و « ننجيكو » الذي هو « ايَا » كان حاضراً أيضاً ، فنقل حديثهم إلى كوخ القصب - (بيت أوتناباشتم) - يأكلون القصب يأكلون القصب ، جدار ياجدار ، اصغ يأكلون القصب ، وتفكر ياجدار ، رجل شوربيلاك ، يا ابن أوبار-توتو . قوْ من بيتك وابن سفينته . اهجر ممتلكاتك وانج بنفسك . اترك متاعك وأنقذ حياتك . اعمل على حمل بذرة كل ذي حياة . والسفينة التي أنت بانيها ، ستكون وفتاً لمقاسات مضبوطة . فيكون عرضها معاذلاً لطواها ، وعلوها كما هي المياه السفلية . عندما فهمت ذلك قلت لـ « ايَا » مولاي : سأضع نسب ميني ما قد أمرتني به وأعمل على تنفيذه .

ويتابع أوت-نابشتيم حديثه لجلجاش ، الى أن يقول : « وفي اليوم الخامس أنهيت هيكل السفينة، كنت أرضيتها « ايوك » واحد - (مقاييس يعادل ٣٦٠٠ م²) - وارتقاء جدرانها مائة وعشرين ذراعاً ، وطول كل جانب من جوانب سطحها مائة وعشرين ذراعاً ، حددت شكلها الخارجي وشكله، وستة سطوح سفلية بنيت فيها ، وبذلك قسمتها إلى سبعة طوابق . كما قمت بتقسيم أرضيتها لستة أقسام ، وثبتت على جوانبها مصادرات الماء . زودتها بالمؤمن والذخيرة ، ويتابع أوت نابشتيم حديثه حتى يصل إلى « حملت اليها كل ما أملكه . كل ما أملكه من فضة ، حلت اليها . كل ما أملكه من ذهب حملت اليها . كل ما لدى من يدور كل شيء حي حملت اليها . وبعد أن أدخلت اليها أهلي وأقاربي جميعاً ، وطرائد البرية ووحوشها وكل أصحاب العرف ، عين لي الله « شمش » وقتاً محدداً : (عندما يرسل ميد العاصفة مطر أمدراً في السماء أدخل الفلك وأغلق عليك يابك) . وما إن أزف الموعد ، حتى أرسل ميد العاصفة مطر أمدراً في السماء . قلبت وجهي في السماء كان الجو مربعاً للنظر ، دخلت السفينة وأغلقت عليّ يابي ، وأسلمت قيادها لللاح « بوزور-أمورى » ، أسلمت الهيكل المظيم بكل ما فيه . وما إن لاحت تباشير الصباح ، حتى علت الأفق غيمة كبيرة سوداء ، يجلجل في سطحها صوت « حدد » - ويسقطها شوللات « خانيش » - اقتلع « اريجل » الداعم وقام « نورتا » بفتح السدود . رفع (الأنوناكى) مشاعلهم ، حتى أضاءت الأرض ببريقها. إلا أن ثورة حدد بلفت حدود السماء ، أحالت إلى ظلمة ما كان مضيناً ، وقام بتحطيم الأرض كما تحطم الجرة ، عصفت الرياح العاتية يوماً كاسلاً ، يعنف عصفت ... أنت على الناس وحصدتهم كما العرب ، حتى عي الأخ عن أخيه ، وبات أهل السماء لا يرون أهل الأرض ، حتى الآلهة ذرروا من هذا الطوفان ، وهربوا صاعدين إلى سماء « آتسو » . انكمشا كالكلاب الخائفة وربضاً في أسى .

صرخت « عشتار » كامرأة في المخاض ، ناحت سيدة الآلهة ذات الصوت المنتب : (لقد أتت إلى طين تلك الأيام القديمة ، ذاك يأتي نطفت بالشر في جميع الآلهة ، فكيف استطعت أن أمر بمثل هذا الشر ؟ كيف استطعت أن أمر بالعرب لتمريضي ؟ تمريض من أعطيتهم أنا الميلاد . وما هم يملاؤن إليّ كسفار السمك) . وبكي منها آلة الأنوناكى ، وجلسوا يندبون وينوحون وقد غطوا أفواههم .

ستة أيام وستة ليال ، والريح تهب ، والعاصفة وسيول المطر تطفي على الأرض ، ومع حلول اليوم السابع ، العاصفة والطوفان خفت من وطأتها ، وكانت قبل كأنها الجيوش المغاربة ، وأخذ البحر يهدأ والعاصفة تسكن . والطوفان يتوقف ، فتحت نافذة فوق التور على وجهي ، نظرت إلى البحر كان المهدوء شاملاً ، وقد هاد البشر إلى طين » .

ويتابع أوت-نابشتيم حديثه لجلجاش : « واستقرت السفينة على جبل (نصر) ، أمسك الجبل بالسفينة ومنعها من العركة . ومضى اليوم الأول والثاني والجبل ممسكاً بالسفينة . ومضى اليوم الثالث والرابع والجبل ممسك بالسفينة . ومضى اليوم الخامس والسادس والجبل ممسكاً بالسفينة . وعندما حلّ اليوم السابع ، أتيت بحمامه وأطلقتها في السماء . طارت الحامة بعيداً ، وما لبثت أن عادت اليّ ، لم تجد مستقرًا قابت . فأتيت بسنون وأطلقت في السماء ، طار بعيداً

ثم أتت بغراب وأطلقته في السماء ، فطر الغراب وما لبث أن هاد إلى ٠ لم يجد موطنًا لقدميه فأتى بعيداً ، ولما رأى أن الماء قد انحسر ، أكل وحام وحط ولم يعد ٠ عند ذلك أطلقت الجميع للجهة الأربع ، وقدمت أضعيته ٠ ويتبع أوت-نابشتم حديثه ، قبيل ما فعله على قمة الجبل من أضعيته وتجمع الآلهة ، والغوار الذي دار بين الآلهة حول الطوفان ونتائجها ، ويخلص إلى القول : « فصمد انليل إلى السفينة وأخذ بيدي وأصعدني معه ٠ كما أصعد زوجتي أيضاً ، وجعلها ترکع إلى جواري ، ثم وقت بيننا ولس جبهتنا مباركاً : « ما كنت يا أوت-نابشتم إلا بشرأ ذئباً ، ولكنك وزوجك منذ الآن ستذودان مثلثاً (خالدين) وفي القاسمي البعيد عند فم الأنهار ستعيشان » ثم أخذوني وأسكنوني في البعيد حيث فم الأنهار ٠

يعتبر هذا النص ألم نصوص الطوفان في بلاد الرافدين ، لأنه كامل ، ولدقة تعبيره وحسن صياغته ، وقد اجتازات بعض الفقرات من النص ، فمن أراد الاطلاع على النص الكامل يمكن المودة إلى المرجع المحدد بالهامش ٠

والملاحظات التي تسجلها من قراءة النص البابلي للطوفان في ملجمة جلجامش هي :

- ١ - إيمان الشعب البابلي بـتعدد الآلهة ، كالشعب السومري ، وقرار الطوفان يتزخر بـجموعة من الآلهة ، لتنمير شوريهاك على نهر الفرات ، ولكن ورود مقطع بين ذعر الآلهة أو بعضها وانتماشهم كالكلاب الخائفة ، يشير إلى نظرية الي بلين إلى مكانة الآلهة وقداستهم فحدث الطوفان جلب انقمصة حتى على الآلهة ٠
- ٢ - صاحب السفينة هو أوت-نابشتم - ويغيره « ايــا » ان يصنع سفينه بـمواصفات معينة ، فيعمل هذا الرجل إليها كل ما يملك من ذهب وفضة وبنور كل شيء حي ، ثم يدخل هو وأهله وأقاربـه وأصحابـ العـرف وـطـرـائـدـ البرـيةـ والـوحـوشـ ، ويـطـلـقـهـمـ فيـ الجـهـاتـ الـأـرـبـعـ بعدـ الطـوفـانـ فـكانـ العـيـاةـ عـلـىـ الـأـرـضـ اـبـدـاـتـ مـنـ جـدـيدـ بـعـدـ الطـوفـانـ ٠
- ٣ - حدوث الطوفان بـعواـصـفـ رـعـدـيـةـ مـرـعـبـةـ ، وـتـفـجـرـ الـأـرـضـ بـالـيـنـيـعـ عـنـدـمـ قـامـ حـلـدـ يـتحـطـمـ الـأـرـضـ كـمـ تـعـطـمـ الـعـرـةـ ٠ وـدـامـتـ الـعـاـصـفـسـتـةـ أـيـامـ بـلـيـالـهـاـ ، وـهـدـاتـ فـيـ الـيـوـمـ السـابـعـ ٠
- ٤ - مـكانـ الطـوفـانـ هو بـلـادـ ماـ بـيـنـ النـهـرـيـنـ « شـورـيـبـاـكـ التـيـ تـقـعـ عـلـىـ الفـرـاتـ » وـتـسـتـقـرـ السـفـينـةـ عـلـىـ جـبـلـ نـصـيرـ (يقـعـ بـيـنـ الفـرـاتـ وـالـزـابـ الصـغـيرـ) ، وـتـبـقـيـ السـفـينـةـ سـتـةـ أـيـامـ عـلـىـ قـسـةـ الجـبـلـ قـبـلـ أـنـ يـطـلـقـ أـوتـ نـابـشـتـيمـ الحـامـةـ ثـمـ السـتوـنـوـ ثـمـ الغـرـابـ لـيـسـتـطـلـعـ ، هلـ حدـثـ انـعـسـارـ المـاءـ . وـهـذاـ يـفـيدـ أـنـ الطـوفـانـ اـمـ يـكـنـ عـامـاـ ، فـيـبـلـ نـصـيرـ مـنـقـضـ بـالـنـسـبةـ لـجـيـالـ أـخـرىـ كـثـيرـةـ فـيـ الـمـنـطـقـةـ ٠
- ٥ - لمـ يـكـنـ أـوتـ نـابـشـتـيمـ مـلـكاـ اوـ رـولـاـ الـىـ قـوـمهـ ، وـيـبـلـوـ اـنـ هـاـ قـيـراـ لـاـنـ يـعـشـ فـيـ كـوـخـ القـصـبـ ، وـالـذـينـ نـجـواـ مـعـهـ فـيـ السـفـينـةـ هـمـ آهـلـهـ وـاقـرـبـاؤـهـ وـاصـحـابـ العـرـفـ ، وـهـذـاـ يـوـحـيـ بـنـجـةـ عـدـ كـبـيرـ مـنـ النـسـ مـعـهـ ، وـلـكـنـ نـيلـ الغـلـودـ كـانـ مـنـ نـصـيبـ أـوتـ نـابـشـتـيمـ وـزـوـجـتـهـ ٠ وـفـيـ النـصـ اـشـارـةـ إـلـىـ اـنـتـقـالـ أـوتـ نـابـشـتـيمـ بـاتـجـاهـ الشـمـلـ حـيثـ فـمـ الـأـنـهـارـ (ايـ منـابـعـ الـأـنـهـارـ) ، فـالـمـنـاطـقـ الـمـرـتفـعـةـ أـكـثـرـ اـمـانـاـ مـنـ الـأـمـاكـنـ الـمـنـخـفـضـةـ عـنـدـ حـدـوثـ اـفـيـضـاتـ ٠

ونشير هنا الى ان بعض اساطير أخرى عن الطوفان وجدت مدونة على الواح ، تم اكتشافها في بلاد ما بين النهرين تعود للعهد البابلي الكلدانية . ولكن أغلبها مشوه أو كسرات غير كاملة ، فقد عثر على كسرة من لوح في خزائب مدينة نيسور ، والمدون عليها جزء من قصة الطوفان « ساقوم بافلات وتحريرو » سوف يأخذ الناس أجمعين ... قبل أن يعل الطوفان ... مأسوبب التراب والدمار والفساء ... قم ببناء سفينة كبيرة ... سيكون هيكلها سفينية عظيمة ستكون ، وسيكون اسمها حافظة الحياة ... قم ببنطليتها بفضاء متين والى السفينية التي صنعت وجلب وحوش البر وطيور السماء »^(٥) .

الفكرة التي دوّنت على الكرة رغم نقصها ، تشير الى طوفان قادم ، وشخص يؤمن ببناء سفينية للحفاظ على الحياة ، يحمل الوحوش وطيور السماء ، والنuss يؤكد انتشار اسطورة الطوفان في المنطقة .

واثنة ملحمة أخرى ينص بابلي وصلتنا موزعة على كسرات عديدة ، يطلقها « أترا Higgins » فعرفت باسم ملحمة أترا Higgins ، وهي تتحدث عن غضب (أليل) على البشر بسبب تكاثرهم وضعيتهم الذي منعه من النوم ، فيامر (أليل) بقطع الأشجار ويطلب من حدد حجب المطر ومن (نيساب) حجب صدرها الخصب والهدف هو تعريض البشر للقطيعة في الملحمة مصائب أخرى سلطها أليل على البشر كالأرض والأوثلة ، وفي الملحمة جزء خاص بالطوفان « ففتح أنكى فيه وقل مخالباً أليل لماذا أمرت به ... سأمد يد المساعدة إلى البشر ... والطوفان الذي قد أمرت به ... يتشوه الناس ، وفي كسرة أخرى » وفي الوقت المحدد الذي ساعدهن لك ، أدخل الفلك وأغلق عليك بابك ، احمل إليها العجوب والمتاع والواشي ، زوجك وعائلتك وأقرباك وأصحاب العرف ، رئائد البرية ووحوشها ، وما استطعت من أكلة الأعشاب ، ساذفع بها إليك ، وتقبع عند أبوابك تحرسها لك . ففتح أترا Higgins فنه وقتل معدثاً « إيا » مولاهم : لم يسبق لي أن بنيت سفينية ، فهلا رسمت لي شكلاً لها على الأرض أستعين به على بنائها؟ ... ثم اني سأعمل على تنفيذ ما أمرتني به »^(٦) .

ان ما وصلنا من ملحمة أترا Higgins يخصوص الطوفان ، يتشابه مع ملحمة جلجماش في بعض النقاط ، كحمل العجوب والمتاع والواشي ، ثم الأهل والأقرباء وأصحاب العرف ، وصناعة السفينية بوحي من « إيا » ، ولكن يطل الأسطورة في ملحمة جلجماش الذي هو أوتناباشتم يصبح أترا Higgins ، ومعنى أوتناباشتم « الذي رأى الحياة » أما معنى (Atra Higgins) فهو « الواسع الحكمة » . وسنرى أن أسماء الآلهة وبطل الطوفان والواقع تتغير عندما نقلت اسطورة الطوفان الى الأدب اليونانية ، كما يظهر في نص بيروسوس ، والأسطورة اليونانية عن الطوفان .

□ نص بيروسوس^(٧) :

بيروسوس كاهن مردود في بابل ، في التصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد ، دون تاريخ بابل بالاعتقاد على الوثائق المدونة على الالواح، ونقلها الى اليونانية عام (٢٧٥) قبل الميلاد ، فضاء معظمها ، ولكن ما يتعلق بالطوفان ، ظهرت في أعمال الكاتب الكسندر بوليستر في القرن الأول

قبل الميلاد ، اقتبسها من رواية بيروسوس عن الطوفان، وملخص الرواية « أن الملك اكسوتروس » بن « أرديتس » رأى حلماً ، تجلّى له فيه الإله « كرونوس » فيخبره الإله بأهلاك العيادة على الأرض بعلوان مدر ، فيأمره بكتبة الواح عن بداية كل شيء وتطوره ونهايته ، وطعن هذه الألواح في (سيبارا) مدينة الله الشمس . كما يأمره ببناء سفينة ، لتحمله مع عائلته وأقربائه ، ويحمل فيها من كل ما يطير ويدب على الأرض ، ويبني الملك سفينة طولها خمسة (استادياً) وعرضها اثنتا (استادياً) ، وحمل فيها وفق المشيئة الالهية ثم صعد مع زوجته وأولاده المقربين إليه .

ويحدث الطوفان ، وبعد هدوئه يرسل اكسوتروس الطيور مرتين ، وتعود بعد انتشار الماء ، ثم يرسل ثالثة فلا تعود الطيور ، فيعرف اكسوتروس أن الأرض انكشفت . واستوت السفينة على أحد الجبال . وينزل الملك وزوجته وملح السفينة على الأرض ، فسجد الملك وبني مذبحاً ، وقدم قربانة للإلهة . بعد ذلك نزل الذين كانوا في السفينة للبحث عن اكسوتروس لأنهم تأخر عليهم ، فلم يجدوه ، فاتهم صوت من السماء يأمرهم بالبقاء والصلاح ، ويخبرهم أن اكسوتروس رفع إلى السماء إلى الإلهة ، ليعيش معهم عيشة خالدة . بسبب تقواه وصلاحه . كما أخبرهم الصوت أن مكان استواء السفينة هو أحدث بقاع أرمانيا عليهم أن يعودوا إلى بابل ليستعيدوا الألواح المطحورة في سيبارا ، وعندما سمع القوم ما قال لهم الصوت السماوي ، قدموا الأضاحي للإلهة ، ومضوا إلى بابل ، فاسترجعوا الألواح ، وبنوا المدينة من جديد ، وأشادوا مدنًا كثيرة وأقاموا المعابد والهيكل .

واللاحظات على نص بيروسوس : أنه غير اسم الإله « إيا » إلى اسم الله يوناني وهو « كرونوس » وبطل الطوفان هو ملك مثل زيوس درا ولكن اسمه يوناني اكسوتروس ، والنص ابتدأ عن التفصيات التي تتعلق بحالة الجو ، فأعطيت واقعية أكثر للرواية ويتذكر اهتمام القارئ على الهدف من الطوفان والنتائج . وافتتاح اكسوتروس ورفقه إلى السماء ، فكرة متقدمة في مجال التقيدة الدينية ، فالمرجع إلى السماء وارد في الأديان السماوية ، كما أن سباع القوم تداء من السماء دون رؤية الإلهة ومخاطبتهم مباشرة ، فيه تنزيه للإلهة من التجسد ، والنص يشير إلى مكان استواء السفينة (أرمانيا) التي يقع فيها جبل آثارات حالياً .

ثالثاً - الأسطورة اليونانية عن الطوفان^(٨) :

يرجع معظم العلماء أن الأسطورة اليونانية مقتبسة من أساطير الطوفان في بلاد ما بين النهرين وقد ذكرها هسيود ، الشاعر اليوناني الذي عاش في القرن الثامن قبل الميلاد . في ملحمة شعرية . وملخص الرواية أن « زيوس » — Zeus — كبر الإلهة غضب على البشر لزيادة شرورهم وعصيانهم الدائم وذلك يشكل خطراً دائمًا يهدى الإلهة ، فقرر إبادتهم بالطوفان ، وقد أخبر زيوس « بروميثيوس » بقرار الطوفان رغم ما بينهما من عداوة فقد كان زيوس يخشى سطوة بروميثيوس لتعاطفه مع البشر . فأخبر بروميثيوس ابنه دوكاليون Deucalion وكان هذا ملكاً صالحاً ، أمّه حورية البحر « كلبيّنة » ، وكان متزوجاً من (بيرا) Pyrrha بنت أبيميثيوس وباندورا ، وقد حكم دوكاليون تساليا بالعدل وطلب بروميثيوس من ابنه أن يصنع سفينتين لينجو بنفسه مع زوجته (بيرا) . فصنعاها ، وفي اليوم الموعود انفتحت أبواب السماء بالملط الغزير ، ففُلت المياه وجه الأرض ، وأهملكت

الصغر والكبير ، ودام الطوفان تسعه أيام بلياليها، وبقي الفلك عائماً على وجه الماء وعلى متنه دوكاليون وزوجته فقط ، وفي اليوم العاشر ، حللت السفينه على جبل (البرناس) Parnasse . فخرج دوكاليون وزوجته من الفلك وقدم ذبيحة لبي الآلهة (زيوس) فدخلت الرحمة في قلبه ، وتنسم رائحة الضحية بانشراح ، ورضي على مقدمها ، فارسل زيوس رسوله (هرمس) ليسألهما عن أمنيتهم ، فأجابا بأنهما يتمنيان عودة الجنس البشري ، ايناساً لوحشتهم ، فامرها أن يليقها عظام جدتها ، وبعد تذكير أدرك دوكاليون أن عظام جدتها ليست سوى حجارة الأرض التي هي جدتها « ليبيا » ، فنفذا الأمر ، فكان الذكور من العجارة التي يليقها دوكاليون خلفه ، والإناث من العجارة التي تليقها « بيرا » خلفها ، فنشأت البشرية من جديد من أناس أكثر صلابة وشجاعة .

ونسجل على هذه الأسطورة الملاحظات التالية :

- ١ - قرار الطوفان يتغذى زيوس كبار الآلهة ، فما زالت فكرة تعدد الآلهة موجودة ، وسبب الطوفان هو شرور البشر وعصيائهم .
- ٢ - صاحب السفينه دوكاليون هو ملك عاد ، وابن لبروميثوس (النبي) الذي كان متغافلاً مع البشر ، فهو مثل زيوس وديرا الملك ، ومثل نوح في التوراة من سلالةنبي .
- ٣ - مكان هبوط السفينه ، ارض اليونان - جبل البرناس وارتفاعه حالياً (٢٤٥٩) م . والطوفان أهلك كل البشرية بدون استثناء ، ما عدا دوكاليون وزوجته .
- ٤ - البشرية العالية خلق جديد من حجارة الأرض ، وهذه الفكرة تربط بين الإنسان وأصله من تراب .

رابعاً : الأسطورة الهندية عن الطوفان (١) :

« تقول الأسطورة: ان « مانو » وهو ابن الله كان يفضل يديه ، فجاءت في يده سمكة صغيرة ، وكلمتها السمكة ، وطلبت منه أن ينقذها من الملاك، ووعده جزاءً عليه أن تنتقه في المستقبل من خطط عظيم ، وهو طوفان عارم سيجرف جميع المخلوقات، فحفظ مانو السمكة في وعاء ولما كبرت السمكة أخبرت مانو عن السنة التي سيحدث فيها الطوفان، وأشارت عليه أن يصنع سفينه كبيرة ، ويدخل فيها عند طفحان الماء ، وصنع مانو السفينه وكبرت السمكة فالقاها في البحر، وحدث الطوفان، وعندما دخل مانو السفينه ، عامت اليه السمكة ، فربط السفينه بقرن على رأسها ، فسبعتها الى الجبال الشمالية ، وربط مانو السفينه بشجرة ، وعندما تراجع الماء وخف بقي مانو وحيداً .

وانهمك مانو في العبادة ، وكان يعني أن يختلف في الأرض ، فقدم ضحية ، وبعد ستة خلفت الضحية امراة ، فأخبرت المرأة مانو أنها ابنته لأنها خلقت من ضحيته وقالت : أنا بركة استعملني في القربان تصبح غنياً في الأخلاق والمواشي ، واستمر مانو في العبادة والمجاهدة مع المرأة ، فانتجا هذه الذرية ، فهي ذرية مانو ، وأي نعمه طلبها مانو بواسطتها أعطيت له ». والملحوظات على الأسطورة الهندية ، أنها تتشابه في بعض عناصرها مع أساطير بلاد الرافدين ، كحدث طوفان عارم مدمر لكل مظاهر الحياة والبشر ، ثم بناء سفينه كبيرة من قبل شخص يعلم مسبقاً بحدوث

الطفوان ، واستواء السفينة فوق جبل مرتفع ، والبشر العالين من سلالة ذلك الشخص الناجي وهو رجل عابد صالح تقي .

لكنها تختلف عن أساطير بلاد الراذفين بثلاثة نقاط وهي :

- ١ - السمسكة تغير مانو بالطفوان ، (خوار بين انسان وحيوان) ، وفي سياق الاسطورة لا توجد غرابة من هذا العوار ولكن تدل على مرحلة بدائية في العقيدة الدينية .
- ٢ - كان الطوفان عارما ، والسمكة جرت السفينة نحو الشمال ، (خيال بدائي) وربط مانو السفينة بشجرة ، وهذا يدل أن الماء لم يغط كل القم . ولكنه اباد البشرية بكمالها .
- ٣ - خلق المرأة من ضحمة مانو ، ثم تناسل البشرية منها ، عودة الى قصة خلق الانسان الأول (التي تشبه قصة آدم الى حد ما) بينما في أساطير بلاد الراذفين كان الناجي يعمل زوجته واهله في السفينة .

وهذا الاختلاف ، يوحى بعدم وجود ارتباط بين هذه الاسطورة وأساطير الطوفان الأخرى ، ولكن فكرة الطوفان قد تكون عامة ، لأن ظاهرة الطوفان تحدث في أمكنة مختلفة فتسبب كوارث ، وسبيل النجاة هو مناعة السفينة والتوجه نحو الجبال .

□ الطوفان في التسورة (١٠) :

روت التسورة في سفر التكوير في الاصحاح السادس والسابع والثامن قصة الطوفان ، فأسهبت في سرد الأحداث ، وبيّنت الأسباب والنتائج ، ورواية التسورة فيها عناصر مشابهة للعنصر الموجدة في أساطير بلاد ما بين النهرين ، وتختلف عنها في جوانب أخرى ، وقد أثرت هذه الرواية في كافة أتباع الأديان الثلاثة : الموسوية والمسيحية ، والاسلام ، لذلك سأنتقل هنا النص الكامل للاصحاحات الثلاثة ، مع التعليق المناسب .

□ الاصحاح السادس :

- ١ - ولما ابتدأ الناس يكثرون على وجه الأرض وولد لهم بنات .
- ٢ - رأى بنو الله بنات الناس أنهن حسنات فاتخذوا لهن نساء من جميع من اختاروا .
- ٣ - فقال رب لا تجعل روحي على الانسان أبدا لانه جسد و تكون أيامه مئة وعشرين سنة .
- ٤ - وكان على الأرض جبيرة في تلك الأيام وأيضاً بعد أن دخل بنو الله على بنات الناس وولدت لهم أولاداً ولذلك هم الجبيرة المذكورون منذ الدهر .
- ٥ - ورأى رب أن شر الناس قد كثر على الأرض ، وكان كل تصور وأنكار قلوبهم إنما هو شر في جميع الأيام .
- ٦ - فندم رب أنه عمل الانسان على الأرض وتأسف من قلبه .

- ٧ - فقال الرب أamu الإنسان الذي خلقت عن وجه الأرض ، الإنسان مع البهائم والدبابات وطير السماء لأنني ندمت على خلقي لهم .
- ٨ - أما نوح فنال حظوة في عيني الرب .
- ٩ - و هو لؤام مواليد نوح . كان نوح رجلاً برأ كاماً في أجياله و سلك نوح مع آش .
- ١٠ - ولد نوح ثلاثة بنين ساماً و حاماً و يافشاً .
- ١١ - وفسدت الأرض أمام آلة وملئت جوراً .
- ١٢ - ورأى الله الأرض فذا هي قد فسست لأن كل جسد قد أفسد طريقه عليها .
- ١٣ - فقال آش لنوح قد دنا أجل كل بشر بين يديه ، فقد امتلأت الأرض من أيديهم جوراً فهاندا ملوكهم مع الأرض .
- ١٤ - اصنع لك تابوتاً من خشب قطرياني، واجعله مساكن واطله من داخل ومن خارج بالقارب .
- ١٥ - كذا تصنمه ثلاث مائة ذراع طوله ، وخمسون ذراعاً عرضه وثلاثون ذراعاً مسكه .
- ١٦ - وتبعمل طاقاً للتابت والي حد ذراع تكمله من فوق ، واجعل باب التابت في جانبه ومساكن سقلي وثنائي وثوالث تصنمه .
- ١٧ - وهاندا آثر بطوران مياه على الأرض لأهلك كل جسد فيه روح حياة من تحت السماء ، وكل ما في الأرض يهلك .
- ١٨ - وأقيم عهدٍ معك فتدخل التابت أنت وبنوك وأمّرتكم ونسوة بنينك معك .
- ١٩ - ومن كل حي من كل ذي جسر اثنين ، من كل تدخل التابت لتعينا ممك ذكرًا وأثنى تكون .
- ٢٠ - من الطير باصنافها ومن البهائم باصنافها ومن جميع دبابات الأرض باصنافها يدخل اليك اثنان من كل لعيمياً .
- ٢١ - وأنت فخذ لك من كل طعام يؤكل وضمه إليك فيكون لك ولهم ماكلاً .
- ٢٢ - فعمل نوح بحسب كل ما أمره الله به هكذا فعل .
- في هذا الاصحاح يمكن تحديد النقاط الأساسية التالية :
- ١ - ازدياد شرور الناس على الأرض ، وندم الرب على خلقه لهم فقرر معه البشر والبهائم والطيور والدبابات بطوران مياه .
 - ٢ - نوح رجل صالح نال حظوة في عيني الرب ، فيخبره الله أن يصنع تابوتاً (سفينة) ويحلسه له مقاساتها ، الطول والعرض والعمق (السمك) وطوابقها (مساكتها) أي حشد الله لنوح حجمها الإجمالي . وصنعتها نوح كما أمره الله .

□ الاصحاح السابع :

- ٣ - حدد الله لنوح من يدخل معه ، الزوجة والأولاد الثلاثة سام وحام ويافث وزوجاتهم ، فركب السفينة من البشر ثمانية فقط حسب رواية التوراة .
- ٤ - أمر الله نوحاً أن يدخل من كل ذي روح اثنين ذكراً وأثني ، وطلب منه تزويد السفينة بالمؤونة (الطعام) له والآحياء التي سيعملها في السفينة .
- ١ - وقال الله لنوح أدخل التابوت أنت وأهلك فاني اياك رأيت باراً آمامي في هذا الجيل .
- ٢ - وخذ من جميع البهائم الطاهرة سبعة ذكوراً واناثاً ، ومن البهائم التي ليست طاهرة اثنين ذكراً وأثني .
- ٣ - وخذ أيضاً من طير السماء سبعة ذكوراً واناثاً ليجعها نسلها على وجه كل الأرض .
- ٤ - فاني بعد سبعة أيام مطر على الأرض أربعين يوماً وأربعين ليلة ، وماج كل قائم مما صنعته على وجه الأرض .
- ٥ - فعمل نوح بحسب كل ما أمره الله به .
- ٦ - وكان نوح ابن ست مائة سنة حين كان ماء الطوفان على الأرض .
- ٧ - ودخل نوح التابوت هو وبنوه ونسوة بنيه معه من ماء الطوفان .
- ٨ - ومن البهائم الطاهرة ومن البهائم التي ليست بطاهرة ومن الطير وجميع ما يدب على الأرض .
- ٩ - دخل التابوت اثنان اثنان الى نوح ذكوراً واناثاً كما أمر الله نوحاً .
- ١٠ - وبعد سبعة أيام كانت مياه الطوفان على الأرض .
- ١١ - في السنة السادسة من عمر نوح في الشهر الثاني في اليوم السابع عشر منه ، في ذلك اليوم تغيرت عيون القمر والمظيم وتفتحت كوى السماء .
- ١٢ - وكان المطر على الأرض على الأربعين يوماً وأربعين ليلة .
- ١٣ - في ذلك اليوم نفسه دخل نوح التابوت هو وسام وحام ويافث بنوه وامرأة نوح وثلاث نسوة بنيه معهم .
- ١٤ - هم وجميع الحوش بأصنافها ، وجميع البهائم بأصنافها من كل طائر وكل ذي جناح .
- ١٥ - ودخلت التابوت الى نوح اثنين اثنين من كل ذي جسد فيه روح حياء .
- ١٦ - والداخلون دخلوا ذكوراً واناثاً من كل ذي جسد كما أمره الله وأغلق الله عليه .
- ١٧ - وكان الطوفان اربعين يوماً على الأرض ، فكثر الماء وحمل التابوت فارتفع عن الأرض .

- ١٨ - وكثرت المياه جداً وتماظلت على الأرض فسار التابوت على وجه الماء .
- ١٩ - وكثرت المياه جداً جداً فتنفست جميع الجبال الشامنة التي تحت السماء كلها .
- ٢٠ - وعلت المياه خمسة عشرة ذراغاً على الأرض وتنفست الجبال .
- ٢١ - فهلك كل ذي جسد يدب على الأرض من الطيور والبهائم والوحش وجميع الزحافات التي تزحف على الأرض والناس كافة .
- ٢٢ - وكل من في آنفه نسمة حياة من كل من في البيس ماتوا .
- ٢٣ - وسعا الله كل قائم كان على وجه الأرض من الناس والدبابات وطير السماء، فانمحى من الأرض وبقي نوح ومن معه في التابوت فقط .
- ٢٤ - وتماظلت المياه على الأرض مئة وخمسين يوماً .
- وفي هنا الاصحاح تكرار لبعض ما ورد في الاصحاح السادس ، ويمكن تحديد بعض النقاط الأساسية فيه بما يلي :
- ١ - حدد الله لنوح موعد ابتداء الطوفان ، وهو اليوم السابع عشر ، من الشهر الثاني من السنة ست مائة من عمر نوح ، وأبلغه قبل سبعة أيام من بدء المطر ، وأن المطر سيندوم أربعين يوماً وأربعين ليلة ، فلعم الماء ، واستمر تعاظم الماء مئة وخمسين يوماً (ربما نتيجة فيضانات أتية من مكان بعيد) .
 - ٢ - غلت المياه قم الجبال الشامنة ، وارتقت على الأرض خمسة عشر ذراغاً ، ولم يحدد النص ارتفاعها فوق قم الجبال ، ولكن يفهم أن كامل اليابسة غمرت بالماء ، « وارتفاع الماء خمسة عشر ذراغاً غير كافٍ لتفطية أي تل عادي في سهل منبسط » .
 - ٣ - هلك الطوفان جميع الأحياء على اليابسة، وهذا يفيد أن الأحياء العالية هي من سلالة ما حل نوح في السفينة .
- الاصحاح الشامن :
- ١ - وذكر الله نوحاً وجميع الوحش والبهائم التي مس في التابوت ، فأرسل الله ريحًا على الأرض فتناقصت المياه .
 - ٢ - وانسنت عيون النهر وكوى السماء واحتبس المطر من السماء .
 - ٣ - وكانت المياه تتراجع على الأرض كلما مرت وعادت وتنقصت المياه بعد مائة وخمسين يوماً .
 - ٤ - واستقر التابوت في الشهر السابع في اليوم السابع عشر منه على جبال آرارات .
 - ٥ - وكانت المياه كلما مرت نقصت إلى الشهر العاشر وفي أول يوم منه ظهرت رؤوس الجبال .
 - ٦ - وكان بعد أربعين يوماً أن فتح نوح كوة التابوت التي صنعها .

- ٧ - وأطلق الغراب فخرج وجعل يتردد الى أن جفت المياه عن الأرض .
- ٨ - ثم أطلق الحامة من عنده لينظر هل غاصت المياه على وجه الأرض .
- ٩ - فلم تجد الحامة مستقرأً لرجلها فرجتمت اليه، الى التابوت اذا كانت المياه على وجه الأرض كلها ، فمدد يده فأخذتها وأدخلها اليه الى التابوت .
- ١٠ - ولبث أيضاً سبعة أيام آخر وعاد فأطلق الحامة من التابوت .
- ١١ - فعادت اليه الحامة وقت المساء وفي فيها ورقة زيتون خضراء فعلم نوح أن المياه قد جفّت عن الأرض .
- ١٢ - ولبث أيضاً سبعة أيام آخر ثم أطلقها فلم تند ترجع اليه أيضاً .
- ١٣ - وكان في سنة احدى وست مئة في اليوم الأول من الشهر الأول أن جفت المياه عن الأرض ، فرفع نوح غطاء التابوت ونظر فإذا وجه الأرض قد نشط .
- ١٤ - وفي الشهر الثاني في اليوم السابع والمشرين منه جفّت الأرض .
- ١٥ - فخاطب الله نوحًا قائلاً :
- ١٦ - اخرج من التابوت أنت وأمرأتك وبنوك ونسوة بنيك معك .
- ١٧ - وجميع الوحش التي معك من كل ذي جسد من الطير والبهائم وسائر الدبيب السامي على الأرض أخرجهن معك ليتوالدن في الأرض وينسون ويكثرن عليها .
- ١٨ - فخرج نوح وبنيه وامرأته ونسوة بنيه معه .
- ١٩ - وجميع الوحش والدبابات والطيور وكل ما يدب على الأرض بأصنافها خرجت من التابوت .
- ٢٠ - وبني نوح مذبحاً للرب وأخذ من جميع البهائم الطاهرة ، ومن جميع الطير الطاهرة ، فأصعد محرقات على المذبح .
- ٢١ - فتنسم الرب رائحة الرضى وقال الرب في نفسه لا أعيد لعن الأرض أيضاً بسبب الإنسان ، بما أن تصور قلب الإنسان شرير منذ حداثته ، ولا أعود أهلك كل حي كما صنعت .
- ٢٢ - وأبدأ ما دامت الأرض فالزرع والمحاصد والبرد والحر والصيف والشتاء والنهار والليل لا تبطل .
- وفي الاصحاح الثامن ، تشير الآيات الى رضى الله على نوح وبنيه ، وعهد الأمان بعدم انقراض العيادة على الأرض .
- في الاصحاح الثامن وصف لترابيع المياه واستقرار السفينة (التابوت) على جبال آرارات ووصف لإطلاق نوح الطيور للتأكد من انسحار الماء فأطلق الغراب ثم أطلق الحامة مرتين . ودام الطوفان أكثر من مائة على الأرض منذ ابتداء المطر وحتى جفاف الأرض .

ويقدم نوح ذبائح طاهرة للرب فيتنسم رائحتها بالرضا ، ويتمهد بعدم لعن الأرض وتدمير العيادة عليها .

رواية التوراة لقصة الطوفان تقتضي في أجواء أسطoir الطوفان البابلية وبشكل خاص ملحمة جلجاش ، ويمكن الاشارة الى بعض المعاصر المشتركة بدرجات قريبة من التطابق :

اولاً : سبب الطوفان : تكاثر البشر ، وازيداد شرورهم وازعاجهم للآلهة (في الأساطير) وفي التوراة نفس الآسباب مع ندم الرب على خلقه لهم ، والتوراة تقر بالتوحيد (الله واحد) .

ثانياً : صاحب السفينة : رجل صالح ، تختاره الآلهة ، وتأمره بناء السفينة لينجو هو وأهله وأقرباؤه فقط (في الأساطير) . وفي التوراة الرجل الصالح (نوح) يأمره الله بناء السفينة لينجو بنفسه وأهله فقط .

ثالثاً : السفينة : يحدد الله أبعادها في بعض الأساطير ، كما في ملحمة جلجامش ، والتوراة فيها تحديد لأبعاد السفينة .

رابعاً : مدة الطوفان : حددت الأساطير مدة الطوفان باليام ، في السومرية سبعة أيام بلياليها ، وفي البابلية ستة أيام بلياليها ، وفي اليونانية تسعة أيام بلياليها ، وفي التوراة أربعين يوماً وأربعين ليلة مطر ، ودام الطوفان أكثر من سنة . والتشابه ليس في التحديد بل في تعيين الزمن (الهدف من التوقيت) .

خامساً : الطيور للاستطلاع : أطلق أوتـنابـشيـم بعد استواء السفينة على جبل نصـير ، حـمامـةـ ثم سنـونـوـ ثم غـرابـاـ ، ثـلـاثـةـ طـيـورـ ، وأـطـلـقـ نـوـحـ ، غـرابـاـ ثم حـمامـةـ ثـلـاثـةـ مـرـاتـ .

وأنوه أن هذا التشابه في المعاصر بين أساطير الطوفان ، ورواية التوراة ، لا ينفي حقيقة الطوفان بمقدار ما يؤكدها ، ولكن كتبة التوراة يبدو أنهم تأثروا بروايات الأساطير فأرادوا اعطاء مبررات دوافع أكثر منطقية للطوفان ، ووصف حوالاته وتائجه بخلفية الإيمان بالله واحد .

□ قصة الطوفان في القرآن الكريم :

ذكرت قصة نوح في عدة سور بشيء من التفصيل في الأعراف وموعد المؤمنون والشمراء والقمر وسورة نوح ، وتخالف الآيات بالألفاظ بحسب ما تكون الغاية من ايراد الآيات والمراد من معناها ، سنكتفي بايراد ما يفيد هذا البحث عن الطوفان . جاء في سورة نوح :

« إنـاـ أـرـسـلـنـاـ نـوـحـاـ إـلـىـ قـوـمـكـ مـنـ قـبـلـ أـنـ يـاتـيـمـ عـذـابـ الـيـمـ (١) قالـ يـاـ قـوـمـ إـنـي لـكـ نـذـيرـ مـبـينـ (٢) أـنـ اـمـبـلـوـاـ اللـهـ وـاـتـقـوـهـ وـاـطـعـيـوـنـ (٣) يـقـرـرـ لـكـ مـنـ ذـنـوبـكـ يـوـخـرـكـ إـلـىـ أـجـلـ مـسـمـيـ إـنـ أـجـلـ اللـهـ إـذـاـ جـاءـ لـاـ يـؤـغـرـ لـوـ كـمـ تـعـلـمـوـنـ (٤) قالـ رـبـيـ إـنـي دـصـوتـ قـوـمـيـ لـيـلـاـ وـنـهـارـاـ (٥) فـلـمـ يـزـدـهـمـ دـعـائـيـ إـلـاـ فـرـارـاـ (٦) وـإـنـيـ كـلـمـاـ دـعـوـتـهـمـ لـتـقـرـرـ لـهـمـ جـعـلـوـاـ أـصـابـعـهـمـ فـيـ آذـانـهـمـ وـاسـتـقـشـوـاـ تـيـابـهـمـ وـأـصـرـأـوـاـ وـاسـتـكـبـرـاـوـاـ اـسـتـكـبـارـاـ (٧) ثـمـ إـنـيـ دـعـوـتـهـمـ جـهـارـاـ (٨) ثـمـ إـنـيـ أـعـلـنـتـ لـهـمـ وـاسـرـرـتـ لـهـمـ إـسـرـارـاـ (٩) فـلـقـتـ اـسـتـقـفـرـوـاـ دـيـكـمـ إـنـهـ كـانـ غـفارـاـ (١٠) يـرـسـلـ السـاءـ عـلـيـكـمـ مـدـارـاـ (١١) »

وعيدهكم بامواله وبينين ويجعل لكم جناتٍ ويجعل لكم انها را (١٢) ما لكم لا ترجون الله وقارا (١٣)
وقد خلقتم اطوارا (١٤) الام تروا كيف خلق الله سبع سواتٍ طباقا (١٥) وجعل القمر فيهن نورا
وجعل الشمس سراجا (١٦) وآلة انبثكم من الأرض نباتا (١٧) ثم يعدهم فيها ويعرجكم آخر اجا (١٨)
والة جعل لكم الأرض بساطا (١٩) التسلكوا منها سبلاً عجاجا (٢٠) قال نوح رب إنهم عصوني
واتبعوها من لم يزده ماله وولنه إلا خسارا (٢١) ومكرروا مكررا كبارا (٢٢) و قالوا لا تذرن آلتكم
ولا تذرن ودأ ولا سواعا ولا يغوث ويعوق (٢٣) وقد اضلوا كثيراً ولا تزد الفاسدين إلا
ضلالا (٢٤) مما خطئاتهم أفرقا فادخلوا ناراً فلم يجدوا لهم من دون الله انصارا (٢٥) وقال
نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا (٢٦) إنك إن تذرهم يضلون عبادك ولا يلدو إلا
فاجرا كفارا (٢٧) رب اغفر لي ولوالدي ومن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنات والمؤمنات ولا تزد الفاسدين
إلا تيارا (٢٨) *

نلاحظ من سورة نوح ، أن الله اختاره رسولاً ليذنر قومه قبل أن ياتيهم العذاب الأليم فيؤدي نوح رسالته ، ويبذل كل ما يوسمه لهدايتهم ، يقدم لهم الأدلة والبراهين الكونية على وحدانية الله ليترکوا عبادة الآلهة الوثنية ، فلم يستجيبوا له ، فيطلب نوح من ربها أن لا يذنر على الأرض من الكافرين دياراً ، ويستجيب الله لدعاته ، ونحو عليه السلام في القرآن بالكريم كما ذكرنا مرسل من الله بينما في التوراة رجل صالح لم يكفل بالرسالة ، فآلة في التوراة يقرر هلاك البشرية والحياة على الأرض ، بينما في القرآن لا يتخد الله لهذا الموقف إلا بعد انذارهم وعدم إيمانهم واستكبارهم استكباراً .

وفي سورة هود حوار بين نوح وقومه ، ي يريد هدايتهم ولكنهم في ضلالهم يمدون فينقيس القرآن الكريم : « وأوْحَى إِلَيْهِ نُوحٌ أَنَّ رَبَّهُمْ لَنْ يَعْمَلُونَ إِلَّا مِنْ قَدْرٍ أَنْفَقُوا إِنَّمَا فَلَّا تَبْتَشِّرْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٦) » واصنعوا القلوك باعینتنا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرون (٣٧) ويصنع الفلك وكلما مرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سُغْرَوْا مِنْهُ فَإِنْ تَسْفِرُوا مِنْهُمْ فَإِنَّمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فسوف تعلمون من ياتيه عذاب يغزوه ويحلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٩) حتى إذا جاء امرنا وفار التنور قلنا أهل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومنْ آمنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قليل (٤٠) قال اركيوا فيها بسم الله مجرهاها ومرتساهما إن رب المغفور رحيم (٤١) وهي تجري بهم في موج كابجيان وناندي نوح ابنه وكان في مزعزلي يا بني اركب معنا ولا تكون مع الكافرين (٤٢) قال ساوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحمه وقال بينهما الموج فكان من المفرجين (٤٣) وقيل يا ارض ابلى ماءك ويا سماء القلعي وغيرهن الماء وقضى الامر واستوت على الجودي وقيل بعد للقوم الغالبيين (٤٤) وناندي نوح ربه قفل رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وانت حاكم المحاكمين (٤٥) قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسالني ما ليس لك به علم إنني امظنك أن تكون من الجاهلين (٤٦) قال ربى إنني أعود بك ان اساك ما ليس لي به علم ولا تغرنني اكون من المخاسرين (٤٧) قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سمعتهم ثم عسىهم مثنا عذاب الله (٤٨)

في الآيات السابقة من سورة هود ، تأكيد أن صناعة الفلك كان يأمر من الله ووحى منه ، وهذا يتفق من نص التوراة في المضمون ، كما هناك اتفاق بين حمل الاحياء بالازواج ، وإن كانت التوراة

أكثر تفصيلاً للإنسان ، ورمت سفينه نوح (التابوت) على جبل آثارات بينما استوت سفينه نوح في القرآن على الجودي ، وجبل آثارات يقع حالياً في أرمينيا بينما الجودي شمل العراق . ولا يتسع المجال لابراد كافة الآيات التي تناولت رسالة نوح والطوفان ، ومن مجملها نخلص الى الارشادات التالية :

أولاً : لا يوجد قرار لغير مسيق بتدمير الحياة على الأرض كما ورد في الأساطير والتوراة .

ثانياً : الرجل الصالح المختار هو نوح ، وهو رسول الى قومه قبل قرار الطوفان ، بينما كان اختيار الرجل الصالح في الأساطير في قرار الطوفان .

ثالثاً : تفاصيل الحديث غير واردة في القرآن ، كما هي مفصلة في التوراة بالأيام والأشهر والأرقام فحجم الفلك في القرآن غير محدد ولكن وصف (بالفلك المشعون) بينما في التوراة وبعض الأساطير ترد أرقام تشير ملابسات عديدة .

رابعاً : لم يفصل القرآن في مدة الطوفان وارتفاع المياه بالأذرع ، ولكن وصف امواج الطوفان كله بالجبال ، كما لم يشر الى اطلاق الطيور للاستطلاع .

خامساً : حل نوح في السفينه من كل زوجين اثنين لاستمرار التناسل ، وحل اهله باستثناء زوجته (١١) التي لم تؤمن ، وهذا يخالف ما ورد في التوراة وبعض الأساطير .

سادساً : تعدد التوراة أولاد نوح ، سام وحام ويافث ، ولم يعدد القرآن ذلك ولكن يفهم من آيات مختلفة أن ذريته هم الباقيين .

□ هل الطوفان حقيقة ؟

لا مجال لانكار الطوفان ، اذ أجمعـت الأساطير والكتب المقدسة على وقوع هذا العـدـث الكـوـنـي . واختلاف الدوافع والغايات والنتائج في الروايات المختلفة عن الطوفان ، ليس دليلاً على عدم وقوع الطوفان . فاني حدث بهذا العجم تقاد عليه المهد سيكون عرضة للتـأـوـيـلـ والتـعـرـيفـ . وقد فصلت التوراة في قصة الطوفان فلم تترك مجالاً للتـأـوـيـلـ، بغض النظر عن مصداقية الوـاصـفـاتـ والأـرـقـامـ التي وردت عن السفينـةـ ومـدـةـ الطـوـفـانـ، وهـلـ ذـكـرـ مـمـكـنـ منـ النـاحـيـةـ الـعـلـمـيـةـ؟ـ .

اما القرآن الكريم فقمن على مـحمدـ (صـلـيـلـهـ عـلـيـهـ وـسـلـيـلـهـ) قصة نوح « تلك من آنـبـاءـ الغـيـبـ نـوـحـيـهـ إـلـيـكـ ماـ كـنـتـ تـعـلـمـهـ أـنـتـ وـلـاـ قـوـمـكـ مـنـ قـبـلـ هـذـاـ فـاصـبـ إـنـ العـاقـبـةـ لـلـمـتـقـنـ » .

فلم يوضح أين كان نوح ؟ ومن هم قومه ؟ ومتى كان ذلك ؟ وكم يقـيـ الطـوـفـانـ ؟ـ وـهـلـ كانـ عـامـاـ عـلـىـ كـاملـ الـأـرـضـ ؟ـ وـاسـتوـاءـ السـفـينـةـ (ـالـفـلـكـ)ـ عـلـىـ الـجـوـديـ لاـ يـعـنيـ بالـفـرـورةـ الـجـبـلـ السـمـيـ بهـذاـ الـأـسـمـ حـالـيـاـ ،ـ لـذـكـ كـانـ آـمـاـ الـفـسـرـيـنـ وـالـمـؤـرـخـيـنـ الـمـسـلـمـيـنـ ،ـ مجـلـ وـاسـعـ لـلـتـأـوـيـلـ وـالـخـلـافـ بـماـ لـيـعـارـضـ معـ الرـادـ بـالـبـيـانـ الـأـلـمـيـ .ـ

فأخذـواـ مـنـ التـورـاةـ ،ـ وـمـنـ روـاـيـاتـ أـشـخـاصـ لـاـ عـلـمـ لـهـ بـمـاـ سـلـفـ ،ـ بـدـلـيـلـ أـنـ الرـسـوـلـ (صـلـيـلـهـ عـلـيـهـ وـسـلـيـلـهـ)ـ لـمـ يـعـرـفـ قـصـةـ نـوـحـ إـلـاـ بـالـوـحـيـ فـكـيفـ عـرـفـ أـوـلـئـكـ تـفـاصـيلـ الـأـحـدـاثـ ؟ـ

وأذكرو على سبيل المثل ما ورد في تفسير ابن كثير عن أبعاد الفلك : « وقال قتادة كان طولها ثلاثة مائة ذراع في عرض خمسين ذراع ، وعن الحسن طولها ستمائة ذراع ، وعرضها ثلاثة مائة ، وعن عيسى بن عباس طولها ألف ومائتا ذراع في عرض ستمائة ، وقيل طولها ألفاً ذراعاً وعرضها مائة ذراع فآلة أعلم ، وقالوا كلهم كان ارتفاعها في السماء ثلاثين ذرعاً ثلاثة طبقات كل طبقة عشرة ذراع » (١٢) .

وهنالك تباين في الآراء حول تخصيص الطوابق الثلاثة لاصناف الأحياء ، ففي رواية ابن كثير « الطبة السفلية للدوااب والوحش ، والوسطى للانس ، والعليا للطيور » (١٣) .

وفي رواية ابن الأثير « وجمل نوح الطير في الطبق الأسفل من السفينة ، وجمل الوحوش في الطبق الأوسط ، وركب هو ومن معه من بني آدم في الطبق الأعلى » (١٤) .

وفي رواية اليعقوبي « فصعد هو (يقصد نوح) وولده الى مشارف الكثر فاحتلوا جسد آدم فوضعوه في وسط البيت الأعلى في السفينة يوم الجمعة لسبعين عشرة خلت من آذار وأدخل الطير في البيت الأوسط وادخل الدوااب والسباع البيت الأسفل وألقبها حين غابت الشمس » (١٥) .

ويتضح التباين أكثر بالمقارنة التالية :

الطبق العلوي	الطبق الأوسط	الطبق السفلي
الطيور	الانس	الوحش
الانس	الوحش	الطيور
الانس	الطيور	الوحش

وقد لجأ المفسرون الى روایات مختلفة ، بعضها نسب الى الرسول (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، ولا أظن أن الرسول (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فعل في القصص حيث أجمل القرآن ولم يعرفها من قبل ، وأذكر هنا قصة أم الصبي « روى الإمام أبو جعفر بن حمير والعبير أبو محمد بن أبي حاتم في تفسيرهما من حديث يعقوب بن موسى الزمي عن قائد مولى عبيد الله بن أبي رافع بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي ربيعة أخبره أن عائشة زوج النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أخبرته أن النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قال : « لو رحم الله من قوم نوح أحداً لرحم أم الصبي » قال رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : « كان نوح (عليه السلام) مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وغرس مائة سنة الشجر فظممت وذهبت كل مذهب ، ثم قطعها ، ثم جملها سفينته ، ويمررون عليه ويسخرون منه ويقولون تعمل سفينتك في البر فكيف تجري ؟ قال : سوف تعلمون » فلما فرغ ونبع الماء وصار في السلك ، خشيت أم الصبي عليه وكانت تعجبه جداً شديداً ، فخرجت الى الجبل حتى بلغت ثلثة ، فلما بلغتها الماء ارتفعت حتى بلغت ثلثة . فلما بلغتها الماء خرجت به حتى استوت على الجبل ، فلما بلغ الماء رقبتها فبيدها فترقا ، ولو رحم الله منهم أحداً لرحم أم الصبي » . وهذا حديث غريب من هذا الوجه ، وقد روى كعب الأحبار ومجاحد ابن جبير قصة هذا الصبي وأمه بنحو من هذا » (١٦) .

لو صحت هذه الرواية في مضمونها فكيف تتمكن هذه المرأة المزلام من صعود الجبل في جو ماسف ماطر؟ وكيف تتمكن من الثبات على قمة الجبل حتى وصل الماء الى رقبتها؟ روايات كثيرة من هذا القبيل شوهدتحقيقة الطوفان ، وجعلته اقرب الى الاساطير ، وترسخت في اذهان عامة الناس ، وأصبحت في حكم المسلمات التي لا تدحض ببرهان .

قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي ، حدثنا عبد الله بن صالح ، كاتب الليث ، حدثني الليث ، حدثني هشام بن سعد عن زيد بن أسلم ، عن أبيه أن رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قال : (ما حمل نوح في السفينة من كل زوجين اثنين قال أصحابه وكيف تطعنن المواشي ومعها الأسد؟ فسلط الله عليه الحفي فكانت أول حمي نزلت في الأرض، ثم شكوا الفارة فقاتلوا الفرسية تفسد علينا طعامنا ومتاعنا فلما حمى الله الى الأسد ، فعمض فخرجت الهرة منه ، ففتحت الفارة منها ، (١٧) .

والرأي الشائع عند عامة الناس عن طوفان نوح هو جماع ما ورد في الأساطير والشورة وروايات المفسرين والمؤرخين ، وبقيت العقيقة غالبة ، وملخص الرأي الشائع :

أولاً : طوفان نوح عم كامل الكرة الأرضية ، قبل ستة آلاف سنة تقريباً ، فأهل كل البشر والأحياء البرية ، باستثناء ما حمله نوح في السفينة ، فالبشر العاليين هم من سلالة نوح أبو البشر الثاني .

ثانية : رست سفينة نوح على جبال آرارات في اعتقاد أهل الكتاب ، وعلى الجودي في اعتقاد المسلمين ، والموقن بما في شمال بلاد الرافدين من الناحية الجغرافية . فهل هذا الرأي صحيح؟

الاجابة تقدمنا الى مناقشة الرأي على ضوء الواقع ، والاكتشافات الأثرية التي تدل على حدوث الطوفان أو عدم حدوثه .

أولاً - هل كان الطوفان عاماً؟ أم خاصاً بموقع جنرافي محدد؟

من الناحية العلمية وضمن ما ورد في سياق تصوّر الأسطoir ، والكتب القدمة ، لا يمكن أن يكون الطوفان عاماً لكل اليابسة في الكرة الأرضية . فمن أين جاءت فكرة التعميم؟ ربما لاحظ الإنسان في ذلك المسر كما نلاحظ اليوم وجود مستعاثرات حيوانية بحرية ضمن صخور الجبال العالية كجبال طوروس وجبال آرارات وجبال الألب وجبال هيميلايا . ولا يمكن تعليق وجود هذه المستعاثرات المائية في تلك الصخور الا بافتراض طفح الماء عليها . و العقيقة من يدرس البيولوجيا (علم الأرض) ، يعلم أن جغرافية الأرض تبدلت كثيراً في الأحقاب السابقة قبل ملايين السنين ، فما زراء اليوم يابسة كان قمراً لبعض لجي معيق والشاهد على ذلك طبيعة الرسوبيات وما تعمله من بقايا أيام بحرية ، فرسوبيات الشاطئ تختلف عن رسوبيات الرصيف القاري ورسوبيات المنحدر القاري ، كما لرسوبيات الأعماق طبيعة مميزة . وعلى سبيل المثال كشفت التحريات الجيولوجية أن رسوبيات جبال طوروس وجبال آرارات كانت متوضعة في قعر بحر عميق قبل مائتي مليون سنة في العقب الثاني ، في العصر الذي انتشرت فيه الزواحف الضخمة « الديناصورات ».

ونتيجة الضغط الداخلي على قشرة الأرض وترك الصخان القارية تنشأ السلالس الجبلية وهكذا نشأت السلالس الجبلية المذكورة أعلاه ، ويقدر العلماء أن جبال آثارات انحسر عنها الماء قبل ستين مليون سنة نتيجة ارتفاع المنطقة ببطء وما زالت ترتفع . والبحر يتراجع للأماكن المنخفضة .

وفي بعض المناطق حدث ارتفاع اليابسة ثم انخفضها ثانية ، فلعله على الماء مرتين كما يستدل على ذلك من رسوباتها ، ولكن هذه الأحداث تتم بمتىasis زمني جيولوجي يقدر بـ ملايين السنين ، فلا يصح تعليل طوفان نوح بأنه أحد دورات المد البحري على اليابسة لأنه دام عدة أيام وعلى الأكثر سنة كما تروي التوراة ، وحدث قبل بضعة آلاف سنة وهذا لا تؤيده التحريات البيولوجية .

وتؤكد النصوص الدينية على أملاك كافة البشر باستثناء من كان في السفينة وآهلوك كل الأحياء البحرية باستثناء ما حمله نوح في السفينة، ولا يستخف منها أن الطوفان عام فنوح كان يعيش في منطقة معينة (نفترض أنها في منطقة بلاد ما بين النهرين) ، فإذا كان قومه محصورين في تلك المنطقة فقط ، وهم كامل البشرية على الأرض ، ولا يوجد غيرهم في أوروبا وأفريقيا وشرق آسيا ، فلماذا يهم الطوفان على تلك البلاد لأهلك الأحياء البرية ؟

وإذا افترضنا وجود بشر آخرين غير قوم نوح في مصر والصين وأوروبا وبلدان أخرى فلماذا تم عليهم دعوة نوح بالهلاك ويفرقهم الله جميعاً ، والنص القرآني صريح : « وما كنا معدين حتى نبعث رسولًا » .

إن طوفان نوح كان في منطقة محددة ، فأهلوك قومه الذين لم يؤمروا بدعوته ، وأمر الله له بعمل من كل زوجين اثنين من الحيوان لا يعني حمل كل الأنواع ، إذ يكفي أن يحمل ما يجده الإنسان ، كما يحدث حالياً عندما يرحل البدو من منطقة إلى أخرى ينقلون معهم دوابهم وأنعامهم . ولا شك أن طوفان نوح كان عارضاً شمل منطقة واسعة جداً ، لذلك ترك في نقوس الناجين وذاكرة الأجيال التالية أثراً لا ينمحى ، فظهر الحديث في الملحم الأسطورية وأعلنت التوراة بعداً جديداً للحدث يتسمج مع نفسية اليهود وربتهم في السيطرة على العالم . والقرآن الكريم أجمل العدث ، فاكد الحقيقة ولم يؤكد التعميم .

فإذا كان الطوفان خاصاً بقوم نوح وطفى على المنطقة التي كان يعيش فيها .

□ قلـيـن حـدـثـ الطـوـفـانـ ؟

الحضارة السوميرية والبابلية كانتا في منطقة بلاد ما بين النهرين ، وترك الطوفان السابق أثراً بالغاً في وجدان الناجين ، والأجيال اللاحقة تلقت الخبر من الأسلاف فخلدت الحديث في الملحم الآبية الأسطورية . فالطوفان يحسب النصوص البابلية حدث في بلاد الرافدين ودمّر مدينة (شوربباق) على نهر الفرات . وفي التوراة إشارات إلى حدوث الطوفان في بلاد الرافدين أيضاً وذلك من خلال انتشار أولاد نوح (عليه السلام) وحفذاته بعد الطوفان ، وعيوب السفينة على جبال آثارات

تأكيداً لحدوث الطوفان في هذه المنطقة ، فنابع دجلة والفرات هي من المضاب في أرمينيا وشمال شرق ترکيا حالياً . وجبل الجودي يقع حالياً في شمال العراق وهو جزء من بلاد ما بين النهرين . فهل أثبتت التحريات الجيولوجية ، أو التنقيبات الأثرية حدوث الطوفان قبل ستة آلاف سنة ؟

□ العقريات الأثرية تثبت حدوث الطوفان(١١) :

في الفترة الواقعة بين عامي ١٩٣٠-١٩٢٥ قام العالم البريطاني ليونارد ووللي — Leonard Woolley — وزوجته كاثرين وولي — Katherine Woolley — بدراسة موقع (اور) Ur القديمة فأجرى حفريات عديدة ، واكتشف بقايا آثار الأمم الفاتحة التي تعاقبت على هذا الموقع ، وكل طبقة تمثل حقبة من الزمن ، ومرحلة قامت على أنقاض مرحلة أخرى ، وتحت هذه الأنقاض ظهرت طبقة رسوبية طينية نظيفة ، وهي لم تأخذ شكلاً طباقياً ، ومستواها أعلى من مستوى الأرض السبخة الأساسية المحيطة بها . وظل الغبار في هذه الطبقة مستمراً ، وعلى عمر أحد عشر قدمًا في هذه الطبقة ، تم اكتشاف آثار وانقاض وهياكل بشرية . وأثار هذا الاكتشاف العالم (ولي) وأسر بالغور في اتجاهات مختلفة فتأكد أن هذه الطبقة الطينية تمتد على مساحات واسعة . وأسفلها طبقات من الأنقاض . وتساءل وولي من أين جاءت هذه الطبقة الطينية ؟

لاحظ وولي أن المستوى الملوث للطبقة داكن اللون ومكون من مواد مفككة ، وأوسعها افتح لوناً وأكثر تسامكاً ، وأسفلها قاتم ، ولا يتشكل هذا الوضع إلا بتدفق ماء بمقادير هائلة .

لا شك أن مدينة أور وما يجاورها دفنت تحت هذه الرسوبيات نتيجة طوفان عارم ، وإذا كانت سماكة الطبقة الطينية المكتشفة (١١) قدماً فكم سيكون ارتفاع مد الطوفان ؟

لا شك أنه يتجاوز هذا الرقم بكثير ، وإذا علمنا أن أور ازدهرت في أواخر الآلف الرابع قبل الميلاد فإن الطوفان الذي دمر أور القديمة يكون قد حدث قبل خمسة آلاف أو ستة آلاف سنة ، فهل هو طوفان نوح المذكور في التوراة والقرآن؟ العلم عند الله .

ثانياً - أين استوت سفينة نوح ؟

في أساطير الطوفان وفي التوراة ، كانت السفينة ترسو على جبل ، ففي النص البابلي ورد اسم جبل نصیر (حررين) وفي النص اليوناني جبل (البرناس) وفي التوراة (جبل آرارات) ولم تحدد قمة معينة ، وفي القرآن الكريم لم يرد لفظ الجبل ، وأسم الجودي لا يعني جيلاً محدداً فهل رست السفينة فعلاً على قمة جبل شامخ ؟

وإذا وصلت سفينة نوح كما تروي التوراة إلى قمة آرارات العالية فلا شك أن الماء غطى كامل الكره الأرضية .

واستدل بعض المفسرين من معاونة نوح معابنه الذي لم يؤمن ، قبل أن يفرق ، عندما طلب من نوح أن يؤمن ويركب الفلك ، فقال الابن سأوي إلى جبل يعصمني من الماء ، فيرد نوح عليه

لا عاصم اليوم من أمر الله . استدلوا على أن الماء سيطغى على قم الجبال بكمالها ، والآية القرآنية التي أوردت حوار نوح مع ابنه ، لا تعني أن الابن صعد فعلاً إلى الجبل ، وتصور الأن فلماً مشعراً بالمؤمن والحيوانات وبعيد من البشر ، لا شك هون الكفر يتجاوز حجم المراكب التي كانت قبل ستة آلاف سنة ، تغير الخليجان وشواطئ البحار ، هذا الفلك الكبير كيف سيتحرك وفي أي اتجاه اذا كان في جنوب المراق ؟

ان مياه الفيضانات في بلاد ما بين النهرين تتجه من الشمال حيث المدفونات الجبلية الى الجنوب لتصب في الخليج العربي . واذا ترك هذا الفلك بدون توجيهه ، سيتحرك باتجاه الجنوب بينما أكدت الأسلام والمسيحية والتوراة أن السفينة رست على الجبال الشمالية المائية ، قرب متابع الانهار . من الطبيعي أن يتوجه الفلك بارادة الملاح باتجاه المنطقة الاكثر أماناً ، ولكن الطوفان مجبر عليه ، وبناء السفينة كان بمحض اوهامه من الله ، فلا شك أنها سترجع إلى بصر الله ورماديته . وترسو باسمه في المكان الذي قدره الله ، « إركعوا فيها باسم الله مجرها ومرساها إنَّ ربي لغفور رحيم » - هود - (٤١) . « وحملناه على ذات الواح وسر # تجري باعيننا جراءً لمن كان كثيرون # ولقد تركناها آية فعل من مدحك » - القمر (١٥-١٣) .

ان اتجاه الطوفان في ضوء جغرافية المنطقة سيكون من الشمال الى الجنوب ، وتتحرك السفينة من الجنوب الى الشمال ، فعل كان اتجاه العاصفة من الجنوب الى الشمال ؟ اي جاءت الفيضانات من الشمال وتتحركت أمواج الخليج العربي من الجنوب بفعل الأعاصير فالنقي الماء على أمر قد قدر . وتتحرك السفينة في هذه الحالة بقوة دفع الرياح باتجاه الشمال . ولكن هل رست فعلاً على جبال آثارات ؟

ان دراسة صخور جبال آثارات والجودي لا تؤكّد وجود لحقائق فيضانية قربية المهد ، فهي رسوبيات تعود الى ملايين السنين . ويبقى احتمال التأويل وارداً ، من أن السفينة اتجهت من الجنوب ، حيث كان يعيش نوح مع قومه في الأفوار في جنوب العراق ، الى الشمال بعد حدوث الطوفان الذي ارتفع عدة أمتار ففقط كامل المنطقة ، وأهلك كل حي يدب على الأرض ووصلت السفينة الى سلسلة الجبال الشمالية ، فرسنت هناك ونزل منها نوح ومن معه فاتخذوا من المدفونات مقراً لهم ديشما تعود الأمور الى طبيعتها السابقة ، وكان أمر الله مفعولاً .

ترك هذا الحديث في ذاكرة الأجيال اللاحقة صورة معينة عن هذا الطوفان ، فقد أهملت الحياة على الأرض ، وعمَّ اليابسة بكمالها ، وانسحب التعليم على قم الجبال ، ولا شك ان الباحث يتتسائل لماذا قدر الله استواء السفينة على جبل شاهق ؟ فالجبال أقل صلاحية للسكن والاستقرار والزراعة وتربية الماشية ، وما دام الطوفان عقوبة الهيبة ، والناجون من الطوفان يستحقون مكانة على ايديهم فكان الأولى أن ترسو السفينة بعد الطوفان في مكان خصب سهل منبسط . والله سبحانه الذي أوحى لنوح صناعة السفينة وقدر مجرها ومرساها لم يترك السفينة في مهب الأعاصير او دوامات المياه لتسstoi بالصدفة في مكان مرتفع وليتقطع ويلتقط نوح ومن معه في السفينة أيام حتى تجف المياه ، والقرآن الكريم لم يقطع باستواء السفينة على جبل شاهق ، وكما ذكرت لفظة الجودي لا تعني

جيلاً محدداً ، لذلك يمكن فهم حقيقة الطوفان بعيداً عن الأحجوم الأسطورية . ولكن المنطق العلمي يفترض أن يلغاً الانسان في حوادث الطوفان إلى الأماكن المرتفعة وهذا ما حدث فعلًا بالنسبة لطوفان نوح (عليه السلام) .

□ قابن دست سفينة نوح ؟ وهل تم العثور على آثارها ؟

قبل الإجابة عن هذين السؤالين ، أين يكن البحث عن سفينة نوح وآثارها ؟
حددت التوراة جبال آرارات ، وذكر القرآن الجبودي وأسطورة جلجامش حددت جبل نصیر (حررين) والأسطورة اليونانية حددت جبل(اليرناس) . فاي الواقع مرشح للبحث والتنقيب؟
معظم الابحاث تركزت على آرارات لأسباب عديدة ، اما لاثبات حقيقة الطوفان ، او لнаци
صحة الخبر الوارد في التوراة ، او حباً في الاستطلاع والمساءلة .

يقول : كريستيان هيرالد^(١) « لم تذكر التوراة قصة معينة بل اكتفت بالإشارة إلى جبال آرارات ، ويسلم الجميع بأن آرارات لم تكن تعني في ذلك العين جيلاً محدداً ، بل منطقة واسعة جداً سميت فيما بعد بارمينيا ، وهي تشمل أجزاءً من تركيا الحديثة وإيران والعراق والاتحاد السوفيتي ومئات من القمم » ، وبما أن جبل آرارات ينتمي متصلاً متشاركاً إلى ارتفاع (٤٢٦٧) متراً في السهول في طول منحدر متناقض في العالم ، فإن قتها لا بد أن تكون الأولى التي بربرت فوق الماء في تلك المنطقة ، لذلك يعتقد الأرمن أن السفينة استقرت عليه .

وأصبحت للجبل حرمة مقدسة لم يتجرأ أحد الصمود إليه والبحث عن السفينة ، من أهالي المنطقة » « وأول بعثة تسلقت جبل آرارات برئاسة الفرنسي فريديريك بارو عام ١٨٣٩ ، ولم يبحث عن السفينة ولم يجدما ، لكنه ترك أثراً في علم ملقت عليه تسمية (علم ابحاث سفينة نوح) وبهذا انتهك (الذابو) التقديم الذي كان يحظر على الأهالي المحليين تسلق الجبل ومهد بذلك الدرب لإجراء الابحاث اللاحقة »^(٢) .

وفي عام ١٨٧٦ عشر اللورد برايس فوق حافة نافذة من الجبل تبرز على ارتفاع (١٢) ألف قدم على قطعة خشبية منحوتة يبلغ طولها زماماربعة أقسام .

وكثرت الروايات عن مقامات المستكشفين ، ولا يخلو بعضها من التأكيد على رؤية بقايا من سفينة نوح ولكن لم تقطع تلك الروايات الشك بالعيقين والأدلة الدامنة .

« ان الشاهد العياني الوحيد على وجود الفلك هو قطع خشبية وجدتها المتسلتون على الجبل واكثر هذه القطع اثارة للجدل ، قطعة دكدام صنعت باليد وفقدت متعرجة جزئياً ، وجدتها فرنسي يدعى فرنان نافارا عام ١٩٥٥ وقد تولى مخبراسياني فحص خلاياها فعدد عمرها ينبع (٥٠٠٠) سنة وهو الزمن التقريبي لصنع الفلك . الا أن اختبارين أحرياً في مكانين مختلفين بالأشنة الأيزوتوبية (المنصر الكربون - ١٤) واحدهما في جامعة أمريكية والآخر في جامعة بريطانية حددتا تاريخ خشبة نافارا بين (١٢٠٠) و (١٤٠٠) سنة فقط »^(٣) .

ويعلق العالم السوفيتي : ي. ريزانوف مستشهدًا ببعض من كتاب (أدوارد زيوس) الذي نشره عام ١٨٨٣ م بعنوان « وجه الأرض » الذي قارن فيه بين ملحمة ججاجاش الكلدانية ورواية التسورة فيقول : « والرواية الكلدانية تصر الطوفان في حدود قليلة ويعقله تمامًا ، فالمطر يتتساقط لمدة سبعة أيام فقط ، والمياه لا تغمر حتى جبل (حررين) الذي يبلغ ارتفاعه زمام (٤٠٠) متر ، وتوقف السفينة عند جبل حررين في الوقت الذي بلغ فيه الطوفان حده الأقصى يعطينا صورة عن ارتفاع مستوى المياه . فهذا الجبل يقع في حدود منبسط ما بين النهرين ، ويكتفي أن ترتفع المياه نحو (١٠-٥) أمتار تفسّب لكي تغمر المياه المنبسط بأسره باستثناء الجبل المذكور وقد خلص أدوارد زيوس إلى استنتاج مؤداه أن المقصود بالطوفان العظيم هو الفيضان الدمر الذي حدث في المجرى الأسفل لنهر الفرات والناتج عن هبوب اعصار من الجنوب . لكن ما الواجب قوله بقصد رواية الكتاب المقدس الثالثة أن سفينته نوح رحست عند قمة آثارات وأن حطام السفينة الأسطورية موجود فوق هذا الجبل ؟ ليس من العذر ملاحظة أن رواية الكتاب المقدس عن الطوفان تتسم بالبالغة في وصف عواقب الظاهرة الطبيعية التي حدثت . فمثلاً إن فترة الطوفان استمرت عاماً كاسلاً . لقد نقل بدوون روایة الكتاب المقدس عن الطوفان مكان الأحداث ، رغمة منهم في تشديد مواليه ، من جبل حررين غير المرتفع إلى أعلى جبل في آسيا الصغرى أي آثارات » (٢٣) .

ويتابع زيزانوف قوله : « أن بحري قزوين والأسود مما أقرب حوضين بحرين إلى جبل آثارات وبلغت المياه حوض قزوين أعلى منسوب لها قبل (١٠) آلاف سنة وأنذاك يبلغ منسوب المياه بعد قزوين (٤٨-٤٦) متراً من الارتفاع المطلق . (حوالى ٧٥ متراً فوق المستوى العالمي لبحر قزوين) . وبلغ الارتفاع نفسه منسوب المياه في البحر الأسود ، وبهذا فلم يكن البحر يغمر على مدى المليون عام الأخير جبل آثارات ومنطقة التقى بأسراها . وفي منطقة جبل آثارات وجدت روابس بحرية لا يقل عمرها عن ٢٠ / مليون عام ، وتكونت قبل أن يكون وجود الجبل لجبل آثارات في العقبة التاريخية المذكورة ، فلا تتوافر المسوفات إذن للبحث عن سفينه نوح هناك . أما الألواح وحطام الأخشاب على قمة آثارات ، فقد تكون موجودة هناك ، لكنها لم تصل إليها مع الطوفان . إذ قد تكون بقايا منشآت عبادة البشر القديمي ، نظراً لأن آثارات كان منذ قديم الزمان يعظى بتكرييم خاص لدى الشعوب القاطنة حوله » (٢٤) .

اما بالنسبة للبودي (الجبل العالمي) فهناك روايات غير موثقة ، عن عشرات بعض المستكشفين على الواح خشبية ومسامير كبيرة (سر) قديمة جداً على قمة الجبل .

□ خلاصة البحث :

طوفان نوح حقيقة لا مراء فيها ، أهلك قوم نوح ، حدث ذلك في منطقة بلاد ما بين النهرين ، وكان طوفاناً عارماً ، وما جاء في الأساطير والتوراة مبالغ فيه ولا ينسجم مع معطيات الواقع ، وقواعد المنطق .

□ هوامش البحث :

- ١ - د. نورالدين حاطوم وآخرون - موجز تاريخ العصارة - الجزء الأول - مطبعة الكمال - ١٩٦٥ .
السورية - ص (١٥٦) .
- ٢ - فراس سواح - معاصر العقل الأولى - اتحاد الكتاب العربي - ١٩٧٦ (نصوص الاسطورة منقولة حرفيًا من الكتاب) .
- ٣ - فراس سواح - المراجع السابق - من (٢١١) .
- ٤ - فراس سواح - المراجع السابق - من (٢١٢) - وما يعلوها) .
- ٥ - فراس سواح - المراجع السابق - من (٢٢٤) .
- ٦ - فراس سواح - المراجع السابق - من ملحة اتراهيس - من (٢٢٦) - وما يعلوها) .
- ٧ - فراس سواح - المراجع السابق - من (٢٢٨) - بشيء من التصرف .
- ٨ - اختلت المعلومات من ثلاثة مراجع - فراس سواح - معاصر العقل الأولى - من (٢٠١) - ومجلة المعرفة السورية - العدد ١٩٧ - تموذج ١٩٧٨ بحث «إصداء عربية في الأسطورة الفرعية - لزالدين الخير - وعمم الأساطير اليونانية والرومانية - سويل همان وعبدالرازق الأصفر - وزارة الثقافة - دمشق - ١٩٨٢ » .
- ٩ - تاريخ الأدب الهندي - الجزء الأول - للسيد أبي التصر احمد العسيلي البهويالي الهندي - عن فحسن الانبياء لميدا الوهاب التجار - من (٦٢ - ٦١) .
- ١٠ - من نسخة الكتاب المقدس في المهد المتيق - جمعيات الكتاب المقدس المتعددة - ساحة النجمة - بيروت - الطبعة الكاثوليكية ١٩٥١ .
- ١١ - اختلف المفسرون حول نجاة زوجة نوح ، فمنهم من قال أنها ماتت قبل الطوفان ، ومنهم من قال ادخلها السفينة لأنها من أهلها ، ومنهم من قال كانت له أكثر من زوجة ، والقرآن لم يفصل ذلك والأرجح أن زوجته الخامسة هكذا مسيء الهاكلين .
- ١٢ - ابن كثير - تفسير القرآن - الجزء الثاني - من (٤٤٤) .
- ١٣ - ابن كثير - تفسير القرآن - الجزء الثاني - من (٤٤٤) .
- ١٤ - ابن الأثير - الكامل في التاريخ - الجزء الأول - ادارة الطباعة المئوية - مصر ١٣٤٨ الصفحة (٤٠) .
- ١٥ - اليعقوبي - تاريخ اليعقوبي - المجلد الأول - دار صادر - بيروت - من (١٤) .
- ١٦ - ابن كثير - تفسير القرآن - الجزء الثاني - من (٤٤٧) .
- ١٧ - ابن كثير - تفسير القرآن - الجزء الثاني - من (٤٤٥) .
- ١٨ - مجلة العربي - العدد ٢١٨) - كانون الثاني ١٩٧٧ - (ابن سفيحة نوح وما هي حكاية الطوفان(د. امين محمد عبد الله .
- ١٩ - مجلة المختار - العدد الصادر في شباط - ١٩٧٩ - مقال «سر ذلك نوح» بقلم : كريستيان هيرالد .
- ٢٠ - مجلة المختار - العدد السابق - شباط ١٩٧٩ .
- ٢١ - مجلة المختار - العدد (٤) - ١٩٩١ - بحث (البحث عن سفيحة نوح) .
- ٢٢ - مجلة المختار - العدد (٤) - ١٩٩١ .
- ٢٣ - مجلة المدار السوفيétique - العدد (٤) - ١٩٩١ .

الآسماء الواردة في نصوص الأساطير - (الألهة) :

- ١ - انانا : من الالهة السومرية .

٢ - انكي : إلى الماء .

٣ - اتو : سيد السماء مقره السماء السابعة .

٤ - انتيل : إله له السيادة على الأرض والجو .

٥ - اوتو : إلى الشمس .

٦ - اينوجي : من الالهة البابلية .

٧ - اريجال : إلى العالم السفلي .

٨ - اونوناكي : اسم جمع للالهة .

٩ - حند : إله البرق والرعد والصواعق والامطار .

١٠ - ايما : إله له السيادة على البحار والمعيطات .

١١ - خانيش : مساعد الإله حند . -

١٢ - زيسوس : كبير الالهة اليونان - إله التظواهر الجوية كالبرق والرعد والمطر .

١٣ - شمش : إلى الشمس .

١٤ - شولتان : مساعد الإله حند .

١٥ - عشتار : إلهة نجم الزهرة .

١٦ - كرونوس : كبير الالهة الرومانية - رمز الزمن عند اليونان .

١٧ - ننتو : الالهة الام .

١٨ - ندورتا : إلهة الزراعة والري .

١٩ - نيسابا : إلهة القمح والعبوب .

٢٠ - نجيكو : اسم آخر للاله (ايما) .

٢١ - هرميس : ابن الإله زيوس وحفيده اطلس .

٢٢ - بروميثيوس : يعني النبي كانزنيوس يخسي سلطنته .

أبطال الطوفان :

- ١ - ذيو سودرا : (بطل الطوفان السومري) - ومعنى الاسم: الذي وضع يده على العمر المديد .

٢ - اوت - نايشيتيم : (بطل الطوفان البابلي - الكلداني) - والاسم يعني (الذي رأى العيادة) .

٣ - اترا Higgins : (بطل الطوفان البابلي ايضاً) والاسم يعني (الواسع الحكمة) .

٤ - دوكاليون : (بطل الطوفان اليوناني) وهو ملك وابن بروميثوس التبّي .

٥ - مانسو : (بطل الطوفان الهندي) ابن الله والجند الأسطوري للبشر .

٦ - نسوح : في التوراة وحصل صالح والاسم يعني (الراحة) .

٧ - نسوح : في القرآن، تبّي ورسول الى قومه ، (لديه افة بمعجزة الطوفان) .

زراعة الخيل عند العرب*

مشروع دراسة مقارنة

فاضل السباعي

١ - النخلة العربية الأولى في الأندلس :

ذكر أحد الباحثين الغربيين في كتاب له عن الزراعة عند العرب ، أن تلك النخلة - التي تاملها يوماً أمير الأندلس « عبد الرحمن الداخل » في حديقة قصره ، وانشد فيها أبياتاً من الشعر عبرت عن احساسه بالغربة - ربما تكون هي النخلة الأولى التي زرعت في إسبانيا ، في القرن الثامن الميلادي (الثاني للهجرة) ، على يد الفاتحين العرب !

استوقفتني هذه الملاحظة ، التي أبداها المستعرب الكندي «أندريو واطسون» في كتابه «الابداع الزراعي في بدايات العالم الاسلامي»^(١) ، وأذكر تبني بالقصص الذي ابتناه الأمير الشاب عبد الرحمن بشمالي العاصمة قرطبة وسماه «قصر الرُّصافة» ، تأسياً بجده الخليفة الأموي الشامي «هشام بن عبد الملك» (حكمه : ١٠٥ - ١٢٥ هـ) ، هذا الذي كان قد نقل سرير ملكه من دمشق الى مدينة «الرُّصافة» قريباً من نهر الفرات .

وما يسترعى انتباه المطلع على سيرة الأمير عبد الرحمن - الذي استطاع أن يتملك الأندلس عقب سقوط الخلافة الأموية في المشرق على يد العباسيين سنة ١٣٢ هـ - انه بذلك عنابة خاصة بهنية قصره الرُّصافة ، بأن نقل الى هذه

(*) فندم هذا البحث في ثورة التغليف الثالثة ، التي نظمتها جامعة الملك فيصل بالمملكة العربية السعودية ، في المدة من ٢٤ - ٢٧ رجب ١٤١٣ هـ / ٢٠ - ٢٣ كانون الثاني ١٩٩٣ م .

الجنان - على ما روى المقري في « نفح الطيب » - « غرائب الفروس » ، وأكارم الشجر من كل ناحية ، وأودعها [هذه الجنان] ما كان استجلبه « يزيد » و « سَفَرَ » ، رسولاً إلى الشام ، من النوى المختار والعبوب الغربية ، حتى نمت ، في المدة القرية ، أشجاراً مُعمِّمة ، أثرت بغرائب من الفواكه ، انتشرت عما قريب بارض الأندلس »^(٢) .

والم الواقع أن العرب نقلوا إلى الأندلس ، فيما نقلوا من المعارف والعلوم وفنون الحضارة المختلفة ، نباتات كثيرة لم يكن يعرفها قبليهم أهل إسبانيا . ذلك أن التجارب العميقة ، التراكمية عند الأمم المفتوحة ، في مشرق الامبراطورية الغربية الإسلامية ومغربها ، كانت قد أخذت في التفاعل ، وبالتالي في الانتقال شيئاً فشيئاً من قطر إلى قطر ، يحملها معهم أبناء الدين الجديد .

ويعد المؤرخ البريطاني في القرن العشرين « ويل دبورانت » بعض ما نقله العرب إلى إسبانيا من النباتات ، التي منها : القطن ، وقصب السكر ، والأرز ، والموز ، والكرز ، والليمون ، والسفرجل ، والخوخ . وهذه وغيرها لم تكن معروفة هنالك ، ومنها تلك الشجرة ، البعيدة أشجارها ، الجم نفها ، المديد عمرها : النخيل !

ولعلنا لا نسرف في القول اذا زعمنا أن ثمار النخيل تأخذ عند العرب أهمية خاصة بسبب ما لها من القيمة الغذائية ، وهي التي ظلت ، طوال حقب التاريخ ، الغذاء الأول لأهل البوادي والواحات !

٢ - مصادر ومراجعة :

في التراث العلمي الذي صنفه الأجداد ، كثير من الكتب والموسوعات التي عنيت بالفلاحة والزراعة والطب النباتي؛ وقد أبقى الزمان لنا على عدد منها ، احتوى خلاصة معارفهم في هذا المفن الهام، سనعول على ما تيسر لنا منها لدى اعدادنا هذا البحث : وهذه المصادر هي ، حسب أزمان مؤلفيها :

- ١ - « الفلاحة الرومية » ، لقسططوس بن لوقا البعلبكي (توفي بعد ٣٠٠ هـ / ٩١٣ م) ، نقله إلى العربية في حينه سرجس بن هلبا نُشر في سنة ١٢٩٣ هـ (١٨٧٦ م) بالقاهرة ، بعنوان « الفلاحة اليونانية » .

٢ - «**المقني في الفلاحة**» ، لأحمد بن محمد بن حجاج الاشبيلي (كان حياً في سنة ١٠٧٤ هـ / ١٩٦٤ م) . نشر في سنة ١٩٨٢ بعمان ، بتحقيق صلاح جرار وجاسر أبو صفيه ، في منشورات مجمع اللغة العربية الأردني .

٣ - «**زهر البستان ونزة الأذهان**» لأبي عبدالله ، محمد بن مالك الطفشنري ، المعروف بالعام الغرناطي (حيا ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م) ، ما زال مخطوطاً !^(٤)

٤ - «**كتاب الفلاحة**» (أو **الفلاحة في الأرضين**) ، لأبي زكرياء ، يحيى بن محمد بن أحمد ، المعروف بابن الموام الاشبيلي (من علماء القرن السادس الهجري ١٢ م) . نشر في سنة ١٨٠٢ بمدريد (في مجلدين ، مع ترجمته إلى الإسبانية) ، وأعيد طبعه فيها مصورة ١٩٨٨ .

٥ - «**الجامع لفردات الأدوية والأغذية**» ، لضياء الدين أبي عبد الله بن عبد الله بن أحمد المالقي ، المعروف بابن البيطار (ت ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م) . طبع في مطبعة بولاق بالقاهرة ١٢٩٠ هـ (١٨٧٥ م) .

٦ - «**مفتاح الراحة لأهل الفلاحة**» ، لمجهول (من أهل القرن الثامن الهجري ١٤ م) . نشر في ١٩٨٤ بالكويت ، بتحقيق الدكتور محمد عيسى صالحية والدكتور إحسان العمد .

وذلك فضلاً عن مراجع ومعجمات وموسوعات ، قديمة وحديثة ، في الفلاحة والطلب واللغة والتاريخ ومنها مراجع اختصت بالنخيل والتمر . وسوف نشير إلى كل منها لدى الرجوع إليه^(٥) .

٣ - توصيفه^(٦) :

النخيل (مؤنثة) ، والنخل (يدل على الجنس ، يذكر ويؤثر) ، شجر من الفصيلة النخلية *Palmae*. الاسم العلمي له : *فينكس داكتيليفيرا Phoenix dactylifera*. موطنها الأول منطقة البحرين وشبه الجزيرة العربية . وقد كانت هذه الشجرة تزرع ، قبل حوالي أربعة آلاف سنة ، على شواطئ دجلة والفرات .

وَجْدُ النَّخْلَةِ ساق اسْطَوَانِيَّةُ خَشْبِيَّةٌ طَوِيلَةٌ لَا تَتَفَرَّعُ إِلَّا نَادِرًا؛ وَتَنْمُو إِلَى
الْأَعْلَى بِاطْرَادٍ، بِمُعْدَلٍ سَنِيٍّ يَرَاوِحُ بَيْنَ ٣٠ - ٩٠ سَمًّا، حَتَّى لِيُبْلِغَ طَولَ
النَّخْلَةِ أَحْيَاً ثَلَاثِينَ مِتْرًا، إِذَا وَاتَّ الظَّرْفُ الْبَيْئِيَّةَ وَعِوَادُ الْخَدْمَةِ مَقْرُونَةٌ
بِصَنْفِ النَّخْلِ الْمُتَازَّ. وَأَمَّا قَطْرُ الْجَدْعِ فَهُوَ بَيْنَ ٤٠ - ٩٠ سَمًّا.

وَيُشَبِّهُ الْقَدْمَاءُ النَّخْلَ بِالْإِنْسَانِ فِي التَّبَابِينِ بِطَوْلِ الْقَامَةِ وَبِالْجَرْمِ؛ فَإِنْ مِنْ
الْطَّوَّلِ الَّذِي يَسْمُو ثَمَانِينَ ذَرَاعًا وَيُسَمِّي «الْجَبَارَ»! وَمِنْهُ الْقَصِيرُ الَّذِي
تَنَاهَى الْأَيْدِيُّ مِنْ قِيَامِهِ وَقَعْدَتِهِ! وَمِنْهُ الْفَلَيْظُ - مِثْلُ الرَّجُلِ السَّمِينِ - الَّذِي
مَا يَحْسَنُ إِلَّا رِجْلَانِ! وَمِنْهُ مَا يُشَبِّهُ الرَّجُلَ النَّعِيفَ^(٢)!

وَيَتَكُونُ عَلَى جَدْعِ النَّخْلِ غَلَافٌ «لِيفِي» خَشْنٌ، يَقِيهُ مِنَ الصَّدَمَاتِ، وَيُرِدُ
عَنْهُ أَذَى الْحَيَوانَاتِ، وَيُفْسَدُ مِنْ وَطَةِ الْمَرِّ وَالْبَرِدِ جَمِيعًا.

وَسَعْفُ النَّخْلَةِ (وَاحِدُهَا: سَعْفَةٌ)، تَتَجَمَّعُ فِي رَأْسِهَا دُونَ سَاقِهَا، وَالسَّعْفَةُ
وَرْقَةٌ مُرْكَبَةٌ رِيشِيَّةٌ كَبِيرَةٌ جَدًّا (٣ - ٦ أَمْتَارٍ)، تُولِّدُ النَّخْلَ مِنْهَا فِي السَّنَةِ
مَا بَيْنَ ١٠ - ٢٠، وَتَظْلِمُ السَّعْفَتَ تَؤْدِيَ وَظَائِفَهَا طَوَالَ بَضْعِ سَنِينَ، قَبْلَ أَنْ
تَجْفَ وَتَفْقَدْ لَوْنَهَا وَتَتَدَلَّ فِي تَعْمِينِ إِزَالَتِهَا بِالتَّقْلِيمِ. وَغَالِبًا مَا يَكُونُ فِي رَأْسِ النَّخْلَةِ
مِنَ السَّعْفَاتِ الْأَخْضَرَةِ مَا بَيْنَ ٣٠ - ١٥٠ سَعْفَةً.

وَالْخُوْصُ (وَاحِدُهَا: خُوْصَةٌ)، هُوَ وَرْقَ السَّعْفَةِ الْمُنْتَشِرِ عَلَى جَانِبِيْهَا،
وَعَدْدُهُ فِي كُلِّ سَعْفَةٍ مَا بَيْنَ ١٢٠ - ٢٤٠ خُوْصَةً.

وَالْعَرِيدُ هُوَ السَّعْفَ الطَّوَّلِيُّ إِذَا جُرِدتْ مِنْ خُوْصَهَا، وَالْعَرِيدَةُ مِنَ النَّخْلِ
- كَمَا وَرَدَ فِي مَعاجِمِ اللُّغَةِ - كَالْقَضِيبِ مِنَ الشَّجَرِ^(٤).

وَيُسَمِّي الْجَزْءَ الْأَدْنَى مِنَ السَّعْفَةِ، أَيِّ قَاعِدَتِهَا، بِالْكَرَبَةِ (جَ كَرَبَ)،
وَهِيَ عَرِيفَةٌ وَغَلِيظَةٌ، يَبْلُغُ طَولُهَا مِنْ ٢٥ - ٥٠ سَمًّا. وَمَا يَتَبَقَّى مِنْ أَصْوَلِ
الْكَرَبِ عَلَى الْجَدْعِ، بَعْدَ التَّقْلِيمِ، يُسَمِّي الْكَرْنَافَ (بِضمِّ الْكَافِ أَوْ كَسْرِهَا)
(وَاحِدُهَا: كَرْنَافَةٌ).

وَيُسْتَفَادُ مِنْ جَذْوَنِ النَّخْلِ، الْمِيَّةِ، أَخْشَابِ الْبَنَاءِ، وَمِنْ أَلْيَافِهِ تُصْنَعُ
الْعِيَالُ، وَمِنْ خُوْصِهِ الزَّنَابِيلِ وَالْقُفَفِ، وَمِنْ أَعْوَادِ جَرِيدِهِ الْأَقْفَاصِ وَالْكَرَاسِيِّ،
هَذَا إِلَى أَنَّهُ يُسْتَوْقَدُ بِالْكَرَبِ وَالْكَرْنَافِ^(٥).

ويقود النخلة ، في نموها الى الأعلى ، ذلك البرعم الطرفي الوحيد في قلب رأس النخلة ، أو الفُرنوّق الانتهائي - كما أطلق عليه مصطلح الشهابي - على حين سماه الأجداد **الجُمّارة** (ج جُمّار)^(١٠) .

وتختلف حول هذا البرعم - الذي هو بالأحرى مجموعة من البراعم - «الأوراق الحديثة في أعمارها ، وأطوالها ، وأنوارها المختلفة ما بين الأبيض الناصع الى الأبيض المخضر ، وبينها الليف يحزمها حزماً محكماً ، بحيث تكون في مجموعها مكبوسة القواعد كبساً شديداً ، تشكل في داخلها كتلة بيضاء هشة ذات عصاره حلوة المذاق ، وتسمى هذه المجموعة بالجمّارة (ويتابع المرجع النباتي المعاصر وصفه) فإذا ارتطمته هذه الكتلة البيضاء بجسم صلب تهشمّت ، أو على الأقل حدث فيها رضوض أو شروخ [صدوع] ، قد تؤدي الى القضاء على البرعم الطرفي ، وبالتالي القضاء على النخلة »^(١١) .

والى هذا المعنى يُشير أحد المصادر القديمة : والنخلة « إذا قطع رأسها ماتت . والجمّار يُشبه الدماغ [في الإنسان] ، في جوهره ، ووضعه ، ومنفعته ! »^(١٢) . وفي اللغة : جَمَرْ : قطع جُمّار النخلة !

ونحب أن ندرج أدناه ما كان نقله صاحب « زهر البستان ونرفة الأذهان » عن بلَدِيَّة الفلاحِي ابن البيصال ، مما يتعلّق بِمشابهة النخل لابن آدم ٠٠٠ يقول العاج الغرّاطي :

« لقد أطرب ابن البيصال في كتابه ، في ذكر النخل ، حتى ذكر أنها تشبه ابن آدم في صفات منها :

« ان النخل تبُت من ظهر النواة ، كما ينبت ابن آدم من ظهر أبيه !

« وذكر أنها تحمل من ذكور النخل ، كما تحمل النساء [من الرجال] ،

« وذكر أن لها وفرة ، ويعني بذلك الليف الملتف على جُمّار النخل الذي لا يفارقه ،

« وذكر أنه يخرج منها الدم ، إلا أنه في قليل منها ، ولا يكون إلا إذا انكسرت ،

« وذكر أن لها عروقاً كثيرة ، كما لابن آدم ،
« وذكر أنها تُصرع وتأخذها العين ، كما تأخذ ابن آدم ،
« وذكر أن طلسمها يبرز في حفاظة ، كما يبرز الجنين في المشيمة ،
« وذكر أن رائحة طلسم فعلها كرائحة المتنبي ،
« وأنه إن قطع أعلاها فسدت ، كابن آدم » (١٢) !

٤ - اتخاذه من نواه :

وتكون فلاحة النخل : زرعاً من نواه ، أو غرساً من الفسائل التي يُفرّخها هذا الشجر حول قواعده .
ويُعد لذلك بأن تُعرث الأرض أولاً ، وتُسوى ، وتُخطط فيها خطوط مستقيمة متوازية ويُحدد موقع العقائر على أبعاد متساوية ، وتُحدث فيها طرق ومساق ومقاصف للمياه .
ويوصيك ابن حجاج الأشبيلي ، أنت الفلاح الزارع :

« احفر حفرة عمق ذراع ، وأملأها تراباً وزيلاً . وخذ نواه ، وأقمها في الحفرة ، يكون شقها قبلة الشرق ، ثم اطمرها بتراب وملح وزيل قليل ، ثم غط مكان الحفرة بورق الشجر ، واستهاحت تنبت ثم اقللها وانصبها » (١٤) .
ويزيد كتاب « مفتاح المراحة لأهل الفلاحة » على ذلك شيئاً ما :

« وما يُزرع من نواه ، ينبغي أن تُعفر له حفائر لطاف ، بُعد كل واحدة من [سطح] الأرض ثلاثة أشبار ، ثم تؤخذ إما ثلاثة نوبات أو خمس أو سبع ، فتُلقي في الماء العذب حتى تتفرق ثم تُجعل في العقائر ، وتُغطى بمقدار شبر مفتوح ، ويُغمر عليها باليد اليمنى ، وتُنسق الماء » (١٥) .

ويشيرون ، في أيامنا هذه ، بأن يكون حجم الحفيرة متراً مكعباً ، وأن يُستبعد ما استخرج من ترابها وتُستبدل به تربة سطعية نظيفة بعد خلطها بما يعادلها من سماد عضوي متحلل ؛ وإذا ما تبين أن ما تحت الحفيرة هو طبقة متماسكة صلبة ، فيجب تفتيتها وتعميقتها ، لتتيح للجذور النفاذ بيسراً .

ويوصي القدماء بالباعدة ما بين النخلات عند زراعتها . وفي الأمثال عندهم : « تقول النخلة للنخلة : ابعدي ظلي من ظلك ، أحمل مثلك حملي وحملك ! » . وتقول النخلة لزارعها : « ضع اختي بعيداً عني وخذ حملها مني ! »^(١٦) .

٥ الأرض المملوحة لفلاحة النخل من النوى :

وقد بدا أن أجدادنا العرب ، وقبلهم الفلاحين الاغريق وغيرهم ، قد رأوا أن الأرض المثلث لفلاحة النخل من النوى ، هي الأرض المalaعة . يقول قسططوس بن لوقا ، البعلبكي (من القرن الثالث للهجرة) :

« أ مثل الأرض لغرس النخل ما كان فيها سَبَخَ ماء وملوحة ٠٠٠ [ويقول] والنخل يألف الملح ، فإذا كانت أرضاً عذبة فينبغي أن يُحفر عن أصله في كل سنة مرة ، ثم يُصب عليه شيء من ملح ، فان كانت أرضه تضارع السباح فلا حاجة الى ذلك »^(١٧) .

وينصح العاج الغرناطي : « ولا يجب أن يُفرّط في تفقده بالحفر والملح ٠٠٠ إلا أن تكون الأرض مملوحة فليُستغن عن الملح »^(١٨) .

ويجاريه ابن العوام ، الاشبيلي - نقلًا عن سماه يونيوس - فينصح بأن يُلقي على النوى التراب مخلوطاً « بسرجين وملح » ؛ ويضيف - نقلًا عن ديمقراطيس - إن من الناس من يحفر ، بعد نبت النواة ، « حواليها ، كل عام ، ويلقي فيها شيئاً من الملح ، لتوّق النخل إلى الملح » .

إلا أنه - أي ابن العوام - ينصل كذلك عن بلديه ابن حجاج : « قال ابن حجاج ، رحمه الله : قد رأيت غراسة نوى النخل ، من غير أن يخلط بتربته ملح ، (٠٠٠) ، تعلق وجاد نقله [ثم يستدرك ، ابن حجاج] إلا أنهم أجمعوا على أن الملح ، والأرض المملوحة ، أفضل له ! »^(١٩) .

وأما المعاصرلون - الذين لاحظوا ما تتمتع به أشجار النخيل من خاصية تحملها للمطرش - فإنهم يقولون أن النخيل يحتاج إلى المياه الوفيرة في موسم

الاثمار ، اي الصيف . ويرون أن التغيل يوجد أيضاً في الأرضي الملاعة ٠٠٠ ووجدوا ، كذلك ، « أن الاختلاف في مقادير الملوحة [في مياه الري] لا يؤثر إلا تأثيراً بسيطاً في سرعة نمو السعف ، ونوعية الثمرة وحجمها » (٢٠) .

وإذن ، فإن ملوحة الأرض ، أو إلقاء ملح في أصل النخلة لدى زراعة النوى أو بعده ، ليس شرطاً لطاء التغيل الجيد !

ومهما يكن من أمر ، فإن علماء اليوم لا ينصحون باستنبات انخل من نواه؛ فقد عرفوا أن الشمار في هذه الحال ، كثيراً ما تأتي ردينة ، وتكون التمور متباعدة ، في الشكل أو الحجم أو اللون .

وقد سبقهم الأوائل إلى تبيّن بعض ذلك ، فقالوا :

« ومن عجيب أمر (التغيل ، أنه) إذا أخذ نوى من نخلة معروفة ، (وزرعت منه) مئة نخلة أو ألف نخلة ، خرجت كل واحدة لا تشبه الأخرى في العمل والأصل ، إلا في النادر ! » (٢١) .

٦ - اتخاذه من الفسائل :

فاما الطريقة المثلث لتكثير النخل (٢٢) ، فإن يتخد من فسائله (واحدتها فسيلة) (٢٣) ، وهي ما تولده النخلة من أفراخ ؛ ويكون نموها من البراعم العرضية حول قواعد أمهاطها ، ولكلها قد تبنت عالية . على الجند فتسمى « الراكوب » (الجمع : رواكيب) .

وقد تحدث الحاج الفرناطي عن نقل الفسيلة - بعد أن تفصل عن أمها وتنفس وتبقى مدة - فقال :

« الوقت محمود لقلع الفرسنة أول شهر فورار [فبراير ، شباط] ، ليأتي فصل الصيف عليها وهي متمكنة بعروقها ، وتخرج قوية .

« وبعض الأكاديرين قال : فصل غرستها أول غشت [آب] ، فإذا أراد [الفلاح] قلعها فليُزل جريدها بمنجل الزبارقة ، ويشد قلبها لئلا يتخلل فيفسد ، ويستأصلها بجميع عروقها ، ويحفر لتلك البنات حُفراً غماقاً ، ثم تُدفن حتى

لا يبقى [منها] إلا شبران لا أقل ، وتنزل فيه البناء ، ويُرد التراب المخلوط بالزيل ومعه شيء من الملح ، وتُستقى على المقام وترغد بالماء (!) إلى خمسة عشر يوماً ، ثم تسقى كذلك . وأما زمان الصيف فأنها تُشمر سريعاً ، ولقد رأيت هذا بالينبوع عياناً » (٢٤) .

ويكون توالي الفسائل خلال عشرين السنة الأولى من عمر النخلة ، ثم تكتَّ .
وتعطي النخلة من ١٠ - ٣٥ فسيلة ، وبعض النخل لا يعطي ولا فسيلة واحدة .
ويحسن أن تؤخذ الفسائل من أم قد تجاوز عمرها السنوات الخمس .

وقد عكف العلماء المعاصرون ، من عرب وأمريكيين ، على دراسة فلاحة الفسائل دراسة معمقة ، فنصحوا بـ« لأن يؤخذ الفسيلة إلا بعد اكتمال نموها (في السنة الثالثة من عمرها ، أو الرابعة) ، فيكون طولها نحو متراً ، وقطرها ما بين ٢٠ - ٣٠ سم ، وزنها في حدود عشرين كيلو غراماً .

ورأوا أن أفضل الطرق لفصل الفسيلة عن أنها أن يُعد ، قبل شهرين من النقل ، إلى « تنظيف » ما حول الفسيلة بأن تُنزع الفسائل الثانية الصفيرة المتولدة فيها ، ويُقْلِم ما على جذعها من الكرناف (أصول الكرَّاب) ؛ وبعدئذ يتم الفصل والنقل في الربيع أو الصيف .

ويتعين أن يباشر ذلك كله عمال أكفاء ، يُحسنون التقليم والمحفر والقطع؛ ويترفبون فيربط الصفين الملوحين من سعفات الفسيلة حول الجُمَّارة لحمياتها ؛ ويُشدّبون جذورها ، مُزيلين المُجَرَّح منها ؛ ثم لا يُغيبون ، من الفسيلة في الحفيرة لدى الفرس ، سوى الجزء الذي كان يغمره التراب وهي بجوار أنها !

وقلما تُنقل الفسيلة من جوار أمها مباشرة إلى المكان الذي يُراد لها أن تستقر فيه ؛ ولكن يُعد إلى غرسها في مكان وسيط ، هو مشتل ، تتوافر فيه العناية البالغة ، وهناك تظل نحواً من ثانية عشر شهراً ، يُتأكد خلالها من أنها شجرة صالحة ، وعندها تُنقل إلى المكان المستديم .

وقد جُرب في بعض أنحاء المملكة العربية السعودية ، أن يحفر حول الفسيلة – وهي لما تزل في حضن أمها – ويفصل بينها وبين الأم ، دون أن يتعرض في ذلك لجذور الأم من الجهة الخارجية ، الوحشية : «إذ من الملاحظ أن الفسائل تكون جذوراً من الجهة الخارجية قبل أن تكون شيئاً في المنطقة التي بينها وبين الأم [الجهة الأنسيّة]» ؛ ثم يُرده عليها التراب ، وتترك سنة ، تحقق خلالها «استقلالاً» عن أمها ، وعندها تتقطع وتتفرق^(٢٥) .

وغني عن البيان أنه تتعذر الاستفادة من الرواكيب (النامية على جذوع النخل) ، لأنعدام الجذور فيها ، لا إذا أمكن تعذيرها !

ولقد أجريت تجارب في ذلك في الولايات المتحدة الأمريكية بأن اشترى كيس ، من مادة صناعية ما ، مفتوح الجانبين على شكل اسطوانة ، يلبّس للراکوب وهو على أمه ، ثم تربط الفتحة السفلية ، ويُملأ الكيس بمشاركة خشب مندّأة بالماء ، وترتبط فتحته الملوية ٠٠٠ فلا تثبت أن تشاهد ، خلال أيام ، الجذور وهي تتبدى من وراء الكيس الشفاف !

وانها لعملية – ان عمت – يسيرة ولهيدة التكاليف ، يشرع بها في الشتاء ، ليصبح الراکوب المتجدّر معداً للغراسة في الربيع التالي .

ولكن علماء اليوم ماضون في تجاريهم في اتجاه آخر : زراعة الأنسجة النباتية ، بهدف تكثير النخيل ، وأملاً في انتاج سلالات منه خالية من الفيروس .

فهم يعاولون أن يزيدوا في عدد الخلايا لهذا النبات ، بتجارب لهم داخل مزارع معقمة ، عن طريق تغليف أعضاء عرضية أو تشجيع نمو الخلايا إلى أجنة عرضية .

فمتي نجعوا في نقل السرير ، المزروع في الأنبوة المعقمة ، إلى التربة ، مع تهيئته لواجهة الظروف الصعبة في الطبيعة ، غدت زراعة الأنسجة الطريقة الفضلية لتكثير النخيل . وهي لا تزال في طور البحث والتجربة^(٢٦) .

٧ - إزهاره :

وزهر النخيل هو **الطلنع** ، الذي يظهر أوله في فصل الربيع ، قريباً من القمة ، ثم يتواتي ٠٠٠

وتكون الطلعة - وهي كبيرة ، طويلة وضيقة على شكل سيف - من وعاء متين ، في داخله المجموع الزهري !

ويسمى هذا الوعاء **الجُف** (ج جُفوف ، أو الكُفْر^(٢٧)) ، والكوز ، والكم ، والجراب ، والخنصر) . وهو صلب أشبه بجلد ، أحضر اللون ، يكسوه زغب كالملعمل . ويراح طوله ما بين ٢٥ - ١٠٠ سم !

وينطوي الوعاء على **الاغريض** (ج أغاريض) ، الذي متى آن للجف أن ينشق عنه ، في شهر شباط ، يرز العرجون على شماريخه الأزهار بيضاً صفيرة نضيدة ، « والنخل باسقات ، لها طلعن فضيد »^(٢٨) .

ويتألف العرجون (ج عراجين) من جملة الشماريخ المتسلية منه . والمرجون من النخل كالعنقود من العنب ! ويراح طوله من ٢٥ سم حتى مترين اثنين . وبعد نمو الشمار في المرجون يسمى **عذقا** (ج عُذوق) ، أو **قِنوان** ، أَو **كِبِيسة** (كِبَاس) .

وأشجار النخيل « **ثنائية المسكن** » ، أي ان الأزهار المذكورة تكون على شجرة المؤنة على شجرة غيرها . ويتبادرن الطلع المذكر والمؤنث ، بأن جُف الأول أقصر وأعرض من جُف المؤنث . وتعطي النخلة الذكر (الفعل) ما بين ٣٠ - ١٠ طلعة ، على حين تعطي النخلة الأنثى من ٦ - ١٨ ، وتعجم أحياناً عن العطاء !

ويتعين اخضاب النخلة الأنثى بلقاح الذكر ، ويكون التلقيح بأن تؤخذ من النخلة الذكر ، لدى بدء انشقاق أكمامها ، عراجين ، تنشر في الشمس يوماً أو يومين ، حتى يتم تفتحها عن حبوب اللقاح ، هذه التي يستفاد منها طوال موسم التلقيح (فصل الصيف) ، كما يمكن خزنها بشرط حفظ مواتية إلى موسم قابل .

ويتم التلقيح (أو التأثير) بأن يتسلق الزارع (المؤبر) النخلة الأنثى ، ويدس شماريخ مذكرة ، بحالها ، في عذوقها ؛ أو ينفض عليها كيساً قماشياً، فيه ما فيه من حبوب الطلع الذكرية ، ومن النفاضة يقع التلقيح ؛ وقد تُستعمل آلة تعفير ، تدفع بغيار الطلع إلى حيث العذوق المؤنثة . وإذا وجد المؤبر أكاماً في النخلة لا تزال مقلقة ، هي تلك التي لا تواجه الشمس ، عمداً إلى شقها في أثناء التأثير !

ويُنصح بأن تجري عملية التلقيح خلال الساعات الثاني والأربعين الأولى من بدء انشقاق الأكمام في النخلة الأنثى . فان لم يكن فخلال الأيام السبعة الأولى . ويتوجب تكرار التلقيح مرة ثم مرة ، ضماناً لبلوغ غبار الطلع تضاعيف المراجين كلها .

وانه ليتفق لأزهار لم يصلها الغبار أن تعمد ، ولكنها تعطي ثماراً أدنى حجماً ولواناً وطعمًا من تلك التي نالها التأثير ، ويأتي معظمها عديم النوى ! وتفيض المصادر العربية القديمة في الحديث عن التلقيح . من ذلك ما حدثنا به ابن العوام الاشبيلي ، عن تجربة له ٠٠٠ قال :

« ذكر[ت] نخلة بريئة ، في المشرق ، حين فتح نوارها ، يisser من الفتحال ، وذررت عليها ، عند ذلك ، ورداً مطعوناً ، فارتبط بعضها رطبباً طيباً ؛ وفعلت ذلك بها مرة واحدة في ذلك العام ، ويجب أن يكرر عليها ذلك مرات ، مرة بعد أخرى ٠٠٠ ٠٢٠ »

وورد في كتاب « مفتاح الراحة ٠٠٠ » :

والنخل « تقبل اللقاح من فعل دون فعل . وقد تحتاج أن تلتحم مرتين أو ثلاثة أو أكثر ، وقد تقبل اللقاح من أول مرة .

« وفي النخل ما لا يقبل (٠٠٠) اللقاح من فعل النخل ، وهذا داء ينبغي أن يعالج منه ، وهو أن تلْقَح (٠٠٠) بالأفواه الطيبة الروائح ، أو بفُقدان الآخر ، أو باطراف اكليل الملك ؛ وينبغي أن تُدخل هذه الأشياء مع كشن الفحولة ، فإنها تقبل بذلك اللقاح » ٠٢١ .

ويزيد مؤلف هذا الكتاب :

وإذا اتفق لفحل النخل أن وجدو سط نغلات مؤنثات ، « غلمن به ، كالرجل حوله النساء ، أو كالتيس حوله المصفايا » !^(٣٢)

٨ - إثماره :

بعد تلقيع النخل ، تثمر أزهاره بلحًا أخضر اللون (واحدته : بلحة) .
« والبلح في النخل بمنزلة العصرم في الكرم » ، كما يقول الدينوري^(٣٣) .

وعند اكتمال نموه يسمى : البُسْنِي (واحدته : بُسْرَة) ، وتتعدد ألوانه بين
أصفر وأحمر وأشقر .

وبداءً من أواخر الصيف ، يدخل في طور النضج ، فهو : الرُّطْبَ (واحدته :
رُطْبَة) ، « وهزَّي إليك بعدن النخلة تساقط عليك رُطْبَةً جَنِيًّا »^(٣٤) .
فيصير الأصفر بني اللون (فاتحًا أو داكنا) ، والأحمر مسوداً .

ويُستساغ أكل بعض أصنافه ، وهو في حالة البُسْرِ ، دون انتظار أن يُرطب؛
ويؤكل ببعضها الآخر ناضجاً مُرْطِبًا ، إلا أن معظم الأصناف تؤكل بعد أن تُقدَّد ،
 فهي التمر (واحدته تمرة) ، وذلك ما يجعله قابلاً للتغذية ، وبالتالي
الاستهلاك طوال العام .

ويمكن النظر إلى ثمر النخل بصفته غذاء كاملاً ، لما يحتويه من مواد سكرية
وبروتين وأملاح وفيتامينات .

وقد رأى القدماء أن « من فضائل النخلة أنها شارك أنواع النبات ،
المقاتلة ، في الاغتناء – وربما كانت أفضل من كثير منها نفعاً ، وربما أصلحت
كثيراً من مضارها – [وهي إلى ذلك] تشارك الفواكه في العلاوة واللذة » !^(٣٥)

ومن أشهر البلاد المنتجة للتمر في العالم : العراق وشبه الجزيرة العربية ،
ومصر ، والسودان ، وتونس ، والجزائر ، وكاليفورنيا !

٩ - ما في ثمرة من غذاء ودواء :

ولقد اهتمى الأوائل إلى الاستطباب - بعد الاغتسال - بثماره (بُسراً ورضايا وتمرأ) ، وبجُماره ، وبطلّعه (حبوباً وقشرأ) ، فبيتوا منافعه الطبية ، دون أن يفوّتهم التحذير مما قد يُسبّبه الاكثار من تناوله ، أو تناول بعضه ، من ضرر يلحق بالجسم !

فالبُسر - عند المشاّب الاغريقي السوري ، ديسقوريدس (القرن الأول الميلادي) - أشد قبضاً من القَسْب . وإذا أكل ، أو شُرب ، « سكن الالتهاب وقوى الحرارة الفريزية » . وقد يُنْبَدِّ ، فيفعل الفعل ذاته . « وطبيخه ، إذا شُرب وحده ، قبض قبضاً شديداً ، وشدّ » (٢٦) .

ويرى الطبيب الاغريقي جالينوس (القرن الثاني الميلادي) أنه ، « في البلدان التي ليست حرارتها بقوية جداً، فإن البُسر لا ينضج ، ولا يصير رطبًا مُسْتَحْكِمًا (. . . فيُضطر أهلها) إلى أن يأكلوا البُسر حتى يفنى ، فيمتلىء بدن من يأكله خلطاً نيناً رديناً خاماً ، ويصيّبهم اتشعرار ونافض ! . . . » (٢٧) .

وأما ابن ماسويه (القرن الثالث للهجرة/التاسع م) ، فيرى أن أكل البُسر يعقل الطبيعة ، ويُولّد قراقر ورياحاً ونفخاً ، ولا سيما إذا شُرب على إثره الماء . والختار منه ما كان هشاً حلواً ، لأنه إذا كان كذلك لم يُبْطِئ في المعدة؛ وإنّ مص ماء البُسر « المنتهي في النضج ، الشديد الهشاشة » ، وإلقاء ثُفله ، هو أحمد من أكله بثُفله ! (٢٨) .

وطبيخ البُسر - عند ابن سينا (ت ٤٢٨ هـ / ١٠٣٧ م) - « يُسْكَن اللهب مع حفظ الحرارة الفريزية؛ والاكتار (منه ، ومن البلح) ، يُولّد في البدن أخلاطاً غليظة » (٢٩) .

ويحدث الرطب - وهو « التمر الطري » ، في رأي جالينوس - في البطن نفحة ، مثلما يفعل التين الطري (٣٠) .

ويرى ابن ماسويه أن غذاء الرطب « أكثر من غذاء البُسر . وأحمد الرطب المهيرون (!) وما أشبهه ، والختار بعده الأصفر ، والمكروره ما اسود ! » (٣١) .

وفي «المنهج ٠٠» أن الرطب «جيد للمعدة الباردة ويزيد في المني ، ويُلْيِن الطبع في المبرودين»^(٤٢) .

وعند التفليسي : «إذا أكل [الرطب] مع اللوز يُكسر ضرره ، وينفع جداً؛ وإذا عُتّق صار أقل رطوبة وأكثر حرارة ٠٠٠»^(٤٣) .

والرطب ، في رأي ابن سينا : «يلين الطبع ويزيد في جوهر المني»^(٤٤) .

والتمر - يتبع جاليينوس بيان ما يرى من «مضاره !» - هو جميعه [تمره ورطبه] عسر الانهضام ، وبعده يُحدث في المعدة تلديعاً؛ وما كان منه كذلك فهو يُحدث الصداع أكثر من غيره! والغذاء ، الذي ينفذ من التمر إلى البدن ، غذاء لا معالة غليظ ، وفيه مع هذا بعض الزوجة ، وذلك إذا ما كان التمر لعميّاً تخالطه حلاوة يُسرع في إيراث السَّدَاد في الكبد ، وإذا ما كان في الكبد ورم أو صلابة أضر بها غاية الضرر ٠٠٠ والمضررة من التمر للطحال عظيمة !!^(٤٥) .

ويزيد على ذلك ابن ماسويه «وللت懋ور إفساد اللثة والأسنان!»^(٤٦) .

ولكن الرازبي (ت ٣١٣ هـ / ٩٢٥ م) ، يتصدى لهذين الطبيبين خاصة (جاليينوس وأبن ماسويه) ، في كتاب كانوا هما دافعه إلى تأليفه ، سماه : «مناقع الأغذية ودفع مضارها»^(٤٧) ، فينصح - في حديثه عن التمر - بأن «يتجنب إداته والاكتثار منه ، من يُسرع إليه الصرع والرمد والقلاع والخوانيق ووجع الأسنان ، ومن به غلَّظ» في كبده أو في طحاله ٠٠٠ [ويستدرك :] وأما المبردون ، ومن لا تعتريهم هذه الأوجاع ، فيُخصبون عليه [ثم يتبع نصيحة :] وينبني ، لن هو ضعيف الأسنان واللثة ، أن يُنسك فيه بعد أكله بماء فاتر عذب ، ويدلك لثته بأصابعه ذلكاً جيداً ، ثم يُمسك في فيه ماء ورد قد نقع فيه سُمّاق ٠٠٠ ليأنس بذلك القلاع والخوانيق ! ٠٠٠»^(٤٨) .

وما تحدث فيه عن التمر ، أيضاً :

«إذا أُنقع في اللبن ، وأخذ ، أنْهَض إنعاضاً قوياً إن أديم أكله وشرب ذلك اللبن ، ولا سيما إذا طُرح في ذلك اللبن شيء من الدار صيني ٠ [ويُحذر

تحذيرًا بالغاً] لكن المحرورين من هذا الفعل على خطر عظيم من العمى والدمامل والصداع والرمد ، ولا سيما في الزمان العار . . .

« وأجود وقت استعماله في الزمان البارد ، فإن [المبرود] سيُخصب عليه بدنه ؛ ويزيد في الباه ، وفي حُسن اللون ، زيادة كبيرة ؛ ويستأصل أمراضًا وأوجاعًا باردة ، إن كانت به ! »^(٤٨)

١٠ - ٠٠٠ وما في سائر أجزاءه :

وفي الجُمَّارة ، ذلك الفُرنوق الانتهائي الذي يقصد النخلة في نموها ، والمُؤلف من أنسجة غضة طرية هشة ، حلوة المذاق ، يزيد وزنها على كيلو غرام أحياناً :

يقول ديسقوريدس : « إذا أُكِل ، وطُبَّخ ، عَمِيل ما يعمل الكُفْرَى ! »^(٤٩).

ويقول ابن ماسويه إنه « يَعْقِل الطبيعة (٠٠٠) بطيء في المعدة يغدو البدن غذاءً يسيراً ، وإن أكثر منه فليشرب بعده المسلح المطبوخ »^(٥٠) .

والدمشقي : « يختم القروح ، وينفع في نفث الدم »^(٥١) .

ويقول ابن سينا في « القانون ٠٠٠ » : ينفع من خشونة الحلق ، يقبض الاسهال والتزف ، ينفع من لسع الزنبور ضِماداً »^(٥٢) .

وفلاحو اليوم يأكلون الجُمَّار ، إما على حاله وهو في غضاضته ، أو يُعدّون منه أكلاتٍ ما :

كان تُقطع الجُمَّارة ، وتُخلط باللحم والبصل والسمن وشيء من التوابي وتطبخ ، فهذه تسمى في العراق بـ « الحميس » :

وقد تُفرم ، ويضاف إليها السكر ، وتطبخ ، فهي « حلاوة الجُمَّار » ؛ وقد تُفرم قطعها في محلول ملحي ، ثم تُرفع منه وترش عليها التوابي ، قبل أن تُحفظ في الخل ، فهي « مخلل الجُمَّار » !^(٥٣)

وغني عن البيان أن ما تؤخذ جُمَّارته من النخل ، هو الفسائل الفائضة ، ما دام استئصال الجُمَّارة يؤدي إلى المضاء على النخلة !

والطائع ، أيضاً ، هو مما يُعتقد به من أجزاء النخلة ويُستَطَبْ .
وينبني التفريقي بين الطلعة قبل انشقاق وعائتها ، وبين ما تتطوى عليه
وهو الوليع ؛ حتى إذا انشق الوعاء (البف ، الكفرى) يبرز الاغریض وعلى
شماريغه الصغيرة الأزهار بيضاً نضيدة ، وذلك قبل أن يتحول – الاغریض – إلى
عرجون تعقد فيه الأزهار ، ويكتمل نموها ثم نضجها ، فهو العذق .
وهناك ما يفرزه طلع النخل من الغبار (أو الدقيق ، أو العبوس) ، وبه تلخص
شماريغ طلع الأشني .

ويرى ديسقوريدس أن ما في الكفرى (وعاء الطلع) من القوة هو مثل ما في
جوفها (الوليع) . على حين يرى جالينوس أن قوة الطلع (بقشره وعثواه)
هي مثل قوة البسمار^(٤) .

وأما ابن ماسويه ، فان الطلع ، عنده ، « يورث ، من أكثر منه ، وجما
في المعدة (٠٠٠) ، ولذلك ينبني أن يؤكل مسلوقاً ؛ ويؤكل بالغردل والفلفل
والزيت والنعنع والص嗣ر (٠٠٠) فان أراد مرید ، أكله تبئاً مع الأطعمة الدسمة
– كالدجاج السمين وشحومه ، والجداء – وشرب بعده النبيت المعтик ! »^(٥) .

ويشبهه أحد القدماء – الياقوتي (!) – بـ « دقيق العنطة » ، ويقول :
« هذا الدقيق ينفع من الباه ، ويزيد من المباضة »^(٦) .

والاليوم يقطفون طلع الأنفعل ، وهو في بداية تفتحه ، ويأكلون الاغریض
غضاً !

ويأكلون ، كذلك ، ما يفيض من حبوب اللقاح ، على حالته ، أو بعد خلطه
بالعسل !^(٧)

والكفرى ، واسمه عند ديسقوريدس : فينكس Phoinix ...
يقول :

« يستعمله العطارون في تعفيف الأدهان . وأقوى الكفرى ما كان طيب
الرائحة عفلاً ، رزينا ، كثينا ، داخله ثمر ؛ وقوته قابضة ، مانعة للقرود
الخبيثة من أن تسuci في البدن

« اذا خلط ، بما ينفي ان يخلط به من الضمادات ، نفع البطن والمعدة
الضعيفة . وينفع من اوجاع الكبد .

« اذا غسل الشعر بطبیخه كثيراً ، اسود .

« اذا شرب طبیخه ، وافق من كان به وجع العصب او وجع الكلی او
المثانة او الأحشاء ٠٠٠»^(٥٨) .

ويرى جاليوسوس ، « في قشور الطلع [الكفرى] ، كيفية قابضة ، الا
أنها تجفف أكثر من جميع ما وصفنا ، من طريق أن قواص جوهر هذا القشر ،
أيضاً في نفسه ، أشد يبساً ، ولا رطوبية فيه أصلاً؛ ولذلك صار الناس ،
باستعمالهم ايام في مداواة الجراحات المتعفنة ، مصيبيين .

« وقد يخلطونه في الأدوية التي تشتد المفاصل الرخوة ، وفي الأدوية النافحة
للكبد ولغم المعدة ، ولما يوضع من خارج ، ويُشرب »^(٥٩) .

ويعد زراع النغل ، اليوم ، في شط العرب ، الى أغلفة الطلع هذه ،
الكفرى ، فيقطّعنها ، وينقّونها في الماء ، ثم يستقررون النقيع ، فيتحصل
لهم سائل فيه من الروائح ما كان في الكفرى . وهو عندهم علاج للاسهال ،
ومسكن لغص الأمعاء ، ويُعطرون به ماء الشرب في فصل الصيف^(٦٠) .

ويحدثنا ابن العوام الاشبيلي حديثاً طريفاً عن خبز كان يختبز من
طلع النغل في الأندلس .

فانه اذا ما شقق قشر الطلع ، اخذما في داخله (الاغريض) ، ويؤخذ
جميعه ، بقشره ، ان كان الطلع رطباً غاضباً ، « ويقطع بالسكاكين ، ثم يُجفف
في الشمس حتى يجف جيداً . ثم يدق ، ويطعن ، ويُعجن دقيقه بخمير من حنطة
او شعير ، ويترك مدة طويلة بعد عجنه . وينبغي ان يُعجن بماء حار وملح كثیر ،
ثم يخبز ، ويُؤكل .

« ومتي سلق بالماء والملح سلقتين ، كان جيداً ؛ وان سلق ثلاث مرات كان
أجود ؛ ويبدل له الماء في كل سلقة »^(٦١) .

وهناك نسخ النخل ، الذي فطن المزارعون ، في المغرب العربي ، على امتداده ، إلى ما فيه من نكمة طيبة المذاق ، سموا شرابه : «اللقة» (أو اللكة ، بلهجتهم) !

وهم ، لاستخراجه ، يقطعون قمة النخلة عند جمارتها ، محدثين في المقطع حفرة ، ما تثبت أن تمتليء بالنسخ المرتشع ، الذي ينساب إلى وعاء قد أحكموا تلقاءها ، وانه ليتجمع في اليوم الواحد ، في أواخر الربيع ، ما قد يتتجاوز المltrات الخمسة حتى العشرين ، على مدى ثلاثة أيام أو أربعين . وهو نسخ عسلى اللون ، حلو ، يشبه طعم الجamar ؛ يشرب طازجا ؛ فان ترك ، تخمر فاسكر (٦٢) .

وبسبب منع بعض السلطات المحلية ذلك ، يتحيل النحالون بأن يُعدوا للوعاء مكانا خفيا في قاعدة النخلة ، وقد يحتفرون له حفيرة يوارونه فيها ، فيقتصر النسخ إليه من عل دون أن تلحظه العيون !

ولأن قطع قمة النخلة يؤدي بها ، فهم يُضخّون ، في استخراج النسخ ، بأفضل التغيل الزائدة ، وبالمسن الذي شح محصوله !

١١ - ما يعتريه من الآفات والأمراض :

يعتري التغيل ما يلحق النبات من الآفات والأمراض الزراعية ، وقد عرّف القديماء ببعضها ووصفو علاماتها ، وقدموا ما تأتي لهم من صنوف العلاج . وقد وقفت ، في جزء مطبوع من كتاب «النبات» للدينوري ، على الضرر الذي يلحق النخل من العرزان ٠٠٠ يقول :

«الجرذ يفسد العرث والنخل : وذلك أنه يقطف السنبل ويدخره في جحر ، ويقطع شماريخ البُسر ! ولا يستنتصرون منه إلا بالماء يدلقونه . وجُرَذ العرث والنخل أضخم من سائر الجرذ !» (٦٣) .

وقد بيّنت الدراسات المعاصرة مدى الأضرار التي توقعها الفئران والجرذان في أشجار النخل ، فهي تقضم جذورها ، وخاصة الفسائل ، في مزارع عربستان (ایران) ، وهذا يؤثر في نمو الشجرة ، و يجعلها عرضة للسقوط عند اشتداد عصف

الريح ! وقد تتسلقها الجرذان فتأكل من ثمرها ، وتلتهم ما ينشق عنه الطبع من الأغاريض، مما حمل النحالين في «مسقط» على أن يلفوا الطبع بعد تلقيعه أماناً له من هذه المخاطر !

وبعيداً عما فصلته المراجع الحديثة، من بيان للأفات التي يلحقها بالنخيل عديد من الحشرات والديدان التي تحفر الأنفاق في الجذوع والجذور ، وتحدث الآخاديد على أغلفة الطبع والمراجين والسعف والثمر ، وتخلُّف عليها ذيولاً من الدبق والأنسجة المنكبوية؛ وكذلك ما تنوشه من ثمارها بعض الحيوانات ، الطائر منها والسائر ، كالزنابير والعصافير والخفافيش والقنافذ وبินات آوى والقردة

قلت : بعيداً عن ذلك كله ، فـانـالـقـدـمـاءـ لـاحـظـواـ بـالـمـاـيـنـةـ الصـحـيـحةـ ، أو هـمـ تـوـهـمـواـ أـمـراـضـأـفـيـأـشـجـارـ النـخـلـ، قد جـمـعـ لـنـاـ أـطـرـافـاـ مـنـهـاـ صـاحـبـ «ـمـفـتـاحـ الـرـاحـةـ» ، وأـطـلـقـ عـلـيـهـاـ ، أـحـيـاتـاـ ، أـسـمـاءـ لأـمـراـضـ إـنـسـانـيـةـ مـضـفـيـاـ عـلـيـهـاـ شـيـئـاـ مـنـ أـوـصـافـهاـ !^(٦٤)

من ذلك أن يعرض للنخل **الفم** ، وعلامته نقص حملها ؛ ويعرض العزن ، أن يبيض **لبّها**؛ **والجذام** ، أن يتعات **كرّبها** ؛ **والبرص** ، أن يظهر على الكرب ما يشبه السورنجان ؛ **والهرم** ، إذا لم تتم تعيل ؛ كما يعرض لها موت **الفجاءة** أيضاً ووصفوا لذلك من العلاجات ما وصفوا ، لأن يقطع قدر من سعفها ، وتوقد حولها نار في النهار، أو ينصب في أصولها الماء العار المالح أو تخلل عروقها بالعديد على نحو يجد فيه الماء والتراب لها منفذأ !^(٦٥)

ويعرض لها **اليرقان** . ومن أسبابه: عطش مفرط ، أو ركود الهواء في توز وآب (يوليو وأغسطس) وعلامته: صُفْرَة **لَبَّها** ، ونقصان خضره جريدها، وإذا شدّحت عروقها سالت منها رطوبة كدرة مائلة الى صفرة وزرقة وانكمش بُسرها بعد يومين

وعلاج **اليرقان** : أن يُخلط الخل بالماء العذب ويسير من دقيق سميد ، ويُصب في لب النخلة ، ويرش على سعفها وفي أصلها ، وقد يُزرع بالقرب منها **الشعير** أو **الخبازى** أو **القرع** !^(٦٦)

ويعرض لها السُّلْ . وله واحد من أسباب ثلاثة : إما من انتهاء عروقها إلى الأرض الصلبة أو إلى حجارة فلاتنفُد فيها ، وإما من العشق (الذي سنذكر علاجه أدناه) . وعلامة السُّلْ : تشقت سعفها ، وعدم الرطوبة السائلة فيها عند قطع بعض سعفها أو عروقها .

وعلاجها : مداومة سقيتها بالماء البارد العذب عند غروب الشمس ، وتسميدها بورق القرع والخُبَازِي (٦٢) .

على أن أعجب ما يعرض للنخلة : **العشق** ، عشقها لنخلة أخرى ! وإذا كان عشق الناس يعالج باجتماع العاشق بالمشوقة ، فإنه كذلك في عشق النخل ! ولدليل عشق النخلة : ميلها إلى جهة النخلة المشوقة ، وخفة حملها ، وهُزُّها من غير ما سبب ظاهر !

وعلاج هذا المداء - زعموا ! - يكون بأحد هذه الأدواء :
أن يُلقى شيء من قلب المشوقة - من طلعها - في قلب العاشقة !
أن تُعلق سعفة من المشوقة على العاشقة .
أن تُلْقَى أربع سعفات من سعف المشوقة على أربع جهات العاشقة .
وربما شُدَّ حبل بين العاشقة والمشوقة !
أو يُجْعَل حجر مرير في قلب المشوقة ثلاثة أيام ، ثم يُنْقَل إلى قلب العاشقة ! (٦٣)

١٢ - فسائل نخلية أخرى :

ذلك عن النخيل الذي عرفه العرب منذ القديم .
ولكن المصادر العربية ، وكذلك المعجمات العلمية الحديثة ، تتحدث عن أصناف أخرى من النخيل ، تشاركه في انتسابه وفي خُصُوصه وسعفه ، دون سائر أوصافه .

ولعل أشهر هذه الفسائل النخلية: **النَّارَجِيل** (من الفارسية ، والأصل سنسكريتي) ، ويسمى أيضاً : **الرَّانِيجُوكُوكُور** ، وأسمه العلمي **Cocos nucifera**. فيه أنواع للتزيين ، ونوع مشمر مشهور ثرته : **جوز الهند!** (٦٤)

ومنها الفَوْقَل ، أو الكَوْثَل Catechu : نخلة مثل النارجيل ، تحمل كباقي فيها الفوفل ، مثل التمر ، ف منه أسود وأحمر ، وهو ثمر طبی سماه العرب: جوزة الكوثل ، وليس من نباتات العرب .
والدَّوْم ، أو المُقْلُ Hyphaene thebaica . وربما كان المقل صمعه (٧٠) ، وهو ما يُستطُب به .

وذكرت المصادر العربية : الكاذي: شجر دون النخلة طولاً؛ وبطأله - قبل أن ينشق - يُطَيِّب الدهن ، فيكتسب رائحة ، ويسمى به دهن الكاذبي . وعرفته المعجمات الحديثة Pandanus odoratissi ، من الفصيلة الكاذبية ، ولزوره رائحة جميلة ، وهو كثير في الهند والصين ، ويوجد منه في اليمن .
وعرفت المعجمات العلمية بفصائل نخلية أخرى :

نخل الأَدْغَال Chamaerops ، جنس شجر للتزيين ، مبذول في البلاد الحارة ؛
نخل الدقيق Sago palm ، وهو أنواع مختلفة ، منها ما يُستخرج من لب جذوعه
نشأ منذ يسمى الساغو ؛

نخل الدهن Elaeis guineensis ، يستخرج من ثمرة زيت أصفر ، يستعمل في صناعة الصابون والشمع ؛

نخل النَّبِيَّذ Wine palm ، يستخرج من ثمرة ، أو نسفة ، نوع من النبيذ ؛

النخلة الزباء Acrocomia ، سميت زباء الرأس لكثرة الأسدية في رأس شجرتها (٧١) ؛

نخلة المِسْدَرَة Thrinax ، اسمها العلمي من المِسْدَرَة ذات ثلاث الأصابع ، تشبهها لورقتها بالذراء ؛

فضلا عن : نخل العجل Oreodoxa ، ونخل الجوز Caryota .
ونخل الشمع Ceroxylon andicola .

١٣ - ٠٠٠ والنخلة الأولى في الأندلس :

بالحديث عن تلك النخلة الأولى ، المنتصبة في رصافة قرطبة ، بدأنا بحثنا .
ونختتمه برواية الأبيات التي أنسدھا فيها الأمير عبد الرحمن ، قال :

تبعدت لنا ، وسط الرصافة ، نخلة
فقلت : شبيهي في التغرب والنوى
نشأت بارض انت فيها غريبة
سقتك غوايي المزن من صوبها الذي
يسعّ ويستمرى السماسكين بالوبل^(٧٢)

وبعد تلك النخلة - التي يظن أنها الأولى التي زرعت هنالك ، أو هي الأولى التي أنسد فيها شعر عربي ! - عمت زراعة النخيل أرجاء الأندلس الإسلامية ، وقد وجدت فيها التربية المواتية ، حتى لقد سميت احدى المدن ، في جزيرة من الجزر الإسبانية تلقاء سواحلها الشرقية : **بالمادي ميورقة Palma de Majorca** (أي : ميورقة النخيل !)^(٧٣) .

مشق - فاضل السباعي



□ **المواشي :**

- ١ - ترجمة الدكتور احمد الاشقر ، ومراجعة وتعليق الدكتور محمد نذير سنكري (منشورات معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب ١٩٨٥) ص ١٤٢ ، وتكرر في ص ٢٦٥ .
- ٢ - رواية ابن سعيد الاندلسي (من اهل القرن السابع الهجري) في «تفتح الطيب من غصن الاندلس الرطيب» . (تحقيق الدكتور احسان عباس ، دار صادر بيروت ١٩٦٨) ٤٦٧:١ .
- ٣ - قصة العضارة ، (الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية ، طبعة مصورة عن الطبعة الاولى ، بيروت ، ٢٠٠٣م ، دم. ٢٩٦:١٣) .
- ٤ - علمت ، قيل فراغي من مسودة البحث ، ان الكتاب قد حقق ونشر في اسبانيا ، اخيراً . ولم يتع لي الاطلاع عليه منشوراً بعد . ولكنني راجعت مصورة مخطوطته ، التي اهداينها مشكوراً المستعرب الإسباني الدكتور خيسوس روبي سالينو أيام كان سفيراً لبلاده يتحقق .
- ٥ - بعد فراغي من مسودة البحث عمل الى البريد ، من اكاديمية المملكة المغربية بالرباط ، اصدارها الجديد التقينis : عمدة الطبيب في معرفة النبات ، وقد نسبه الباحث محمد العربي الفطاطي الى أبي الغير الشيشلي (من علماء القرنين الخامس والسادس للهجرة) . وهو ، بالآخر ، مجمع ضخم (من مجلدين في الف صفحة) ، يعرّف جميع النباتات . ويداً ان صالحه - كما يقول المستعرب الإسباني (سين باللوبوس) - كان سباقاً الى ابتكار نظام للتصنيف النباتي هو القرب من غيره الى نظام التصنيف العددي ، ١٤:١ .
- ٦ - التوصيف: تصنيف الاشياء وبيان انواعها او صفاتها .
- ٧ - مفتاح الراحة ٠٠٠ : ١٨١ .
- ٨ - لم انه استمع ، في عصرنا ، لفظ «الجريدة» ، وطلق على الصحفة اليومية ١

- ٩ - يروي أن اعرابياً مثل : « ما مالك ؟ » ; فاجاب : « التغل ! جلعنها بناء ، وليتها رشاء [أي حبال] ، وخصوصها آناء ، وكربها صلاه ، وسفتها ضياء ، وحملها قذاء » ١
- ١٠ - معجم الشهابي في مصطلحات العلوم الزراعية (اتكلزي - عربي) مادة Terminal buds . والفرقون في اللغة : النام المستتر من النبات . ومن عاني الكلمة أيضاً : طائر مائي اسود (او ايضن)، والكركي، والشاب الابيض الجميل ، والفضلة من الشعر المفتلة ٢
- ١١ - احمد ، د. حسين فتحي ، و د. احمد سعيد القحطاني ، و د. يوسف امين والي : « زراعة التغيل وانتاج التمور في العالم العربي والاسلامي » (طبعة جامعة عين شمس ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م) : ٦٨ و ٦٩ ٣
- ١٢ - مفتاح الراحة ٤٠ : ١٨١
- ١٣ - زهر البستان ونزة الانهان (مخطوطة بلدية فربطة) ، اللوحة ٧٥
- ١٤ - المقتنع في الفلاحة ٤٠ : ٤٥
- ١٥ - مفتاح الراحة ٤٠ : ١٨٠
- ١٦ - المرجع السابق ٤٠ : ١٨٠
- ١٧ - الفلاحة الرومية ٤٠ : ٩٦ و ٤٧
- والسبخ : الakan يظهر فيه الملحق وتتوسّخ فيه الأقدام ٥
- ١٨ - زهر البستان ٤٠ : اللوحة ٧٩
- ١٩ - كتاب الفلاحة ، لابن العوام ٢٤٤١ و ٤٥
- والسرجين (او السريين) : الزيل ٦
- قلت: وقد لاحظت ان ما ورد في نص « المقتنع في الفلاحة» (المحقق والمطبوع في عمان ١٩٨٢) متباين ومنافق لما نقل ابن الصوام؛ وتکملة نص « المقتنع ٤٠ » - وقد استشهدنا بمقتطفاته اعلاه - ٧٠ وانتصبا في ارض مالحة : فإن لم تكن مالحة ، فالق في العقرة ملحاً ، وتعاهدا كل سنة بالملح ، فإن التغل يوجد به ، ٤٥ وهذا يدعو إلى التأمل ١
- ٢٠ - خليفة ، د. طاهر ، و د. محمد زيتى جوانة ، ومحمد ابراهيم السالم : « التغيل والتمور بالملائكة العربية السعودية » (وزارة الزراعة والمياه ، الرياض ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م) : ١٠٤ و ١٠٧
- ٢١ - مفتاح الراحة ٤٠ : ١٨١
- ومع ذلك ، فإن انتشار زراعة التغيل في انحاء افريقيا على يد العرب ، إنما كان من نوع التمر - لا الفسائل ٢
- زاده الذي كانوا يحملونه في فتوحاتهم ، وفي هجراتهم بعد ذلك ٣
- ٢٢ - جرت بعض المراجع العديدة على أن تستعمل ، هنا ، نفط التكاثر ، مصدر الفعل اللازم : تكاثر ، الذي يفيد تكاثر التغل من تقاء ذاته : على حين أن المقصود هو التكثير (او الاكتثار) بفعل الغير ، من الفعل المتعين : كثثر (او اكثر) ٤
- ٢٣ - وهي ايضاً : الرائد ، والشكبي ، والخلف ٥
- ٢٤ - زهر البستان ٤٠ : اللوحة ٧٥
- ٢٥ - التغيل والتمور ٤٠ : ٩٠ و ٨٩
- ٢٦ - زراعة التغيل ٤٠ : ٧٥-٧٧١ : ٩٢
- ٢٧ - او الكافر ، او الكافور ، لانه يكفر ما في داخله ، اي يغطيه ٦
- ٢٨ - سورة ق ، الآية : ٩ و ١٠
- وفي معجم الوسيط : ان ما يشتق منه الطلع من العبيبات البيض ، هو الاغريض ؟ فإذا ما كان الطلع في
وعاته كانه نظم لولو في شدة بياضه ، فهو : الوليع (واحدته : وليعة) ٧

٢٩- الأنفاس : ٤٤

٣٠- فلاح ابن العوام ١: ٣٦٩

وقوله في المشرق ، لعله يعني : مشرق الأندلس ؛ وابن العوام من أشبيلية ، الواقعة في جنوب الأندلس إلى غرب على مقربة دائنة من ساحل بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) ١

والفعال : ذكر النخل ، وج فعاجيل ١

والطريف في «تجربة» هذا العالم الأندلسي ، أنه ذر على الأزهار المؤنثة ، مع غبار الطلع ، ذروه ورد ١
وقد ذكر تجربته هذه في باب يتعلق بدراسة الأشجار في الأندلس ، التي منها النخل : ثم عاد فروها ، يمعناها ، في
باب عن « تذكرة الأشجار » ، ٧٩٥٧٢: ١

٣١- « مفتاح الراحة » : ١٨٢

والألواه (وادحتها) : فوه ، جرج (أفاريده) : التوابيل ونوايس الطيب .

والآخر ، نبات مشبب ، اسمه العلمي *Andropogon schoeathus* ، يسميه الشهابي : آخر العرب .
يقول ابن سينا : إن لفقاره (والفقاراه هي الزهرة حين تفتح) رائعة تشبه في طيبها رائحة الورد ، « القانون في
الطب » ، ٢٤٧: ١

وأكليل الملك *Melilotus officinalis* : نبات لونه - كما يقول ديسفوريدس - « إلى لون الزعفران ، طيب
الرائحة » ، ابن البيطار « جامع المفردات » ، ٥٠: ١ . وبضميف الطيب القوسوني المصري : « سمى أكيليل
الملك ، لأنه كان يعتقد منه أكيليل يضعها الملوك على رؤوسهم » ١ . « قاموس الأطبا وناموس الإلبي » ،
ولعله يعني بـ كشن الفولولة الشماريخ الذكرية ، أو ما تعب فيها من غبار الطلع ١ وقد ورد هند ابن العوام :
« ٠٠ لا بد من تلقيح النخل يكتفى نخلة ذكر » ، « كتاب الفلاحة » ، ٥٧٦: ١

ويلاحظ أن في ما يبديه كتاب « مفتاح الراحة » ، المشرفي ، تابيدها تجربة ابن العوام ، في الأندلس ، الذي
كان قد استعمل ، في تذكرة أناث النخل ، يدروه الوردة (اعلاء) ٠

٣٢- « مفتاح الراحة » : ١٨١

وغلم غلمة : اشتلت شهوته للجماع .

والصافايا (صفي ، صفيها) ، هنا : ما يستصفيه التيس لنفسه من أناث الماعز ١

٣٣- أبو حنيفة الديينوري ، في كتابه : « النبات » ، الصالح معظمه (عن « جامع المفردات » ، ١١٢: ١) ١

٣٤- مریم : ٢٥

٣٥- « مفتاح الراحة » : ١٨٧

٣٦- « جامع المفردات » ، ٩٤: ١

والقتسب (وهرفت في النص المطبوع : العشب) : التمر اليابس .

٣٧- « جامع المفردات » ، ٩٤: ١

٣٨- « جامع المفردات » ، ٩٤: ١ و ٩٥

ويوحنا (أو يعي) بن ماسوبيه ، أصله من جنديسابوره درس الطب في بغداد . وجعله الخليفة العباسي المأمون ،
في سنة ٢١٥ هـ ، رئيساً لـ « بيت الحكم » . توفي ٢٤٣ هـ / ٨٥٧ م .

٣٩- « القانون » ، ٢٢٠: ١

٤٠- « جامع المفردات » ، ١٤٠: ٢

٤١- « جامع المفردات » ، ١٤٠: ٢ : و « المعتمد في الأدوية المفردة » ، ١٨٧

٤٢- « جامع المفردات » ، ١٤٠: ٢

ومؤلف « منهج البيان فيما يستعمله الإنسان » هو ابن جزلة ، يعني بن عيسى ، طبيب وفيلسوف عراقي . كان
نصرانياً ثم اسلام . وله أيضاً : « تقويم الأبدان » . ت ٤٩٣ هـ .

- ٦٣ - المتعدد .. ١٨٧ .
 والتقلisi هو : حبيش بن ابراهيم بن محمد ، طبيب من آثاره : « تقويم الادوية » و « تحصيل الصحة بالاسباب
 والستة » ت حوالي ٦٠٠ م .
 ٦٤ - القاتلون .. ١: ٤٣٠
 ٦٥ - جامع المفردات .. ١٤٠:١
 والستند والستداد : جسم غريب يسد وعاء دمويا ، وهو ايضا : داء يأخذ في الانف يمنع من الشم وتنسد البرىء .
 ٦٦ - جامع المفردات .. ١٤٠:١
 ٦٧ - وقال ، في ما دعاه الى تصنيفه :
 « رأيت ان اؤلف كتابا في دفع مضار الاذية ، تاما ، مستقصى ، ابلغ واشرح مما عمله الفاضل جاليتوس ،
 فانه سها وغلط في كثير من كتابه في هذا المعنى ولم يستقص في كثير منه ؛ ولا سيما يعني بن ماسويه ، فانه
 اضر بكتابه الذي عمله في هذا الفرض اكثر مما نفع »
 مقدمة الكتاب : ١٧
- ٦٨ - منافع الابوية ودفع مضارها : ٢٢١ و ٢٢ .
 ٦٩ - جامع المفردات .. ١٤٨:١
 ٧٠ - جامع المفردات .. ١٤٨:١
 ٧١ - جامع المفردات .. ١٤٨:١
 والمشقى هو : مسيح ، عيسى بن الحكم . ولد يدرسق ، وخسم يقصد الخليفة هارون الرشيد . اهم كتبه
 « الكناش » في الطب ت بعد ٢٢٥ م / ٨٣٩ م .
 ٧٢ - القاتلون .. ١: ٢٨٥
 ٧٣ - زراعة التغيل .. ٥٦ و ٦٥ .
 ٧٤ - جامع المفردات .. ١٤٣
 ٧٥ - جامع المفردات .. ١٤٣
 ٧٦ - جامع المفردات .. ١٤٣
 ٧٧ - زراعة التغيل .. ٥٦٥
 ٧٨ - جامع المفردات .. ١٤٣:٢ و المتعدد .. ١٤٣:٢ ٤٢٧ .
 وتفصي الأهان : معالجتها على نحو تسبیح فيه ذات مرارة وتقىضی .
 ٧٩ - جامع المفردات .. ٧٥:٤
 ٨٠ - زراعة التغيل .. ٥٦٥ : (نقل منه عن : البكر ، عبدالجبار : « نحلة التمر » ، ماضيها وحاضرها والجديد في
 زراعتها وصناعتها وتجارتها) ، مطبعة العائلي بيتداد ، ١٩٧٧ .
 ٨١ - فلاح ابن العوام .. ٣٤٦:١
 وبصفيف مقتضاها لل فلاحين تعليمها :
 « وهكذا يعمل في (٠٠٠) الشوار التي تشبيه ، قبل اتخاذ الغizer منها [] : تسلق سلقتين يملأه العلب والملحق ،
 او يملأ وحده : ويكون الماء وحده لما هو مقص شديد القبض ؛ وما شباب طعمه مرارة او طعم آخر ، فالماء
 والملحق »
 ٨٢ - زراعة التغيل .. ٥٦٥ و ٦٦ : (نقل منه عن : « نحلة التمر » .. ٠٠٠) .
 ٨٣ - كتاب النبات ، الجزء الثالث والنصف الاول من الجزء الخامس (تحقيق المستشرق برنهارد لفين ، فيسبادن
 ١٩٧٤ ، مطبوع دار القلم ، بيروت) : ٣ .
 والعرج : الزرع .

٦٤ - « مفتاح الراحة » : ١٨٢-١٨٥ .

٦٥ - اللتب ، عند الفيروزابادي ، من التفل والجوز ونحوه : قلبها . وهو ، هنا ، غير العمارة .
والسوبرنجان ، عند ابن البيطار : ثبات يطلع ذهراً أبيض شبيهاً في شكله بزهر الزعفران .

٦٦ - « مفتاح الراحة » : ١٨٤ .

٦٧ - « مفتاح الراحة » : ١٨٤ و ٨٥ .

٦٨ - « مفتاح الراحة » : ١٨٣ .

٦٩ - ويزيدنا الدينيوري به تعريفاً :

« الناجيل : نفلة طويلة تتدلى منها حتى تتدلى من الأرض ، لينا : ولها الثان ، ويكون في القنة الكريم منها
ثلاثون نارجيلة ؛ ولها ثين يسمى الطوقان .

ـ فإذا أراد أحد لبعها ، ارتقى المرتفق إلى دروتها ومسك كيزان ، فنظر إلى طلقة من طلعنها قبل أن يعتقد ،
فيشق طرفاها مع قضيب الوليع ، ثم يلقطها الكوز ، وبعلقه في العرجون ، ثم يفعل كذلك في سائر طلعنها . ولا
يزال اللبين ، من ذلك الطلع ، يقتصر في الكيزان قطرًا تسممه من تحتها ١ .

ـ حتى إذا كان المشاء ، وصعد إليها ، وجد في كل كوز منها الأرطاف : فيشرب من ساعته ، حلوًا غليظاً طيباً
كانه لين الصنان ؛ يسكت سكرًا ممتنلاً ، ومتى يربت شاربه إلى الربيع الفرم عليه السكر .

ـ فإن يبقى شيء منه إلى اللند ، خلله ، وصار كالافت خل ، يطغى به لحوم الجوايس ، فتنتضج ٢ .

ـ « مفتاح الراحة » : ١٨٩ و ٩٠ (نقلًا منه من « كتاب النبات ») .

٧٠ - وفي اللغة : الدوم أيضًا : ضفان الشير ، ما كان ؟

٧١ - واحدتها : السداة : الضسو الذيكي في الوجهة .

٧٢ - ياقوت الحموي : « معجم البلدان » (طبعة مصورة ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ١٩٧٩) ٤٨:٣ .

ـ وفي ذلك يشهد ويل ديورانت : ٧٣

ـ ٧٤ - واستعملت جزيرة ميورقة ، التي تفتحها العربي في القرن الثامن [الميلادي] (وهي وجه التحديد سنة
٧٤ هـ) ، يفضل عليهم بالزراعة وعثائهم بها ، فردوسا مليئاً بالفاكهات والازهار ، تشرف عليها أشجار التفيل ،
التي سميت العجزة باسمها فيما بعد ٣ .

ـ قصة الحضارة » . ٧٤:١٣ .

مراجع البحث :

أولاً - المصادر (مسلسلة حسب أزمان مؤلفيها) :

١ - الدينيوري - (يو حنيفة ، أحمد بن داودة (توفي حوالي ٢٨٢ هـ) : كتاب النبات (الجزء الثالث والنصف الأول من
الجزء الخامس) ، تحقيق : المستشرق الألماني برنهارد لفين ، الطبعة الأولى ، فيسبادن (المانيا) ، دار نشر
فرانز شتاينر ، ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م .

٢ - قسطنطين بن لوقا الببلuki (ت بعده ٣٠٠ هـ) : الفلاحة اليونانية (أو : الفلاحة الرومية) ، نقله إلى العربية
سرجس بن هليا ، القاهرة ، ١٤٩٣ هـ / ١٨٧٥ م .

٣ - الرانني - (يو بكر محمد بن زكريا (ت ٣٢٠ هـ) : منالع الأغذية ودفع مضارها ، مراجعة ده عاصم عيتاني ،
الطبعة الثالثة ، بيروت ، دار إحياء التراث ، ١٩٨٥ .

- ٤ - ابن سينا - أبو علي ، الحسين بن علي (ت ٤٢٨ هـ)؛ القانون في الطب (ثلاثة أجزاء) ، بيروت ، دار صادر
 (طبعة مصورة عن طبعة بولاق ، القاهرة ١٩٩٤ هـ / ١٨٧٧ م) ، د ت .
- ٥ - ابن حجاج الاشبيلي - احمد بن محمد (هـ ٤٦٤)؛ المتن في الفلاحة ، تتع صلاح جرار وجاسوس ابو صفيه ،
 الطبعة الاولى ، عمان ، مجمع اللغة العربية الأردني ، ١٩٨٢ .
- ٦ - الحاج الغزناطي - ابو عبد الله ، محمد بن مالك الطفري (هـ ٤٨٠) : ذهر البستان ونزة الالهان (مخطوطة
 مكتبة بلدية الرطبة) .
- ٧ - ابن العوام - ابو ذكري ، يعمر بن يحيى بن محمد بن احمد بن الاشبيلي (القرن السادس للهجرة) : كتاب الفلاحة
 (او الفلاحة في الأرضين) ، مدريد ، وزارة الخارجية الإسبانية (طبعة مصورة عن طبعة مدريد ١٨٠٢ / ١٩٨٨) .
- ٨ - ياقوت الحموي - شهاب الدين ابو عبد الله ، ياقوت بن عبد الله (ت ٦٢٦ هـ) : معجم البلدان ، بيروت ، دار احياء
 التراث العربي (صورة من طبعة مصر) ، ١٩٧٩ .
- ٩ - ابن البيطار - ضياء الدين (يو محمد ، ضياء الدين بن احمد الماتقي (ت ٦٦٦ هـ) : الجامع لمردفات الأدوية والأضدية
 (اربعة اجزاء في مجلدين) ، دار المدينة (صورة من طبعة بولاق ، القاهرة ١٢٩١ هـ / ١٨٧٥ م) ، د ت .
- ١٠ - الفساني - الملك المنظر يوسف بن عمر بن علي بن رسول (ت ٦٩٤ هـ) : المعتمد في الأدوية المفردة ، (مصورة
 عن طبعة القاهرة ١٩٥١) ، بيروت ، دار القلم ، د ت .
- ١١ - مؤلف مجهول (القرن الثامن للهجرة) : مفتاح الرأمة لأهل الفلاحة ، تتع دـ محمد عيسى صالحية و دـ احسان
 صالح العمد ، الطبعة الاولى ، الكويت ، المجلس الواعظي للثقافة والفنون والآداب ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م .
- ١٢ - الحميي - محمد بن عبد الله (ت ٤٠٠ هـ) : الروض المطار في خير الاقطان ، تتع دـ احسان عباس ، الطبيعة
 الثانية ، بيروت ، مؤسسة ناصر للثقافة ، ١٩٨٠ .
- ١٣ - المقري القلمصاني - احمد بن محمد (ت ١٤٠١ هـ) : نفح الطيب من غصن الاندلس الروطيب (سبعة مجلدات
 والثامن فهارس) ، تتع الدكتور احسان عباس ، بيروت ، دار صادر ، ١٩٦٨ ، (المجلد الثالث) .
- ١٤ - القوصوني المصري - مدين بن هيدالرحمن (ت بعد ١٤٤٦ هـ) : قاموس الاطبا وناموس الاليا (جزءان) ، الطبيعة
 الاولى ، دمشق ، من مصادرات مجمع اللغة العربية ، ١٩٧٩ و ٨٠ .

ثانياً - المراجع :

- ١٥ - قصة الحضارة : ويل دبورانت ، بيروت (مصورة من طبعة الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية) ، د ت ،
 الجزء ١٣ .
- ١٦ - معجم الشهابي في مصطلحات العلوم الزراعية (التكليلي - عربي) ، اعداد احمد شفيق الخطيب ، الطبيعة الثانية،
 مكتبة لبنان ، ١٩٨٢ .
- ١٧ - الابداع الزراعي في بدايات العالم الاسلامي : دـ انطونيو واطسون ، ترجمة دـ احمد الاشقر ، مراجعة
 دـ محمد نذير سنكري ، الطبعة الاولى ، حلب ، معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب ، ١٩٨٥ .
- ١٨ - زراعة التغليل وانتاج التمور في العالمين العربي والاسلامي : دـ حسين فتحي احمد ورفيقاه ، القاهرة ، مطبعة
 جامعة عين شمس ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م .
- ١٩ - التغليل والتمور بالملكة العربية السعودية : دـ طاهر خليفة ورفيقاه ، الرياض ، وزارة الزراعة والمياه ،
 ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .

غمدان

أول ناطحة سحاب في العالم

مطهري علي الأرياني

تتعدد معلومات المراجع العربية عن (قصر غمدان) ، وقد توسيع في ذكره كل من المسعودي في مروج الذهب ، والنويري في نهاية الأرب وياقوت في معجم البلدان والبكري في معجم ما استجمم والألوسي في بلوغ الأرب ، وذكره أيضاً عدد من المراجع التاريخية والبلدانية والأدبية وحتى المعاجم اللغوية .

وحيث هذه المصادر عن (غمدان) يجمع بين الحقائق التاريخية الناصعة ، وبين بعض الجوانب الميثولوجية التي تقترب عادة بكل عمل قدر من أعمال الإنسان ، في بينما تذكر الروايات القائلة بأن سام بن نوح هو مؤسس (غمدان) وبانيه ، وتلك القائلة بأن جن سليمان هم الذين بنوه للملكة بلقيس ، تجد بعضها يقترب من الحقائق التاريخية فيروي ياقوت عن ابن الكلبي شيئاً مما له مصداقته في ما لدينا من أصح المراجع وأصدقها وهي نقوش المسند اليمني القديم ، وذلك حين يقول : « قال هشام بن محمد بن السائب الكلبي : إن ليشرح بن يحصب أراد اتخاذ قصر بين صنعاء وطيبة ، فاضطر البنائين والمقدرين ليقدروه ، فانقضت على الخيط حداً فذهب به فاتبعوها حتى ألقته في موضع غمدان فقال ليشرح : أبنوا القصر في هذا المكان » .

(*) باحث ومؤرخ وشاعر من اليمن .

واسم الملك المذكور في الفقرة ، وطبقاً لنقوش المسند هو (إليه شرح يُخَضِّب) و (طيبة) اسم مكان غير معروف ، ولكن النص يذكر اسم هذا الملك الذي نجد أن ما بآيدينا من نقوش المسند حتى الآن تذكره كواحد من الملوك الذين تقترب أسماؤهم باسم (غمدان)، وهذا يدل على أن في المؤرخين القدامى من كان يقرأ نقوش المسند .

أما أوسع حديث عن (غمدان) فجاء في مؤلفات لسان اليمن العسن بن أحمد الهمداني ، وخاصة في الجزء الثامن من كتابه الأكليل ، وأهمية كلام الهمداني تأتي من أنه مؤرخ يمني ، والميمونيون أعلم بتاريخ بلادهم ، ثم أنه من قدماء المؤرخين – (٢٨٠ - ٣٦٥ هـ) أي قبل ما يزيد عن ألف عام ، رغم أن غُمدان لم يعد له وجود في عصره .

والهمداني يذكر رويات الخبراء الاطلبيين التي تقول : إن أول من أسسه وابتدأ بناءه ، هو سام بن نوح ، كما يشير في مكان آخر إلى حكاية الجن ولسيمان وبليقيس ، ولكنه سرعان ما ينصرف عن ذلك ، ويدرك أول ملك يقترب اسمه بـ (غمدان) حيث يقول :

« أول قصور اليمن وأعجبها ذكرأ ، وأبعدها صيتاً قصر غمدان في صنعاء .. وكان - الملك - شعرم أوتر - هو الذي وصل ببنيان القصور وأحاط على صنعاء بسور » . والملك شعر أوترم ، أقدم من إلهي شرح يحضب الثاني الذي ذكره ابن الكلبي وياقوت والهمداني أيضاً .

وما ذكره الهمداني حول الملوك وغمدان ، يتواافق مع ما بآيدينا من نقوش المسند حتى اليوم ، فشعرم أوتر هو أول ملك يرد ذكره مقترباً بغمدان ، ونقوشه تحدثنا عن انهماكه في البناء والزخرفة والأعمال الهندسية العظيمة التي حد انصرافه عن بعض الواجبات مما يلزمها التقرب إلى الإله وطلب الففران لهذا الانهماك .

ويقول الهمداني : « وكان غمدان عشرين سقفاً غرفاً بعضها على بعض ، وكان بين كل سقفين عشرة أذرع .. وكانت له أربعة أبواب في تربيعه ، وجهه مبني بحجارة بيض ، وجاه بحجارة سود ، وجاه بحجارة خضر ، وجاه بحجارة حمر .

وكانَت غرفة الرأس العليا مجلس الملك اثنتا عشر ذراعاً ، وكانت الغرفة تحت سقف وبيضة – قبة – من الرخام مؤلفة من ثمان قطع، وكانوا يثقبون – يشعّلون فيها الشرج فترى من رأس عجيب مرتفع جبلي على بعد نحو خمسين كيلو متراً شمال صنعاء – وفي كل ركن من أركان القصر عند ترايبيه أسد من نحاس رجاله في الدار وصدره ورأسه خارجان من القصر ، وكل أسد – مغض ما بين فيه إلى أسفله عن حركات فيه مدبرة ، وكانت الريح إذا هبت تتعدد في أجواء تلك الأسود فتذار عنها ، وكان كل أسد يذار لهبوب الريح من الجهة المداربة له فإذا تناوحت الريح زارت كلها ، وكانت في الغرفة العليا ستور فيها أجراس إذا ضربت الرياح تلك المستور تسمع الأصوات لتلك الأجراس من بعيد .. وكان الملك إذا استلقى في غرفته ومر به الطائر يستطيع أن يعرف الغراب من العدّة من خلف الرخام ، وكان محظياً بأطاوئ الرخام والمرمر بين كل طابق وأخر « وكان كثيراً ما يتعمم النمام لارتفاعه وارتفاع مدينة صنعاء »

وذكر الهمداني في الجزء الثاني من الأكليل رأياً آخر يعود بذكر بناء (غمدان) إلى زمن أقدم ، وذلك في عهد (إلى شرح يُحْضِبِ الأول) وابنيه (عمرو وبنار) و (وتار – يهأمن) . فهو لاء كما قال في ص ١٠٢ لهم دور في بناء قصر غمدان ، والهمداني يفرق بين إلى شرح يُحْضِبِ الأول هذا والى شرح الثاني ، فهو ينص أن الأول منبني الصوّار – من حمير) ، أما إلى شرح الثاني فهو من (بني جُرَّات) ، ويذكر الهمداني أن الابن الأول (لأنى شرح الأول) لقب بنسبيته إلى غمدان فهو (عمرو بنار ذو غمدان) .

وهذا الرأي لم يتبّه له المدارسون المحدثون ، فهم لا يذكرون إلا شعرم أو تر ثم إلى شرح الثاني ، ويهملون إلى شرح الأول ، مع أن نقوش المسند تذكره وتجعله من أوائل ملوك سباً وذي ريدان في العصر السبئي الثالث – ١١٥ ق.م .

ويؤكّد الهمداني روایته عن ارتفاع قصر غمدان وأنه كان عشرين طابقاً ، وكان ارتفاع كل طابق عشرة أذرع فيكون الارتفاع الكلّي مئتي ذراع . وختّم تأكيده بقوله : « ولم يتعدّر – ذلك عليهم – لقدرهم على كل معجز من البناء » . وبغض النظر عن عدد الطوابق وقد نصّ الهمداني على روایات أخرى فان

قصر غمدان كان قصراً شامخاً منيفاً ، ويقدر الدارسون المعاصرون أن ارتفاعه كان لا يقل عن أربعين متراً فوق مدينة صنعاء التي تعلو عن سطح البحر بـ ألفي متراً وثلاثمائة متراً ، والتي يقول فيها الشاعر الجاهلي عدي بن زيد العبادي وهو جاهلي من أهل الحيرة :

ولاةٌ ملوكٌ جزلٌ موابنها
معزنٌ وتندىٌ مسكاً محاربها
كائدٌ ترتقىٌ غواربها
جاوبهَا بالعشبيٌّ فاصبناها

ما بعد صناعه؟ كان يعمرُها
رقعها منْ بنى لدى قزع الـ^ـ
محفوفةٌ بالجمال دون عرى الـ^ـ
يأنس فيها صوتُ النهامِ اذا
ولهذا يقول الهمداني في (غمدان) :
من بعد (غمدان) المثيف وأهله
يسمو الى كبد السماء مصعداً
ومن السحاب مُعَصَّبٌ بعمامةٌ
متلاحكا بالقطير منه صخرةٌ
وبكل ركن رأس نسر طائرٌ
متضمنا في صدره (قطارة)
والطير واقفة عليه وفديها

* * *

ولم يكن (غمدان) مجرد قصر ملكي ، بل كان رمزاً من رموز السيادة واكمال السلطان ، فالمملك الذي يتمكن من التربع على العرش في سدة (سلعين) و (غمدان) و (ريدان) يكون قد بلغ قمة السيادة ، وشملت سلطته جميع ربوع اليمن القديم . وظل عدد من الملوك ذوي المكانة المرفيعة ، يضيفون الى غمدان عملاً من الأعمال البنائية والتزيينية ليعد ذلك من مفاخرهم ، حتى بلغ منتهي العظمة والفخامة في أوائل القرن السادس الميلادي حين وقعت اليمن في قبضة الأحباش ، ومن هنا أخذ الغراب يحل بقصر غمدان حتى لم يبق منه في القرن الرابع الهجري ، أي في عصر الهمدان ، الا بضعة مداميك ذات أحجار ضخمة مهندمة ومتلاحكة - متداخلة - تلاحكا عجيبة حسب تعبيره .

وأول انتقاماً لقصر غمدان كان على يد الأحباش في عهدي أرياط وأبرهة
لما ألقاه به ، ولما انتزعه أبرهة من زنته ليزين بها قليسه - كنيسته - .

وبعد جلاء الأحباش أعيد للقصر اعتباره فترى الملك سيف بن ذي يزن
على سدة العرش فيه ، وكان من زاره وهناء على تسمم عرش اليمن عبد المطلب
بن هاشم جد الرسول (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، وأمية بن أبي الصلت الذي مدح بقصيدة مطلعها :

لا يطيب الثار الا كابن ذي يزن اغْلَى فِي الْبَعْرِ لِلأَعْدَاءِ أَهْوَالًا

وفيها يقول :

فأشرب هنئاً عليك التاج مرتفقاً فِي قَصْرٍ (غمدان) داراً مِنْكَ مَحْلَالاً

ويبدو أن هذه المكانة المستعادة لقصر غمدان استمرت في فترة الحكم
الفارسي لليمن ، ونزله الولاية من الفرس عندما حل الإسلام ، وحينما ثار عليهم
عبهله بن كعب العنسي ، احتل غمدان وفيه قتل .

ثم جاء المتطرفون والمتشددون دينياً - وكل عصر متطرفوه - فزعموا أن
الإشارة إلى قصر غمدان في الآية القرآنية (لا يزالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِبْبَةً
فِي قُلُوبِهِمْ) ، ثم الإشارة في قوله تعالى (أَتَبْنَيُونَ فِي كُلِّ رِيْنَعِ آيَةً
تَعْبَثُونَ ، وَتَسْخَدُونَ مَصَانِعَ لَعْلَتُكُمْ تَخْلِدُونَ) إنما هي إيدان
بهدهم ، ثم زعموا أن الرسول (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أمر بهدمه ، ثم نسبوا مثل ذلك إلى عمر بن
الخطاب (رض) ، أما عثمان (رض) على زعمهم فيقولون أنه كلف الولاية
بهدهم وقال : لا يزال أهل اليمن يجدون في أنفسهم عزة ما نظروا إليه ، فهدموه .

وهكذا أخذت معاول التعصي والتزمت الدينية تعمل في قصر غمدان تخربها
ويقال إنهم وجدوا فيه رخامة مكتوبة بالستند : (اسلم غمدان هادمك مقتول)
وقيل إن الكتابة كانت على خشب بالرصاص المصوب .

ولم ينته عهد عثمان حتى كان القصر قد أصبح خراباً ، قال الهمداني :

« ولم تزل حمير تنزله وتزيد فيه حتى أُخْبِرَ في أيام عثمان ٠٠٠ وقد بقي من
حد غمدان القديم قطعة ذات جروب متلاحد عجيب قبالة البابين الأول

والثاني من أبواب الجامع - جامع صناعات الكبير - الشرقية ، وكثير مما حوله من منازل الصناعيين فمنه بُنيت ٠٠ وباقيه كالتل العظيم »

ان الآلوف الخمسة عشر من نقوش السندي المتوفرة بين أيدي الدارسين حتى الان ، ليست الا نقشاً سطحية ، وصنلت الى أيدينا عن طريق التجوال الشخصي ، او أهدتها لها الباحث او ذاك (محسن الصدف) ، حيث لم يقم حتى الان تنقيب اثري في اليمن عدا تلك العملية المبتسرة التي قامت بها على وجل بعثة (ويندل فيليبس) عام ١٩٥٢ / وكان حصادها انحواً من ثلاثة نقش من بهو معبد واحد في مأرب ٠

وكان من مقوس «اليمنيين القدماء» ، الا يقوموا بأى عمل من أعمال البناء ، حتى يسجلوا ذلك على لوح حجري يدخل في صميم البناء وفي أبرز مكان فيه ، ولكننا لم نعثر حتى الان على النقش التخليدي الخاص بقصر غمدان والمذكى لا تكاد نشك في وجوده تحت الأرض ان لم تكن معاول التحطم قد نالته ٠

ولتقريب صورة غمدان من الأذهان ، نقتطف جزءاً من نقش يتحدث فيه الملك (شرحبيل) يُعْفِر ملک سباء وذی ریدان وحضرموت ویمنة وأعرا بهم طودم وتهامتم على بناء قصر في ظفار منكث عاصمة حمير ، ولم يكن لهذا القصر أى شهرة ، بل لم يكن معروفاً ، ولم يذكره أي مصدر من المصادر العربية رغم تأخر عصر بنائه - ٤٥٧ م / أثناء حكم هذا الملك - حتى ساقته الى «محسن الصدف» أثناء جولة قمت بها في ظفار عقب سيل كشف عنه ، ونشرته مع المستشرق الايطالي جيو凡اني غاريبيني عام ١٩٦٩ ، في دورية تصدر عن جامعة نابولي . يقول النقش :

(ان شرحبيل يعفر ملک سباء وذی ریدان وحضرموت ویمنة وأعرا بهم في جبال عسير وتهامتها ، بن آبي كرب أسدملک سباء وذی ریدان وحضرموت ویمنة وأعرا بهم في جبال عسير وتهامتها ، يعلن أنه أنشأ وأسس وبنى وأكمل قصره المسمى (هرجام) من مواثره - أساساته - الى قمته ، فسمق به وشاد أركانه وعلى سقوفه ، وطلاء بالجير من الداخل ، وزينه به من الخارج ، وأوسع لهوجهه - نوافذه - وأبدع في سطعنه مَفْرِجاً - غرفة جلوس تطل على مناظر جميلة -

وأمده بالماء عبر قناة منحوتة في ميازيب لها شكل أعناق الثيران ورؤوسها ، وبين رؤوس الثيران تماثيل لأسود وأجراس من البرونز الذي يلون الذهب ، وكلها مزخرفة بالزخارف الجميلة ، وجعل فيه بهو استقبال ومجال ندوة واسعاً أقامه مظلاً بسقف مزخرف على أعمدة مزخرفة ، ثم انه نصب في أرجاء القصر وحوله تماثيل لأناس ولأوطال ولأسود ولنمور ، وكلها من البرونز الذهبي النفيس . وفي هذا الوقت نفسه فان الملك شرحبيل يعمر يعلن أنه قام أيضاً بترميم وتجديد وتنظيف العرم الذي في مأرب – سد مأرب – بكل أجزاءه وبصدقه ومصارفه ، ومن البدء الى التمام ، وتم له كل ذلك في عام واحد ، وذلك بنصر وعون الرحمن رب السماوات والأرض ، وبقوته ووفد شعبه وخمسه سباً وحمير وحضرموت ويمنة ، وسطر هذا في شهر ذي ايلان سنة ٥٧٣ » .

وهذا التاريخ اليمني القديم يقابل ٤٥٧ م . ونقول : انه اذا كان هذا هو ما صنعه الملك شرحبيل يعفر في قصر ثان بناء بجانب القصر القديم (ريدان) في ظفار ، فماذا كان في قصر ريدان ٩٩ م . اذا كان قصر (غمدان) أشهر من قصر ريدان ، فماذا كان في قصر غمدان ٩٩ م .

وهذا هو ما تبادر الي ذهن كاتب المقال ، حينما قرأ خبراً نشرته جريدة الثورة يوم الأحد ٢٤ / ١٠ / ١٩٩٣ عن قرار جمهوري صدر في صنعاء تلبية لخطبة وزارة الثقافة ، ويقضي بإنشاء (قصر غمدان للثقافة والفنون والسياحة) بالقرب من موقع القصر القديم ، والحمد للرحمـن رب السماوات والأرض ، فقد اكتملت دورة الزمان بغمدان ، وارتقت عقارب ساعته من حضيض النقصان الى أوج السعادة والت تمام ، وهذا هو ما أوحى بكتابـة هذا المقال ، تذكيراً للقارئ العربي برمز عظيم من رموز تاريخه القديم .

دمشق في ٢٧ / ١٠ / ١٩٩٣

مُطهّر علي الارياني



من تاريخ قنسرين

علي جماعة الخويلا *

الجنوب الغربي من حلب وعلى بعد ثلاثين كيلو متراً تقع مدينة
قنسرين وليس ثمة أثر لمدينة إنما هي تلال عالية من التراب . هي
أطلال تلك المدينة العظيمة وقد طمرتها الأتارية .



كانت في يوم من الأيام عاصمة الأقطار العلية . وقبل الفتح الإسلامي
صارعت انطاكية عظمة واتساعاً وفخامة بناء . وقتلت كذلك بعد الفتح
الإسلامي ، وتقوم اليوم على أطلالها قرية صغيرة تسمى العيس ، ارجو أن يباح
للمديرية الآثار أن تقوم بالعفر في هذه المنطقة لتكشف عن كثير من آثار هذه
المدينة العريقة الغريبة تحت التراب .

□ تسميتها :

قال أبو بكر بن الأنباري : أخذت من قول العرب قنسرى أي مسن .

وأنشد للعجب :

اطربا وانت قنسرى والدهر بالانسان دواري

وأنشد غيره :

وقنسرته امسور فاقسان لها وقد حنى ظهره دهر وقد كبرا

(*) مهندس من سوريا .

وفي إعراها وجهان يجوز أن تجريها مجرى قولك الرئيسون فتجعلها في الرفع بالواو وتقول هذه قنسرون وفي النصب والغرض بالياء فتقول مررت بقنسرين ورأيت قنسرين والموجه الآخر أن تجعلها بالياء على كل حال وتجعل الاعراب في النون ولا تصرفها^(١) .

وقال آخرون دعا أبو عبيدة بن الجراح ميسرة بن مسروق العبسي فوجده في ألف فارس في أثر العدو فمر على قنسرين فجعل ينظر إليها فقال ما هذه فسميت له بالرومية . قال : والله لكانها قنسرون فسميت قنسرين . وهذا الخبر يدل على أن قنسرين اسم مكان آخر عرفه ميسرة العبسي فشبهه به^(٢) .

وقنسرين كلمة آرامية بمعنى عش (وكر) النسور^(٣) وهناك ما يدل على صحة هذه التسمية وجود بعض النقوش لنسور على مداخل المغاير الموجودة .

أما الأغريق فقد كانوا يسمون قنسرين ب خالسيس Khaleis وهي تعني النحاس^(٤) أما الروم فقد سموه أخلقيس وكانت كرسياً استقنياً نصباً بها ثلاثة عشر أسقفاً إلى أيام الفتح الإسلامي . وقد دعيت بالعبرانية صوما وأن اسمها في التوراة كذلك فسميت بذلك قنسرين^(٥) .

ويقال لقنسرين هذه قنسرين الأولى أما قنسرين الثانية فهي حيار بني القمعاع^(٦) .

□ فضل قنسرين :

عن أبي زرعة عن عمرو بن جريدين عن النبي صلوات الله عليه قال : « إن الله عن وجل أوحى إلى أبا هؤلاء الثلاث نزلت في دار هجرتك - المدينة أو البحرين أو قنسرين » أخرجه الطبراني والترمذمي^(٧) .

وفي أعلى الجبل المجاور لقنسرين مشهد يقال إنه مقام النبي صالح عليه السلام ويغلبظن أن هذا المشهد من بناء صالح بن علي بن عبد الله بن العباس^(٨) فإن ولاية الشام كانت إليه ولها آثار يعلب وقنسرين فنسب إليه وينسبونه أيضاً إلى العيس بن اسحق ولنا تسمى القرية بالعيس حسب لفظ أهلها وينسب إلى قنسرين جماعة أثبتم في الحديث الحافظ أبو بكر محمد بن بركة بن الحكم .

بن ابراهيم بن الفرواج العميري اليهصبي القنسريني المعروف بير داعس سكن حلب ثم قدم دمشق وحدث بها . ويوفى بن سعيد بن مسلم وهلال بن أبي العلاء الرقي وأبي زرعة الدمشقي وخلق كثير سواهم^(٤) .

□ قنسرين قبل الفتح الاسلامي :

يقال أن الذي بنى قنسرين وفاميه وحلب هو سلو قس الأول^(١٠) (انطياخوس) أحد قادة الاسكندر واليه يننسب السلوقيون^(١١) .

ويقال أيضاً أن بطليموس الأربيب لم يرض أن ينزل منزلة لغيره فسار إلى موضع مدينة قنسرين فأمر القواد أن يأمروا من قبلهم بتعويظ منازلهم وأخذ كل واحد بينما ما حوطه فيبني قنسرين وسمها مدينة المسكر ونقل الأسواق من حلب إليها ولم يبق بحلب إلا من لا حاجة للعسكر إليه . وأنه أمر أن ينفق على القناة الآتية إليها فأنفق نائب مالاً وأجرى الماء فيها من عين المباركة يقرب حلب إلى مدينة قنسرين^(١٢) . وكانت القناة قد سقطت تحت الأرض إلى أن انتهت إلى القنطر وهي قرية من عندها فعقدت لها قنطر رفيعة ورفع ماء القناة فوقها إلى أن انتهى إلى مكان مرتفع فسيقت تحت الأرض إلى مدينة قنسرين وكان شرب قنسرين منها^(١٣) .

وكانت القواقل التي تأتي من البحار إلى الفرات ومن الفرات إلى البحر كان طريقها إلى قنسرين ولم تكن حلب حينئذ ممراً لهم لأنها كانت مدينة صغيرة . ولم يوجد بها ما يوجد في قنسرين من صناعات وغيرها فبناءً على ذلك تركوا توسيعها لأن قنسرين كانت محطة لرجال التجارة وتقصدتها القواقل والركبان حتى أن تجارة أوروبا كانت تأتي إليها من السويدية في طريق انطاكية .

وتأتي إليها تجارة العجم من الفرات بطريق بالس المسماة الآن مسكنة يجتمعون فيها كل سنة مرتين يبيعون فيها أموالهم .

ولم تكن الطرق في ذلك الوقت سالكة إلى حلب إلا من يقصد الذهاب إلى منتج فيكون طريقه إلى حلب .

وكانت منبج إذ ذاك مقر صنم كبير اسمه تركيد ويعبده أهلها وكانت تسمى هيرا بلس^(١٤) وفي سنة خمسينات وأربعين دخلت قنسرين الأعاجم وملكتها بقيادة الملك كريوس الشررواني^(١٥) وأحرقوه امتحانات وسبعين أما حلب فان بطركتها ميكاس صالحهم على دراهم دفعها لهم فتركوها ثم بعد أن أحرق البلاط المذكورة وعمر سوق حلب رجع إلى بلاد العجم عن طريق مسكنة .

□ فتح قنسرين :

لما فتحت دمشق الشام في أيام عمر بن الخطاب بعد وفاة النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبعد وفاة أبي بكر الصديق على يد أبي عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد وأصحابهما وذلك سنة خمس عشرة من الهجرة المواتقة لسنة ستمائة وثلاث وثلاثين من التاريخ الميلادي في أيام الخريف وتزعموا من أيدي الروم ورتبوا أمرها رحلوا عنها وساروا إلى حمص وحماء وقنسرين وبعدها حاصروا مدة قليلة أخذوا حمص وحماء .

أما قنسرين فقد بعث أبو عبيدة بن الجراح خالد بن الوليد إليها فلما نزل بالحاضرة (حاضرة قنسرين) زحف لهم الروم وعليهم ميناس وهو رأس الروم وكان أكبر ملوكهم بعد هرقل فالتقوا بالحاضر فقتل ميناس ومن معه مقتلة لم يقتلوا مثلها ومات من الروم خلق كثير^(١٦) .

وأما أهل الحاضر فكانوا من تنوخ نزلوا الشام وأقاموا في شمالها في خيم من الشعر ثم ابتنوا المنازل فأرسلوا إلى خالد بن الوليد أنهم عرب وأنهم لم يكن من رأيهم حرية فقتل منهم وترك الباقين . ودعاهم أبو عبيدة بعد ذلك إلى الإسلام فأسلم بعضهم وأقام بضمهم على النصرانية فصالحهم على العزيرية وكان أكثر من أقام على النصرانية بنوا سليم بن حلوان بن عمران بن العاف بن قضاعة وحاضر قنسرين هي الآن قرية الحاضر^(١٧) .

ثم أن خالداً نزل على قنسرين فقاتلته أهلها ثم بلووا إلى حصنهم فتحصنتوا فيه فقال لهم : لو كنتم في السعاب لحملنا الله عليكم أو لأنزل لكم إلينا ثم أنهم نظروا في أمرهم وذكروا ما لقي أهل حمص فطلبوها منه المصلح فصالحوه على صلح حمص .

وغلب المسلمين على جميع أرضها وقرابها وذلك سنة ست عشرة للهجرة^(١٨).
ولما توجه أبو عبيدة الى حلب بلغه أن أهل قنسرين قد نقضوا عهدهم فرد
اليهم السمحط بن الأسود الكندي فحضرهم ثم فتحها فوجد فيها بقرأً وغنماً فقسم
بعضها فيما حضر وجعلباقي في المفمن.

□ قنسرين بعد الفتح الإسلامي:

كان من نتائج اهتمام الأمويين بمحاربة الدولة البيزنطية برأً وبحراً أن
اتجهوا الى جعل قنسرين جنداً مستقلاً عن جند حمص.

وكانت قنسرين وحلب مضافتين الى حمص فأصبحت حلب مضافة الى قنسرين
حتى نهاية الدولة الأموية ثم تدرجت حلب في العمارة وقنسرين في المخرب
حتى صارت مضافة الى حلب في أيامبني العباس.

واختلف المؤرخون فيما إذا كان معاوية هو الذي فصل قنسرين عن حمص أم
ابنه يزيد ويدرك البلاذري أن قنسرين وكورها كانت مضومة الى حمص حتى
خلافة يزيد بن معاوية فجعل قنسرين وانطاكيه ومنبع جنداً^(١٩).

فلما استخلف هارون الرشيد (أيام الدولة العباسية) أفرد قنسرين بكورها
فصير لها جنداً واحداً وأفراد منبع وبلوك وربان وانطاكيه وسموها المعاصم لأن
المسلمين يتصدون بها في الشعور^(٢٠).

وقد جمعت الشعور الى الشام وبعض الشعور كانت تعرف بشعور الشام وبعضها
كانت تعرف بشعور الجزيرة وكلها من الشام ، ذلك أن كل ما كان وراء الفرات.
فمن الشام وشعور الجزيرة من ملطية الى مرعش لأن أهل الجزيرة كانوا يرباطون
ويغزون فيها لا لأنها من الجزيرة وأعمانها وكور الشام هي جند فلسطين وجند
الأردن وجند دمشق وجند حمص وجند قنسرين والمواصم والشعوب^(٢١).

أما قنسرين فقصبتها حلب ومن مدنهما انطاكيه وبالس - السويدية -
سميساط - منبع - التينات - مرعش - اسكندرونة وشير ومرة النعمان ووادي
بطنان^(٢٢).

وما زالت قسرين آهلاً بالسكان إلى أن كانت سنة ٣٥١ هـ غلت الروم على حلب بقيادة نقوور وقتل الجميع من كان يربضها فغاف أهل قسرين وتفرقوا في البلاد فطائفة عبرت الفرات وطائفة نقلها سيف الدولة إلى حلب وقال بعضهم كان خراب قسرين في سنة ٣٥٥ هـ قبل موت سيف الدولة بأشهر كان قد خرج إليها ملك الروم وعجز سيف الدولة عن لقائه فأمال عنه وجاء إلى قسرين وضر بها وأحرق مساجدها^(٢٢) .

ثم عمرت مرة أخرى وتراجع سكانها إليها واستمرت إلى سنة ٣٨٩ هـ فغزاها الروم وضربوها ورحلوا عنها فجاء إليها بنو البصيص التنجييون من أمراء جبل لبنان وعمروها ثم خربها اليوم أيضاً عند قصدهم حلب سنة ٤٢٢ هـ ثم عمرها سليمان بن قتلمش وتحصن بها سنة ٤٧٩ هـ ثم ضربها تاج الدولة تتشق السلجوفي لما قتل سليمان المذكور^٠

وفي سنة ٥٦٤ هـ نقل نور الدين بن زنكي أعمدة سورها إلى جامع حلب وبناها به وأخذ الناس حجارتها لعمائرهم^٠

وقد زار قسرين الرحالة ابن جبير الأندلسي في سنة ٥٨٠ هـ فقال : وهذه البلدة المشهورة في الزمان لكنها خربت وعادت كأن لم تقهـر بالأمس فلم يبق إلا آثارها الدارسة ورسومها الطامسة وتشبهها من بلاد الأندلس (جيان) لذلك نذكر أن أهل قسرين عند استفتاح الأندلس نزلوا جيان^٠

ولمحمد بن علي العشairyي المتوفى سنة ٧٨٩ هـ كتاب سمـاه (تاج النـسرين في تاريخ قسرين) لم يعثر عليه^٠

□ المـواشي :

- ١ - معجم البلدان - الجزء السابع - ص ١٦٩ - الكامل : للميري - ص ٦٤
- ٢ - معجم البلدان - الجزء السابع - ص ١٦٩ - بقية الطلب في تاريخ حلب - الجزء الأول - ص ٧١ - كتاب نور الذهب في تاريخ حلب - الجزء الأول - ص ٣٦
- ٣ - موسوعة حلب المقارنة - المجلد السادس - ص ٣٦
- ٤ - تاريخ حلب - الجزء الأول - صبغي الصواف - ص ١٢
- ٥ - الدر المنتب في تاريخ مملكة حلب - ابن الشحنة - ص ١٦٢
- ٦ - بقية الطلب في تاريخ حلب - ابن العليم - الجزء الأول - ص ٧٤
- ٧ - أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم - المقدس - ص ١٥٦ - الدر المنتب في تاريخ مملكة حلب - ص ١٦ - معجم البلدان - الجزء السابع - ص ١٦٩ - بقية الطلب في تاريخ حلب - الجزء الأول - ص ٧٢

٨ - صالح بن علي بن عبد الله بن ميساس الهاشمي عم السفاح والنصرور وأول من ولد مصر من قبل الخلفاء العباسيين ثم الراه أبو جعفر المنصور بالجزيره وكانت له الديار الشاميه كلها ، مولده بالشراة سنة ٩٦ هـ ووفاته يقتربون سنة ١٥١ هـ .

(انظر كتاب الأدلة الخطيرة - ج ١ - قسم ١ - من ١٧٠ إلى ١٧٣)

٩ - معجم البلدان - الجزء السابع - من ١٧٠ إلى ١٧٣

١٠ - زينة العلب في تاريخ حلب - من ١٥

١١ - السلاقون : سلالة انسها سلاقون الاول أحد قادة الاسكندر (٣٣٢-٣٢٣) ق.م ، اخذ ملوكها اسم سلاقون او اقطاقيوس وعرفوا بملوك سوريا ابتدت مملكتهم الى آسيا الصغرى وفلسطين وبلاد ما بين النهرين ، ساهم السلاقون في نشر الحضارة الهنطية في الشرق فأسسوا مدنًا كثيرة لهذا الفرض (اصبحت من مراكز التفاعل بين الحضارتين الاغريقية والشامية) .

(تحفة الآباء في تاريخ حلب الشهباء - من ١٤)

١٢ - زينة العلب في تاريخ حلب - من ٢٠

١٣ - بقية الطلب في تاريخ حلب - المجلد الأول - من ٧٢

١٤ - تحفة الآباء في تاريخ حلب الشهباء - من ١١

١٥ - كيروس الشرواني : يقصد به كسرى الاول (خسرو) الملقب كسرى انو شروان .

١٦ - زينة العلب في تاريخ حلب - من ٢٥

١٧ - نهر النهب في تاريخ حلب - الجزء الاول - من ٣٦١

١٨ - زينة العلب في تاريخ حلب - من ٢٧

١٩ - زينة العلب في تاريخ حلب - من ٢٩

٢٠ - المر المتelligent في تاريخ مملكة حلب - ابن الشحنة - من ٩ - الأدلة الخطيرة - الجزء الأول - القسم الثاني - من ٣٥٣

٢١ - صورة الأرض - ابن حوقل - من ١٥٦

٢٢ - احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم - من ١٥٤ - المسالك والممالك - ابن خردابية - من ٧٥

٢٣ - الآثار الإسلامية والتاريخية في حلب - من ٣١

□ أهم المصادر والمراجع :

١ - معجم البلدان - الإمام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي .

٢ - بقية الطلب في تاريخ حلب - المجلد الأول - المؤلِّف الصاحب كمال الدين أبي القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله ابن العليم - حققه وقلم له الدكتور سهيل ذكار .

٣ - نهر النهب في تاريخ حلب - كامل بن حسين بن محمد بن مصطفى الباجي الحلب الشهودي بالغزي .

٤ - موسوعة حلب المقارنة - خير الدين الأسكندرى .

٥ - تاريخ حلب - حلب قبل الاسلام - ج ١ - صبيح الصواف .

٦ - المر المتelligent في تاريخ مملكة حلب - قاضي القضاة أبي الفضل محمد بن الشحنة .

٧ - احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم - شمس الدين المقدسي .

٨ - زينة العلب في تاريخ حلب - المؤلِّف الصاحب كمال الدين أبي القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله ابن العليم .

٩ - تحفة الآباء في تاريخ حلب الشهباء - تيودور بيشتون - ترجمة وتحقيق : د. شوقي شعث - الاستاذ فالح يكور .

١٠ - الأدلة الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيره - ابن شداد - حققه : يعني ذكريها عبارة .

١١ - صورة الأرض - أبي القاسم بن حوقل التصيبي .

١٢ - المسالك والممالك - ابن خردابية .

١٣ - الآثار الإسلامية والتاريخية في حلب - الدكتور محمد أسعد طلس .

وَجْهًا لِوَجْهِ الْمُرَاةِ

د. عبد الكريموالياني*

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين القائل في محكم كتابه « وهدوا الى الطيب من القول وهدوا الى صراط الحميد » والصلوة والسلام على سيد المرسلين الذي أوثق جوامع الكلم .

أيها العقل الكريم ، أيها السادة والسيدات ، أيها الاخوة والأخوات ،
أيها الزملاء الأحبة :

وبعد فانيأشكر راعي العقل المهندس محمد ناجي عطري محافظ حمص وأمانة الفرع ، ومجلس المدينة ، ومجلس الفعاليات الثقافية وأبناءنا الذين تنادوا لاقامة هذا المفل البهيج ، وأشكر السادة الخطيباء الأعزاء الذين أغدقوا عليّ من الصفات والتكرير فوق ما يستحقه . أشكرهم جميعاً لأنهم أتاحوا لنا هذا اللقاء السنوي البهيّ ، وجعلوني أحظى برؤية هذه الوجوه الكريمة النيرة

(*) كرمت مدينة حمص برعاية محافظة المدينة في مستهل مهرجانها الثقافي الثالث عشر ايتها الاستاذ الدكتور عبد الكريموالياني رئيس تحرير مجلة « التراث العربي » على مسرح دار الثقافة مساء السبت ٢٩/١٠/١٩٩٤ . والقى الاستاذ محمد راتب العلّاق والاستاذ الدكتور عبدالله نيهان والشاعر مدنوح فاخروي والاستاذ الدكتور طيب تيزيني والدكتور زهير جبور كلمات جميلة اضافات حفل التكريم فوق اضواء العقل الذاتية . وهذه كلمة رئيس التحرير رسم فيها صوراً من ثنااته وسيرته الذاتية العلمية والأدبية .

التي تُحدَث عن عراقة معتد ، وأصالة مولد ، ونبيل مقصد ، ورفعة مصدر ومورد . وأرجو أن أكون داماً عند حسن ظنهم . إنهم أبواً إلَّا أن يكونوا أوفياء للعلم ، أمناء على المواطنة ، خلصاء للأدب ، أقرباء في نسب التعليم . وقد قل منهم من ليس بيديه وبينه واسحة أدب ، وصلة تعليم ، ورابطة ثقافة .

أنا أعلم أن هذا التكريم الذي خصصتني به إنما هو في الحقيقة تكريم لكم . فأنتم منكم . وكل ثناء يأتيني فهو عائد اليكم تجدون صوره في أنفسكم ، وتقرؤون درره في سائركم . أما أنا فيجعلني أشعر بتقصير حصل من جهتي ، أو سهو وقعت فيه أو جانب غفلت عنه .

اني من الناس الذين يرون أن الناس جميعاً متكافئون في الامكانيات الطيبة المتفاوته ، وأن هذه الامكانيات في تكافها متساوية ، وأنها بمثابة السبل أو الطرق الصاعدة . فأردد مع صوفي قدِيم قوله : «الطرق إلى الله بعدد نفوسبني آدم » وعلى كل منا أن يجده طريقه الصاعد الخاص به نحو التقدم والعلاء ، ونحو التكامل والنماء .

ويكاد يكون هذا القول متضمناً في الحديث الشريف : « كُلُّ مِسْرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ . أَيْ مَهِيَاً » لما خلق له قابله . فالعدد في الطرق مُؤَدٌ إلى الوحدة والتبان سبب الالتبان ، والاختلاف داع إلى الاتفاق .

وانما الانسان بالاخوان واليد بالساعده والبنان

وانني لأشعر كائناً كلفتني تلقاهـ هذا المـ حلـ أن أعرض عليكم ثبتاً بـ راحـلـ من تـ كـ رـ مـ وـ مـ رـ سـ مـ بـ قـ لـ مـ هـ فيـ مقـ اـ بـ ماـ سـ عـ مـ تـ سـ مـ وـ مـ كـ الـ دـ رـ دـ رـ منـ أـ فـ سـ وـ مـ أحـ جـ بـ هـ وـ مـ خـ لـ صـ اـ نـهـ . وأـ رـ جـوـ أـ كـ وـ مـ كـ أـ كـ وـ مـ مـ وـ مـ ضـ عـ يـ اـ مـ اـ مـ استـ طـ مـتـ ، وـ مـ فـ يـ دـ آـ ماـ تـ يـ سـ رـتـ لـ يـ اـ فـ اـ دـ اـ . وـ فـ يـ حـ يـ اـ ةـ كـ لـ اـ مـ رـ يـ اـ ءـ عـ ظـ ةـ وـ عـ بـ رـ ةـ وـ فـ اـ نـ دـةـ وـ تـ جـ رـ بـ ةـ .

نشأ في طفولته مهملـاً بين اخوتهـ اـ ذـ كـاءـ عـ مـ لـياـ . فـ لمـ يـ كـنـ أـ هـ لـوهـ يـ كـ لـ فـ وـ نـهـ شـ رـاءـ سـ لـ مـةـ اوـ شـ يـءـ ماـ منـ حـوـانـيـتـ الـ حـيـ التـ رـيـبـ . وـ لـ كـ نـهـ كـ اـ نـاـ يـ جـ بـ نـهـ لـ بـ سـ اـ طـ اـتـهـ وـ لـ حـسـ اـ سـ يـتـهـ المـ فـرـطـةـ وـ لـ حـيـائـهـ الـ عـمـيقـ الـ ذـيـ كـ اـ دـ اـ نـ يـ كـوـنـ مـ رـ ضـ بـ ئـاـ .

ولما كان قد وصل الى سن التعليم أرسله والده الى الكتاب القريب في المني. وكان شيخ الكتاب مشهوراً بشدته وقوته كما شهر بمهارته في فنون الخط العربي . وقد أسلب هذا الجو القاسي الشديد على دماغ فتاناً سترأً صفيقاً دون الوصول الى تهجي الأبجدية التي كانت مكتوبة بخط الشيخ . وشهر بين رفقاء الصغار وعند أخيه الذي كان يدرس الأبجدية في الكتاب بلفظ كان شائعاً بين التلامذة إذ ذاك ، وهو أنه طرماخ .

وقد انقرض هذا اللفظ مع انقراض كتاتيب حمص . ولكن بقي منقوشاً في ذاكرته . ولما لم يستفد شيئاً في هذا الكتاب نقل الى كتاب أبعد يختلف عن الكتاب السابق في أن شيخه كان دمث الحاشية حين الادارة تسود الجو فيه حرية واسعة . فترك هو شأنه في هذا الجو بالعر . وأخذ ينظر الى زملائه المتقدمين في حسن الخط والكتابة ويقلدهم حتى صار خطه في الجودة مثل خطوطهم فنفسوا عليه هذا التقدم السريع وهو أصفر ساتتهم . وكأنه شعر بما تكهن صدورهم فلم يحصل ذلك ولا ألقى اليه بالا . وأعلن ذلك كله في أوائل العشرينيات من هذا القرن . وشاع في المدينة افتتاح المدارس الرسمية في عهد الاستقلال . فرأى أبواه إرساله الى مدرسة الارشاد الابتدائية . وكان قد انضم قبله في الالام بجوانب التراث في جو البيت ليالي الشتاء حين يجلس الأهل بعد المشاء والعشاء فيقرأ أحد إخوته أضاميم وكتباً من السير الشعبية ويذكر خاصة سيرة عنترة بن شداد وسيرة علي الزبيقي . والى جانب ذلك حفظ أسماء الأنبياء واستظرهم بالسماع بعض آيات القرآن الكريم ومواقعها في بعض السور ، كما وصل الى سمعه أخبار الشعراء والعلماء وأصحاب المذاهب الدينية . وغيرهم في ذلك الجو الأهلي . وكان يرغب في سريرة نفسه أن يكون واحداً منهم شاعراً حيناً وعالمًا حيناً آخر وفيلسوفاً طوراً وكانت مشهوراً تارة أخرى . أما النبوة فقد فهم أنها ختمت نهائياً . ومع قوة جسمه الطفولي كان يعجب بعنترة وب أخيه شبيوب ولكن لم يكن يريد أن يكون بطلاً يقاتل الناس . كان يحب الانفراد والسلام ويكره الزحام والخصام وتهتز مشاعره لما كان فكراً عالياً وعاطفة سامية . وكان يستمع الى ما كان يراه بعض الناس من رؤى في المنام . وينذكر في شبابه أنه حين كان في سن الطفولة رأى فيما يراه النائم الرسول عليه الصلاة

والسلام . فأسرع يقبل يده وهو في أرض قفر ليس فيها نبات فقد فدحه الرسول إلى أرض بجانبها خضراء وارفة بالنبات الفض . ويقول هو عن نفسه : منذ ذلك الوقت تفتحت له آفاق الفهم . فكان دماغه بعدئذ يتقطط أي التقاط كل ما يسمع من فوائد علمية وأدبية . في عطلة الصيف بعد الصف الثالث الابتدائي وضعه والده في مدرسة خاصة لا تلقى أبوابها في العطلة هي مدرسة طاهر أفندي في جورة الشياح كانت تعلم اللغة الفرنسية إلى جانب اللغة العربية وبعض الدروس العلمية . وكان بين معلميها نخبة من الأدباء والشيوخ يذكر منهم الشيخ عبد الكريم أمماز السباعي مدرس النحو والأديب الشاعر محبي الدين الدرويش والأستاذ عبد الرزاق الدرويش كما كان يختلف إلى المدرسة الأديب الشاعر المعصي نبيه سلامة الذي آثر الهجرة بعد حين إلى أمريكا الجنوبية . وفي هذا الجلو الأدبي العربي دخل قلب الفتى حب الشعر والأدب . كان الشيخ السباعي من المشهورين في تليم النحو . يدرسه في حلقات الجامع الكبير بحمص فوق تدرسيه له في تلك المدرسة . فكان ذلك اليافع يتمثل في السماع عليه شذرات من « شدور الذهب » ويشتت قطرات من « قطر الندى » . وما الكتابان لابن هشام اللذان كان يعتمدهما الشيخ في تدرسيه لللاميدين الصغار في المدرسة الابتدائية . وكان الأستاذ عبد الرزاق الدرويش يعتمد في درس القراءة كتاب « أدب الدنيا والدين » للإمام الماوردي وهو غير مشكول وذلك في الصف الرابع الابتدائي . وعلى التلميذ الذي يأتي دوره في القراءة ألا يلعن . كل ذلك والفتى يتقطط صامتاً وبصورة عفوية فوائد اللغة والأدب والشعر . أما هذا الشعر فكان يتفق غدقًا على لسان محبي الدين الدرويش ، وانتهت معه إذ ذاك شاعران شبابان كانوا كوكبي الشعر في حمص همارفيق الفاخوري ورضا صافي . ولم يمض قليل من الزمن حتى أدرك معلمون الفتى ورفاقه حسن انتباوه وقوة حافظته فكان المعلم إذا سأله التلاميذ إعراب لفظ طلب إليه أن يبقى ساكتاً فلا ينطق ثم يسأله فيجيب . ثم غدا الفتى إذا سئل استجواباً من أن يجب تجاه رفاقه فكان يتظاهر بالصمت وعدم المعرفة . وتلك خلة بقيت ملازمته له طول حياته . فهو يكره التبرج والتنفج وإنما كان يكتفي أنه يعرف .

يذكر أن الشيخ عبد الكريم السباعي لما رأه يختلف في تفرده عن بقية التلاميذ مع الفته لهم ناداه فقال له : سوف تبعث أمة وحدك كما جاء في الآخر أن سيدنا ابراهيم سوف يبعث أمة وحده . لم يفهم الفتى هذا التشبيه ولكنه بقي يرن في ذاكرته حتى اليوم .

وসاقت صروف الزمان بعد حين إلى المدرسة معلماً للرياضيات أتى من فلسطين فكُلِّفَ تدريس التلاميذ هذه المادة . وكان هؤلاء في الصف الخامس الابتدائي . والغريب أنه بدأ معهم بتدريس الجبر فعلمهم إتقان التراكيب الجبرية والمادة الأولى . وكان ذلك فرصة نادرة للفتى إذ اشرح صدره للرياضيات إلى جانب اللغة والنحو والأدب .

ولما تقدم إلى فحص الشهادة الابتدائية لا يذكر ماكتب ولا ما أجاب . ولكنه قيل له انه نال الشهادة بدرجة جيد جداً وكان الأول فيها .

دراسته في تجهيز حمص أي في المرحلتين الاعدادية والثانوية شيء آخر . انه يملك مفتاحين مهمين سعريين لجميع الدراسات إنسانية كانت أو موضوعية ، نقلية أو عقلية . وهما ملكرة البيان العربي وملكرة التعبير الرياضي ، فسهّل ذلك له كل عسير ، وهوّن كل صعب ، وذلل كل حرون .

ويذكر مرة أن الأستاذ المرحوم ناجي أديب خريج الأزهر الشريف دخل على الصف الثامن الذي كان الفتى من تلاميذه وهو يسائل هل حسان مصروف أو من نوع من الصرف فأجابه الفتى فوراً : هو مصروف إن كان مشتقاً من الحسن ومن نوع من الصرف إن كان مشتقاً من الحس لزيادة الألف والتون . ولما دخل إلى فحص الاستظهار الشفهي في آخر السنة الدراسية وضع له الأستاذ الدرجة الكاملة وامتنع عن طرح أي سؤال عليه قائلاً: لا حاجة إلى فحص من يعرف إعراب حسان .

كان دائماً صديقاً لزملائه يعاونهم . ويذكر مرة أن أستاذ الرياضيات المرحوم عبد المجيد الصمادي وكان ضابطاً في الجيش الثماني متقدعاً أعطى الطلاب وظيفة في الرياضيات بها بعض الصعوبة . فعل الفتى مسائل الوظيفة .

وطلب إليه رفاقه أن ينقلوها عنه إشارةً من الأستاذ فقدمها اليهم راضياً . ولما رجع الأستاذ الوظائف أعطى التلامذة أصفاراً لأنهم نقلوا وأعطاه صفرأ لأنه نقل .

كان ذلك في زمن الثورة السورية الكبرى . وينذكر أنه استيقظ ذات يوم شتوئي وتأهب للذهاب إلى مدرسة التجهيز قبل الساعة الثامنة صباحاً فإذا بفرقة من الجيش الفرنسي مؤلفة من جنود السنغال تعاصر حي باب الدريب وتحت المندندين وباب السبع بحثاً عن الثوار . فأخذوه والده ورجال العي وفتیانه وشبابه إلى المرج وراء البيوت وفتحت البيوت وفتحوا وأوقفوا مدة من الزمان ثم تركوا . وكان قد وصل إلى الثوار خبر التفتيش فأخذوا حذفهم واختفوا عن الأنفاس . وكثيراً ما كان الناس يسمعون في غسق الظلام وأناء الليل طلقات الرصاص تترامي وتتجاوب في سماء العي ، ويتعذر الناس عن بطولات نظير النشيواتي وخiro الشهلا ورفاقهما إذ ذاك .

وللفتى اليافع أخ يكبره يدرس العلوم الدينية على شيوخ يعقدون حلقات في زوايا المساجد أو في غرف خصصتها الأوقاف لهم يدرسون العلوم العربية والدينية تدريساً حراً لا أجر فيه وإنما هو عبادة وتقرب من الله ومائرة عالية من مآثر التراث العربي والحضارة الإسلامية . فكان الفتى أول الأمر يسأل أخيه عن مشكلة عنّت له في الاعراب أو في اللغة . ثم رأى نفسه في العطلة الصيفية يجدون حدو أخيه فيستيقظ في الصيف مع الفجر فيصلي صلاة الصبح وينظر لمحات إلى السماء يتأمل النجوم تزداد تالقاً وتهجاً وهي على شك التغور والتواري ، ثم يسرع من بيته في حي تحت المندندين إلى جامع بازار باشي لدى أول السوق ليصعد الدرج ويتعلق مع بعض الطلاب حول شيخهم المرحوم أحمد صافي . وقد وجد في دروس هذا العالم الجليل المتميز في علوم الآلات أي اللغة والنحو والتفسير والبلاغة والنحو والمنطق وما إلى ذلك بنيته المنشودة فكان يستوعب كل شاردة وواردة ثم يعود بعد متوجه الشمس إلى البيت فيستذكر ما وعاه وكأنه القوت المرجو والزاد المطلوب ثم يطالع ما يعنّ له من كتب أخيه مشفوفاً بالطالعة في الكتب الصفر والبيض وما تشتمل عليه من متون وحواشٍ وتعليقات وشعر .

ويذكر أيّ تذكر أنه لما وصل إلى صف البكالوريا الأولى تمثل بقول عدي بن الرقان في مجال اللغة والنحو والأدب .

وعلمت حتى ما أسئل واحداً عن علم مسألة لكي أزدادها

وكان الفتى في الصف العاشر حين خطر لأستاذ اللغة الفرنسية السيد أوزو أن يقيم شبه ندوة مسائية بسيطة في المدرسة مرة في الأسبوع يجمع فيها بعض المعلمين والمعلمات في المدارس الابتدائية والتلامذة المتقدمين في مدرسة التجهيز ويعرض عليهم قصائد من الشعر الفرنسي في شتى الاتجاهات ولا سيما الرومانسي والبرناسبي والرمزي . واختاره الأستاذ بعد أن يشرح القصيدة واتجاه الشاعر ليكتب وظيفة في هذا الموضوع . ثم يلقى عليها الأستاذ لستة أخيرة ويطبعها على الطلاب (لم تكن آذاك آلات النسخ الحديثة جاهزة) ثم يوزعها على الحضور في الأسبوع التالي .

وفي هذه الأمسيات الأدبية تعرف الطالب - على قرب - ألفريد دومسني وألفريد دوفيني وفيرلين ولو كنت دوليل وسوتي برودول وشارل بودلير وغيرهم من نجوم الشعر الفرنسي وكان ذلك ممتعًا له أي امتناع في ريمان القوة والشباب .

واشتدت علاقته بالأدب الفرنسي إذ آذاك فشرع الأستاذ يimirه من مكتبه أو مكتبة المدرسة بعض الروايات الأدبية فطالع في أثناء السنة ببيرلوتي وهنري بوردو وأندري موروا وبول بورجي وأندول فرانس وأمثالهم . كانت مطالعاته تتم غالباً في الصباح قبل الانطلاق إلى المدرسة ولا سيما في شهر رمضان الذي كان دوره آذاك في الشتاء فكان يصومه . يستيقظ قبل الفجر للسحور ثم يجلس بعد الصلاة في غرفته إلى الطاولة مع مصباح الكاز (لم تكن الكهرباء موجودة) فيقرأ حتى يستفيض ضوء الصباح وتطلع الشمس فيتهيأ للذهاب إلى المدرسة . ومهما قيل في روايات الكاتب الفرنسي الدبلوماسي بير لوتي فإنها كانت أكثر ما جذبه وأثر في نفسه ، إذ كان يصف فيها استانبول ومجالي حضارتها وجوانب السفور والقرن الذهبي كما كان يصف بمحبة جوانب من الحياة الإسلامية كحياة الناس هناك في رمضان وأذان المؤذن

وتنبيه المسرح على الطلبة في آخر هزيع من الليل الى جانب لمع من حياته العاطفية حقيقة او خيالاً .

وكان من أساتذته في اللغة الفرنسية المرحوم وجيه كرامة . أشار عليه أيضاً أن يطالع تولستوي ودوستويفسكي وتم لقاوه للأدب الروسي الرفيع على طريق اللغة الفرنسية فقرأ اذ ذاك أنا كاريئين ثم الجريمة والعقاب وتعلق أيما تعلق بالأدب الروسي العظيم .

وكان اسمه في لوحة الشرف متقدراً في كلتا المرحلتين الاعدادية والثانوية ست سنوات . وكانت مدرسة التجهيز تكافىء ابناءها الأوائل بجوائز من الكتب في كل مادة من مواد الامتحان . فكان يحمل آخر السنة عبء حمل من الكتب جوائز في جميع المواد .

كل شيء اذ ذاك كان يدفعه الى أن يكون أدبياً . وبدلاً من أن يدخل القسم الأدبي من البكالوريا السورية دخل القسم العلمي . ثم بعد نجاحه المبرّز لزم أن يكمل القسم الثاني من البكالوريا أي الصف الثاني عشر . ولم يكن هذا الصف قائماً في حمص فانتسب الى مكتب عنبر بدمشق تلمنداً داخلياً ليهياً قسم الرياضيات الذي يتم القسم العلمي بدلاً من قسم الفلسفة الذي يتم القسم الأدبي . وانتهت السنة الدراسية بفوزه أولَ على جميع طلاب سوريا وبحوزه درجات لم يحرزها أحد من قبل في شهادة نهاية الدراسة الثانوية .

انتسب الى كلية الطب فدرس الشهادة التمهيدية التي كانت تسمى C.B. أي ف.ك. ب أوائل حروف الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا . ثم السنة الأولى من الطب بما فيها من تشريح وفزيولوجيا ونبات وحيوان وكيمياء وفيزياء طبيعية وتشريح مرضي وكان الأول في كل سنة . وكانت أساتذته ينظرون اليه بعين التقدير . وقد أحب هذه الدراسات . ولكنه كان يطمح أن يستقيها من مصادرها ومناهلها الأولى . ولا سيما أن الاضرابات كانت تتعاقب في بلاد الشام ، ويذكر اضراب البلاد الذي استمر نحو ثلاثة أشهر عام ١٩٣٦ عقب المفاوضات المخفقة بين الكتلة الوطنية والدولة المنتدبة .

وأجرت بعد ذلك مسابقة أيفاد إلى فرنسة لدراسة المعلوم ففاز فيها .
(وكان يضرم في نفسه استكمال دراسة الطب والعلوم جميماً) . ووصل مع رفقاء الأربعه الذين فازوا في المسابقة في نهاية كانون الأول عام ١٩٣٧ إلى باريس عاصمة العلم والث سور اذ ذاك . كانت لفته الفرنسية تغوله الانتساب فوراً إلى جامعة السوربون فعفت على الدراسة ولم يجد حرجاً في متابعتها نظرياً وعملياً . فلم تمض ثلاث سنوات الا وقد نال شهادة الاجازة في العلوم عام ١٩٤٠ واجازة الآداب عام ١٩٤١ .

ان مرحلة دراسته في فرنسة كانت مرحلة قاسية ومفيدة معاً . لقد نشبت الحرب العالمية الثانية في ايلول عام ١٩٣٩ . وحياة العرب بما فيها من انقطاع عن الأهل ومن تقنين ونقص في الانفس والغيرات ومن تهتمم وارتباك ومخاوف وسوق سوداء لا بد من أن ترك آثارها في نفوس الناس وفي سلوكهم . ولكن تلك المرحلة كانت خصيبة لم شاء من الطلاب أن يتتابع دراسته ويعرف من مناهل العلم والأدب . وهكذا انتهى طالبنا شعب الدراسات الفلسفية وأتيح له أستاذة أكفاء كانوا مشاعل الفكر في أوربة لا في فرنسة وحدها . كان بعض هؤلاء الأساتذة ولا سيما غاستون بشلار من جهة المستشرق الكبير ماسينيون من جهة ثانية حين عرفوا ثقافة هذا الطالب السوري وزمياءه خصوه بنوع من الرعاية لا ينساها أبداً . وهكذا استطاع أن يقطع بعد اجازته العلوم والأداب خمس شهادات في الدراسات الفلسفية العليا وأن يهبيء أطروحة الدكتوراة في الفلسفة بمعدل أكثر من شهادتين في السنة الواحدة ومن المناسب أن نذكر أن تصنيفه كان الأول في شهادة علم الجمال وفلسفة الفن التي كانت جامعة باريس وحدها متخصصة بها .

ولكنه ما زال يذكر الأيام الدكن والليلي السود حين مرضت عيناه وقد فاجأه الفحص عام ١٩٤٢ . ولما ذهب يستشير الأطباء تعبروا في المداواة إذ لم يعرفوا سبب المرض . فقدم الامتحان وكان يشكو عيناً واحدة ففدا يشكو كلتا العينين . كان يكتب مباشرة على الورقة المبيضة دون أن يصر بالتدقيق ما كان يكتب ، ولكنه كان يعلم ماذ يكتب . ثم وقع بين يدي طبيب من أصل الزاوي وهو الدكتور كللت . كان طيب الأخلاق عميق المعرفة . فأدرك سبب المرض وهو

سوء الحالة الصحية لرداءة التغذية أي السُّفَلَ زمن الحرب مع إدمان الدراسة . فعوّله الى طبيب خاص بالأمراض النادرة الفريضة فكان يذهب الى مشفاه مرتين في الأسبوع ليتلقى في الوريد خلاصة السموم التي كانت تجلب من المانيا . تزداد الزرقة بمقدار ضئيل جداً كل مرّة لعلها بالتدريج تثير جملتها مقاومة خلايا الجسم . ومرة أخطأ الطبيب المعاود فأعطيه زرقة تتجاوز المقدار المحدد ، فقضىليلة لا ينساها كابد فيها العمى والهديان والرؤى الكابوسية لم يصدق أنه سيعيش يدهما . ولكنَّ الْبُحْرَان انفرج في الصباح . وكانت سيدة تختلف الى المشفى تعالج المعالجة نفسها فبدأت تعى . ولكنه أفادكل الافادة أن أمضى ثلاثة أشهر صيفية في قرية صغيرة تدعى سمبادل في جبال الكتلة المركزية متعرضاً مرتة لتفتيش جنود الاحتلال ولتفتيش الثوار مرة مقابلة . وكان مع ذلك يرجو من الله أن يرد اليه بصره كما رده من قبل الى يعقوب . وقد قيض له بحمد الله الشفاء وسلامة البصر .

كان يذهب في الصباح الى المشفى ليتلقى زرقة السم ثم يحضر خاصة بعد الظهر دروس الفيلسوف بشلار بالسوربون في بحوث فلسفة العلوم وفي بحوث المنيا الأدبي . ثم ينصرف الى غرفته مساءً في المي اللاتيني ليقاوم تأثير تلك الزرقة السمية في جسمه . كانت هذه طريقة المداواة في كل مرض مستعصي غامض وذلك قبل كشف المضادات الحيوية .

وكم ليلة فوق مكافحة المرض أيقظت صفارات الانذار السكان بالفارات الجوية . وقد اعتادها الناس ، حتى إن الذين يسكنون في المي اللاتيني كانوا يعلمون أن حيهم حي الطلاب والجامعات ليس هدفاً للغاريات . فكان يقف الى نافذة غرفته وينظر منها الى قنابل الطائرات المغيرة تتهاوى على بعد من السماء كالشهب والى قنابل المدافع المضادة تصاعد من حدقة اللكسمبرغ حيث أقيمت فيها بعض تلك المدافع . كان ذلك المشهد رهيباً ذكره ما جاء وصفه في أحوال القيامة حين تتشقق السماء وتنكدر النجوم متهاوية متساقطة .

كانت عزيته على الدراسة في تلك الأجواء مع مرضه ملحمة وأيّ ملحمة . ورجع حين وضعت العرب أوزارها صيف ١٩٤٥ مع رفاته الى الوطن العبيب ويذكر اغريق مدامعه حين اقتربت الباخرة « مراكش » من شواطئ لبنان

ولمع وراء سيف البحر تلك الالبيال المنتصبة الحالية حارسة الأهل والتاريخ والتراث بعد انقطاع ثمانية أعوام ذاق فيها المروجى فيها المفید .

ثم دخل في عداد هيئة التعليم بكلية الآداب عام ١٩٤٧ . وكان قد حال على إنشائها حول كامل . اكتوى غرفته في شوئي (بانسيون) بمزرعة الشهبندر ، ولبث فيه خمس سنين . وكانت غرفته الواسعة تضيق يكتبها . عهد إليه أولاً في تدريس مادة علم الاجتماع في السنة الأولى وكانت هذه المادة جزءاً من شهادة الثقة العامة ، كما عهد إليه في تدريس مادة علم الجمال في السنة الثانية في قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية . وكانت هذه المادة تدرس لأول مرة في سوريا، بل في العالم العربي .

وهكذا طرق يرفع في كلية الآداب بنيان علم الاجتماع ودعائمه علم الجمال، كان يستيقظ الساعة الخامسة من صباح كل يوم ويعكف على إعداد المواد التي تعلمها بلغة أجنبية ينفي سفسافها وينقل صحيحةاً وجيدها الى اللغة العربية بلغة واضحة مشرقة . ثم يرجع في العطلة الصيفية الى بيت أهله في حي تعت المذنتين ويعتكم في ما استطاع باحثاً عن المقوت الروحي الذي يسمى أن يزود به طلابه في السنة التالية . كان يلتسم من خلال الدراسات الاجتماعية الأجنبية أساساً علمية ومعايير عدديه يستند اليها فادى به ذلك الى بحوث علم السكان اي الديمغرافية . وكان أول من ألف في هذا الموضوع وأقام دعائمه في اللغة العربية ، وكتب في مقدمة الكتاب الذي ألفه أنه جعل هذا العلم العديث عربياً في بيانه بل في صميم بنيانه . كذلك نشر كتابه « تمهيد في علم الاجتماع » . وعنوان هذا الكتاب ينمّ على التواضع لأنّه في موضوعه موسوعة تتلخص تاريخ التفكير الاجتماعي وتلمّ بمختلف المذاهب الاجتماعية . ولهذه المزايا كان فريق من الطلاب الذين يذهبون الى اوربة لاستكمال دراستهم يستصحبونه لأنه يدعم ثقافتهم وينير ما يحتاجون الي فيها .

وفي السنة الثالثة بقسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية قام بتعليم فلسفة العلوم أو ما يسمى في اللغات الأجنبية بالاستمولوجيا . وغداً هذا التعليم مادة كتابة « الفيزياء الحديثة والفلسفة » أبان فيه أحد التيارات الجديدة في

الفизياء مع ما ابتعثته من تيارات فكرية طريفة في الفلسفة . وكان هذا الكتاب رائداً أول في هذا العقل باللغة العربية . وما زال يلتمسه الباحثون في هذا المضمار على الرغم من نفاده . وقد زاد عليه فصولاً وطبعه طبعة جديدة بعنوان « تقدم العلم » .

وقد اتسعت بحوث علم السكان أي اتساع في النصف الثاني من القرن العشرين ونشأت مع اتساعه مصطلحات كثيرة أجنبية أدخلت بعض العبرة في اتساعها على الباحثين في شتى اللغات . فسمّت منظمة الأمم لجنة لوضع معجم يحدد دلالات تلك المصطلحات نشرته بعدئذ في اللغات الثلاث الأولى للمنظمة وهي الانكليزية والفرنسية والاسبانية . وقد أطلقه صديق فرنسي عضو في اللجنة على النسخة الوقتية التي أعدت لهذا الشأن والتي غدت أساس المجم الديمغرافي المتعدد اللغات . واقتصر هو حين سُمِّي عضواً في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والأداب والعلوم الاجتماعية في زمن الوحدة مع مصر وضع النص العربي لذلك المعجم نظراً لل الحاجة إليه . وقام هو والمرحوم الدكتور عبد المنعم الشافعي أستاذ الاحصاء بوضع النص العربي وسبقاً بذلك اللغتين الروسية والألمانية وغيرها . وقد رأى أن تخدع حذو اللغة العربية اللغات التي لها علاقة بالحضارة العربية الإسلامية كالتركية والأردية والأندونيسية . ثم بعد سنين ظهر نص جديد للمعجم في اللغات الانكليزية والفرنسية والاسبانية . فكلفته اللجنة الاقتصادية لغربي آسيا أن يضع النص العربي له فأتم ذلك وغداً النص العربي يقسم مزهوًّا بلفته السليمة المبينة إلى جانب النصوص الأجنبية الرسمية المتعددة . هذا ولم يجد واضع النص العربي وعورة ولا حرجاً في العثور على مصطلح عربي يقابل المصطلح الأجنبي . وقد زاد في حواشي الفقرات ما يتعلّق بعلم السكان من الألفاظ العربية الأصلية الداخلة في الثقافة والترااث العربيين .

وفي السنة الرابعة من قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية أدخل بحوث التصوف وتأملاته العميقـة في نطاق الفلسفة الغربية الإسلامية الواسعة ودرّس نصوصاً للصوفية الأوائل الرواد كالعالج والعارث بن أسد المحاسبي والجنيدي ثم عمـد إلى تدريس أهم كتب التصوف وأصعبها وهو « فصوص الحكم »

للشيخ محيي الدين بن عربي . وكم كانت دهشة الطلاب حين كانوا يطّلعون على درر الفكر العربي الإسلامي في مقابل ما ملأوا به من خلاصات الفلسفات الأجنبية . هذا شدو" عن تعليمه في مختلف سنوات كلية الآداب . ولقد درس قضايا الفيزياء العديدة ومشكلاتها النظرية طوال سنتين في كلية العلوم ودرس أيضاً طوال سنتين في كلية الشريعة غب إنشائهما علم الاجتماع والفلسفة الإسلامية والمنطق . وكذلك درس في كلية الصيدلة مادة الأحياء العيوي سنتين ، ودرس في كلية الطب خلاصة عن مضامين علم النفس وعلم الاجتماع وكان هذا التدريس مادة كتابه « فصول في المجتمع والنفس » .

كانت قاعات دروسه تفتقر بالطلاب . وأخبره بعض الأطباء والمحامين أنهما كانوا يغيبون عن دروسهم في كلية لم يحضرا دروسه حين كانوا طلاباً .

ومن طلابه من أصبحوا وزراء وضباطاً ونواباً ومسؤولين في مختلف الأدارات . وتخرج عليه كثير من أستاذة الجامعات في سوريا وفي الوطن العربي ، وجمع غير من أستاذة التعليم الثانوي . فتعاليمه مستفيضة وأثاره في الأجيال عميقه ومستمرة .

كذلك تخرج عليه كتاب وشعراء وفلاسفة وعلماء أصبحوا معروفيين في الوطن العربي استطاع أن يثير مكانة النور في نفوسهم وجوانبهم . وقد سمّته منظمة الأمم خيراً أول في علم السكان مرتين طوال أكثر من ثلاثة سنوات . هذا كله عدا نشاطه الواسع في الندوات الوطنية والإقليمية والعالمية .

وكم سعدَ حين كان يرى أغراصه تنموا فتنبِّتُ الورد والياسمين وصنوف الأزهار ، أو تشتت وتشمر شهيّ الفاكهة وطيّب الشمار ، أو حين يبصر ضوء مصابيحه تنبأ أحياناً خبايا الظلام على توالى الأيام والأعوام .

ولئن كنت عرضت هذا الموجز عن تعليمه الجامعي فليس للافتخار . إنما كان ذلك واجبه وجوهر عمله وأساس حياته الفكرية الدائبة . عرضته لأسرّ غ تكريمه هذا لأستاذ وقف حياته على العلم تعلماً وتعليناً وعلى الأدب نهلاً وانجازاً . وكأنه كان يحسن " أنه مسؤول عن أن ينقل بأمانة وعلى أحسن وجه كل ما حفظ وعرف وأنجز إلى أبنائه الطلاب وأن ينشيء حركة فكرية حديثة بين

النشء المثقف تصل الماضي الجيد بالحاضر المتلذذ إلى
افق معرفية جديدة . وذلك بصمت الواثق بعلمه وتجدد المؤمن برسالته
وصبر المدقق الغيور . وحسبه مثل هذا التكريم جزاءً لذلك الصبر والتجرد
والصمت والأخلاص والمحبة .

في الأدب الفرنسي يشبه الشاعر الفريدي موسى نفسه أو كل شاعر بطيء
البعد يطير ويطوف في الأفق يبحث عن قوت يغذى به فراخه . وقد يسعفه
الحظ في طواهه . إلا أنه قد يُؤوب إلى فراخه خاوي الوفاض حتى إذا رأى
أعناق فراخه مشربئة ومناقيرها فاغرفة وليس معه زاد أتشب مغالبه في صدره
وأطعم فراخه دمه وقلبه .

لست أنا بذلك الطائر الذي يقدم مهجهة لفراخه . ففي نفسي نوازع كثيرة
للأثرية . وأشعر دائمًا بالتصدير في كل عمل أعمله ولو لقى الثناء والاعجاب .
ولكنني أرى أنكم في حمص قد اتخدتم بذلك الأستاذ رمزاً للمعلم والباحث
والأديب . فالتكريم الحقيقي هو لكل أديب مخلص وباحث محقق ومعلم يرعى
طلابه حق الرعاية ويعجبهم ويحبونه .

بل زيادة على ذلك أرى أننا نعيش في عصر يجتمع نحو الغلوّ في محبة المادة
وجمع النسب والذهب ونحو الحياة الراقة المطرزة بالسيارات الفارهة وسنخ
التقانة الحديثة المتتجدة . وهذا من شأنه أن يصرف النشء عن سر التقديم الحقيقي
وعن ابتعاد معالي الأمور . وهكذا أجدها التكريم سعيًا لتعديل ذلك الاتجاه
وتسوية ذلك الانحراف وحثاً للنشء الكريم على التماس سبل العلم الرحبة
الواسعة التي ان ذات سالكها بعض العنت ونصيباً من الشفف والتقصيف فلا بدَّ
من أن يكون أوسع مدارك لفهم كنه الحياة وتعرف حقيقة الدنيا والأخرة .

المعرفة هي الشعلة الخالدة التي هي أخص خصائص الإنسان . وهي أصل
كل تقدم وينبع كل ثقافة ونسع كل سعادة حقيقة وكل علاء أكيد وذلك على
المستوى الفردي والاجتماعي والأعمى .

وهي تطيل العمر وتهب نصيباً من الخلود . إن نشر الثقافة والمعرفة وتلقّي
النشء والناس بقلوبهم وعقولهم ثمرة تهانو من أنواع الاستمرار والبقاء وشكل

ولو وهما من أشكال ذلك الخلود . وكما أن الآباء يعيشون في نفوس ابنائهم ،
ذلك يعيش العلماء والأدباء والمعلمون في نفوس مردديهم .

**ذكر الفتى عمره الثاني وحاجته ما قاته وفضول العيش أشغال
كما قال أبو الطيب .**

ثم ان العلم والتعليم في اعتباراتنا التراثية جزء من العبادة . بل هما أهم
العبادات . الفن المترف قد يستمتع بالوردة مثلاً . ولكن الأديب يدرك
يموهنته وثقافته العالم التي تحف بالوردة من تبرعم فرح . وتفتح مبهج
وذبول سريع مأساوي ومن لون زاهي وأريح فاغم وشكل يدعي بالإضافة الى
ما جاء في الأدب والشعر والفنون من مزايا الورود وبوحها ومحاسنها والأجراء
التي توحى بها . فالوردة عند الأديب أغنى بكثير وأحفل بالمعانٍ من مجرد
شكلها الظاهر العابر .

والعالم يتأمل تكوين الوردة ونسجها وأوراقها الكاسية الخضر التي تحف بها
وأوراقها التويجية التي هي مثل ذاتع في اللطف والملون وأعضاء تكاثرها
وفصيلتها وفصولها وتطورها وخصائصها . فهي أعمق سراً وأرحب جوانب من
شكلها الظاهر العابر .

وهكذا بقية مظاهر الكون من أزهار وأشجار وأحجار ونجوم وأشعة وليل
ونهار وشمس وقمر وسائر عناصر الكون . فالدنيا أوسع آفاقاً وأعمق أسراراً
وأكثر عناصر وأشد مفاتن عند العالم والأديب . وكأنهما يعيشان في دُنَان
متعددة ويحييان حيوانات عميقة رائعة لا حياة واحدة . وهذه سمة من سمات
الحياة الباقية وملامح من أسرار الخلود إذا شُفعت بالعمل الصالح .

« بل تؤثرون الحياة الدنيا ، والآخرة خير وأبقى ! »

ومهما كانت الحياة المادية مشوقة وجذابة ومهيمنة فإن العلم والأدب
والأخلاق النبيلة لا يعدم كل منها سمة يندرؤون أنفسهم له وعشاقاً يهيمون به .
وإذا كانت سعادة الإنسان تستند في كثير من جوانبها إلى أمور مادية ضرورية
وكمالية فإن سعاده الروح أوسع ، وفضاء الفكر أرحب ، ومزايا القلب والفكر

أكبر ، وفضائل العلاقات الإنسانية الجيدة أعود بالخير ، وشيوخ المحبة بين الناس أهم ، والتعاون على البر والتقدم أجدى عاقبة .

أماوىٰ ان المال غادي ورائج
أماوىٰ ما يغنى الثراء عن الفتى
غيننا(*) زماناً بالتصدير ملك والفنى
وكلاً سقاناه بكأسيهما الدهر
فما زادنا تيهًا على ذي قرابهٰ
غناناً ولا أزرى باحسابنا الفقر
كما كان يتغنى حاتم الطائي ويحاور زوجته ماوية .

على أن المادة قوةٌ هائلةٌ . وهي من أهمّ ما يعين المرء على التماis مأربه العليا وابتلاء حاجاته الرفيعة وانجاز مقاصده المستحسنـة . وما أسعـد من يستطيع في أحوال مجتمعـه التي تحـف به أن يوفقـ بين متطلـبات المـادة والـفكـر ، والـعرض والـجوهر ، والـعقل والـقلب ، والأـصل والـفرع ، والـدنيـا والـآخرـة !

أعود إلى الحديث عن الشخص الذي تكرمنـه . لقد جاء في حـديث قدسي مشهور مختلف في صحة إسـنادـه ، وهو من أـجمل ما يـعلـي شأنـ الإنسان وقلـبه وفكـره : « ما وسعـني أـرضـي ولا سـمائـي ووسعـني قـلبـي عـبدـي المؤـمنـ» . وفي رأـينا أنـ الوسـعـ هنا ثـلـاثـةـ أنـواعـ : وسـعـ المـرـفـةـ بـعـقـائـقـ الأـشـيـاءـ وـهـوـ أـصـلـ الـعـلـمـ ، ووسـعـ المـشـاهـدـةـ وـاطـلـاعـ القـلـبـ عـلـىـ الـمـحـاسـنـ وـالـجـمـالـ وـهـوـ أـصـلـ الـفـنـ ، ووسـعـ الخـلـافـةـ خـلـافـةـ الـإـنـسـانـ عـلـىـ الـأـرـضـ وـهـوـ أـصـلـ الـأـخـلـاقـ الـفـاضـلـةـ وـالـسـيـاسـةـ الـمـكـيـمةـ الـخـيـرـةـ .

واسمـحـوا لـيـ أنـ أـنـقلـ هـذاـ الـوـسـعـ إـلـىـ الـوـفـاءـ وـالـمـحبـةـ وـطـنـهـ وـثـقـافـتـهـ وـتـرـاثـهـ . وأـسـتـطـيعـ أنـ أـقـولـ عـنـ ذـلـكـ الفتـىـ النـاشـيـ الذـيـ تـغـربـ إـلـىـ بـارـيسـ وـبـالـنـظـرـ إـلـىـ سـعـةـ قـلـبـ الـمـعـبـ الـمـؤـمـنـ آـنـهـ حـمـلـ مـعـهـ فـيـ قـلـبـهـ حـصـمـ كـلـهاـ بـأـحـيـانـهـاـ الـقـدـيمـةـ وـمـرـوجـهاـ وـكـرـومـهاـ وـالـمـدارـسـ الـتـيـ تـعـلـمـ فـيـهـاـ وـمـشـايـخـهـ وـزـمـلـائـهـ وـمـعـارـفـهـ وـمـنـازـهـ عـاصـيـهـاـ (ـ الدـوـيـرـ وـالـمـيـمـاسـ وـالـجـدـيدـةـ وـالـخـرـابـ وـالـمـزـرـعـةـ)ـ وـلـمـ تـفـارـقـهـ صـورـهـ وـشـفـونـهـ حـتـىـ يـوـمـهـ هـذـاـلـكـهـ أـيـضاـ لـسـعـةـ قـلـبـ الـمـؤـمـنـ الـمـعـبـ حـمـلـ فـيـ قـلـبـهـ صـورـ بـلـادـ الشـامـ مـاـ عـرـفـهـ مـنـهـاـ بـنـفـسـهـ وـمـاـ قـرـأـهـ مـنـ طـارـفـ وـتـلـيـدـ .ـ ثـمـ حـمـلـ بـطـرـيقـ ثـقـافـتـهـ التـرـاثـيـةـ الـعـتـيدـةـ الـعـالـمـ الـعـرـبـيـ كـلـهـ قـدـيمـهـ وـحـدـيـثـهـ بـمـراـحلـهـ

(*) غـنـيـ الرـجـلـ فـيـ المـكـانـ طـالـ مـقـامـهـ فـيـهـ .

الزمنية وحضارته الزاهية ومشكلاته الناشبة وكل ماواعاه وحواره من أخبار علماء وأدباء وفلسفه وفقهاء وشعراء . كان ينفي في نفسه الماجن من أشعار الشعراء ويثبت الرفيع العالمي . وكم من مرة ساجل في الخيال شعراء الجاهلية وتفتحت له هنالك معانٍ أبي تمام والمتّبّي والبعيري وأبي الملاء وغيرهم . كان يجري في نفسه حوار دائم بين ما يرى ويسمع ويدرس ويقرأ ويعلم وبين كنوز التراث العربي التي يعرف ثراءها وتآلتها كما كان يعارض في نفسه ألفاظ المضاراة الجديدة وما يقابلها من مصطلحات عربية قديمة تطالعه في خاطره عفواً أو يبحث عنها في ذاكرته القوية الواسعة . لذلك امترجت ثقافته العربية المتينة بالثقافة الأجنبية الحديثة . ولكن بقيت تلك الثقافة العربية لديه هي المسيطرة على الثقافة الأجنبية ، والمحيطة بها لاعكس . وهكذا لما راجع وزاول التعليم والكتابة والنشر في الوطن العربي تيسر له الاضافة في كل شأن عويص كبحوث الفيزياء الحديثة وبعثوث الديمغرافية الجديدة وأن يمسح عن دراريَ التراث غبار القدم و يجعلوها متائلة في أضواء الفكر الحديث وكل ذلك بلسان عربي مبين . وهكذا يمكن أن نورده مثلاً شاصاً حياً على أن الثقافة العربية في مرحلة الصبا هي الأساس المتبين في الحفاظ على الهوية العربية الأصلية وعلى نجاح مقاومة الثقافة العربية للغزو الثقافي الأجنبي . بل هي أكثر من ذلك . إنها الأساس في تجديد الثقافة العربية التليدة بحيث تستوعب أي نوع من أنواع الثقافة الحديثة . بل الخلاصة أنها غزو ثقافي عربي للثقافة الأجنبية . فلا خوف من أي غزو فكري إذ توطد الأساس وأشعلَ من القلب النبراس .
 لقد بلغ ذلك الأستاذ الآن من العمر مبلغاً قد أعطى في صروف زمانه ما استطاع أن يعطيه - ولا فخر - من سلوك سليم وعيش مستقيم وعلم قويم وأدب وسيم . ومع ذلك يشعر في جميع ذلك بتقصيره ، و يريد لو قيَضَ المولى سبحانه وتعالى له نزراً من السنين ليتم ما يريد ويرقم ما قد يفيد ويكمِل ما قد يجدي إكماله . وهو يحمد الله جل شأنه على أن أسبل عليه ثوب العافية والسلامة . وهو إذا ذكر قول الشاعر :

**إن الشامين وبُلْفَتَهَا قد أحوجت سمعي إلى ترجان
يتمثل بقول شاعر آخر :**

نحو الثمانين من العمر قد قطعتها مثل عقود الجuman
ما أحوجت يوماً يمئني إلى عصا ولا سمعي إلى ترجمان

حصن مدینته التي كانت أول أرض مس "جلده تراها يحملها دائمًا بعجارتها السود وقلبها الأبيض في سويدة قلبه . ربما تغيرت اللهجة فيها بعض الشيء وتغيرت الطياع بين أهليها . ولكنه ما زال محافظاً على لهجته الأولى في كلامه وحافظاً على سلامته قلبه وبساطة تصرفه كما شهد ذلك عن أهليها .

لقد قرأ مرة أن صوفياً تعشق سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام وكان يلهج بجهه وشفقه دائمًا . فرأى في المنام أو سمع هاتقاً يقول : لقد شغلك حب رسولي عنِّي . فقال فوراً : وهل حبي للرسول إلا جزء من حبي لك . وهو الذي دلنِي عليك ؟

إن حب ذلك الأستاذ في أطوار حياته للأدب والثقافة والعلم ليس ذلك يا حصن إلا حباً لك ولل الوطن أجمع وليس إلا زلفي منك ومن الوطن ومرضاه لك وله . ولذلك فاته في مقامه أن يعيش في رحابك هناً بهوائك العديّ وصباحك النديّ ونهارك البهيّ وأصيلك الذهبيّ ومسائلك العبرقيّ وليلك الشجيّ وقلبك النقّيّ وتاريخك الأريعيّ فإنه يتضمن انتظار المؤمن المحبّ المسافر ، وقد وصل قريباً من الشاطئ ، متى حان الابحار ، أن تحسني جواره في الشاطئ الآخر المجهول ، وأن تضمّيه بين أبنائك البررة السابقين وتبثبيه في ذكريات جنودك الطيبين الصالحين ورجالك المخلصين الإنسانيين .

طال الفراق على الثنائي وأضناه
فيهن من باسم الأحلام أشهاه
يا ليت أهل الحمى الأحباب ترعاهم
لولاه قل «نا الأداب لولاه
طبع الوفاء الذي بالقلب ياباه
ينسم عن حبه المكتوم مرأه
شكراً لمجلسكم قد قام مبتداً
يا عاتبين على المشتاق ويحكموا
يا حبذا سنوات في الصبا غبرت
أهداكمُوا قلبه حباً وتكرمة
ما انفك يسعط مثل النجم معرفة
هيئات يطلب عن خلانته بدلاً
قد عاش مفترباً في كل مرحلة
والعب والبر والتكريرم أولاه

شخصيات أدبية

من التراث القريب

عبداللطيف أرناؤوط

يعـد الباحث الدكتور «ابراهيم الكيلاني» من اعلام النقد في الوطن العربي ، فله دراسات تراثية عدة .. وترجمات لكتب أجنبية في مجال الدراسات الأدبية ، كما يعتبر من الرواد الذين نهضوا بالنقد الأدبي والدراسات النقدية التي تناولت أدبنا العربي في مختلف عصوره .

وقد صدر له مؤخراً كتاب بعنوان «شخصيات وصور أدبية» ضمّنه صوراً لاثني عشر أديباً من أدباء سوريا في الوطن والهجر ، منمن كان لهم حضور متميز في الحياة الثقافية والفنية .

ولعل كلمة «صور» التي استخدمها المؤلف أراد بها ترجمة للمصطلح الأجنبي «بورتريه» . وهي تعني تقديم الشخصية الأدبية .. بباراز ملامحها الذاتية المتميزة ، وخصوصيتها الفردية والفنية ، فهي أشبه بالرسم الانطباعي ، يضفي المترجم فيها على الشخصية مشاعره نحوها ، وفهمه لها ، ويكشف أصالتها العقلية ، من خلال معايشتها ، أو دراسته آثارها واستخلاص ملاعها .

ويعدّ الدكتور ابراهيم الكيلاني منهجه في تقديم شخصياته في مقدمة الكتاب فيقول : « هذه دراسات صورت فيها ، ودرست جماعة من الأدباء والشعراء ينتمون إلى أجيال متباينة في الثقافات والأذواق ، متنوعة الطبائع والمواهب جمعتني بهم ظروف الحياة ، فشلوا جزءاً من ذكرياتي ، وأخرين صادفتهم في

أثناء مطالعاتي في الكتب والحياة ، فتوثقت بيننا ممازجة نفسية ، وصداقة عقلية وألفة عاطلنية » ٠

فالدكتور ابراهيم كيلاني ٠٠ يصطفى شخصياته على أساس التواصل النفسي والثقافي والانساني بمن ترجم لهم ، فشلة موقف ذاتي دفعه للاختيار ، وموقف ذاتي أيضاً استند إليه في دراسة الشخصية يقوم على الاعجاب الشخصي بها واتخاذ ذلك الاعجاب منطلقاً لتعريفها ٠

ويحدثنا عن منهجه في تقديم الأعلام الذين اصطفاهم، فيقول في المقدمة محدداً الخطة التي تقوم عليها دراسته :

« وكانت خطتي في البحث ، النفاد من خلال الأثر إلى داخل صاحبه ، بغية ابراز أصالته العقلية والفنية ، والكشف عن أسلوبه الأدبي وطاقته التعبيرية » ٠

والدكتور كيلاني لا يقييد نفسه بخطة واحدة للترجمة ، ولا يقسمها إلى أبواب وعناوين ، ولا يلتزم تنظيماً موحداً لدراسة الأديب يعتمده مسبقاً قبل الشروع بها أو يعممه على من ترجم لهم ، وإنما يترك نفسه على سجيتها فقد ينطلق من موقف حياتي ، كرجوع الأديب المفترض بعد غربة طويلة إلى بلاده فيرسم انطباعاته حول مظهره الخارجي وشخصيته الإنسانية ، كما فعل في ترجمة الشاعر القروي والياس فرات ٠

وقد تتخذ الدراسة طابع الترجمة المبوّبة نوعاً ما دون إثبات عناوين فرعية ، كما في ترجمة محمد كرد علي وخليل مردم بك ٠

وهو في الموقفين لا يلتزم منهجية صارمة كالتي اشتهر بها غيره في دراسة للتراث ولا يغفي أن لكل من المنهجين حسناته وعيوبه ، فالمنهج العرّ أو القريب من المريخ في تبويب الصور الأدبية ، يوفر لدراسة الشخصية حياة وتلويناً ، ويعكس شخصية الدارس واتجاهاته وثقافته ، في حين أن التبويب يضفي على ترجمة الأديب جفاف المنهج ، وجمود العلم ، لكنه يحقق شمولية النظرة ومنطقية العرض ٠

ونلاحظ أن الدكتور كيلاني لم يتقييد في ترتيب الأعلام وفق تسلسلهم في

الزمن ، وكأنه آثر أن يكون اهتمامه بالصورة الأدبية أو ترجمة الشخصية مستقلة عن الأخرى ، دون أن يوفر للكتاب وحدته الزمانية والمكانية ، فكان ذلك التبوب الذي اختلط فيه القديم بالحديث ، والشاعر بالكاتب تطبيقاً للغريزة التي التزمها في تقديم الأعلام ، وهي حرية وفترت لنا المتن في المرض والتلوّن الذي يدفع السأم ، ولكن على حساب موضوعية البحث ، والمنهج النقدي العلمي .

وابراهيم كيلاني .. ناقد ، ذكي مثقف ، يعرف كيف يسلط الضوء على البؤر الهامة في جوانب الشخصية ، وقد يعزز آراءه وأحكامه بفيض من الشواهد الأدبية والنقدية ، على أن ما يمتاز به نقه هو دقة الحكم وجودة الاستنتاج ففي دراسة للشاعر عبد الباسط الصوفي يخلص إلى ظاهرة لم يفلت منها من سبقه ، ألا وهي ظاهرة تدجين الانفعال وتثلم حدة الاستجابة لدى بعض شعرائنا المعاصرين ، في حين أن ثورة الانفعال ظلت سمة ملزمة للصوفي في شعره ، وهي ثورة أشبه بالزيت الذي كان يثير مصباح شاعريته ويفندني ذاته ، لكن هذه العدة في الانفعال كانت عاصفة إلى حد أن أعصاب الشاعر لم تحتملها في نهاية المطاف .

وأسأحاب في هذا العرض متابعة أحكام الدكتور ابراهيم كيلاني النقدية ، واستعراض آرائه فيمن صورهم أو ترجم لهم ، وذلك من خلال منهج الناقد ونظراته التحليلية .

* * *

◎ الشاعر القرمي «رشيد سليم الغوري» ١٨٨٧ - ١٩٨٤ :

يستهل المؤلف ترجمته للأديب «رشيد سليم التسوي» الملقب بالشاعر القرمي ، فيتحدث عن رجوعه إلى الوطن الأم بعد اغتراب دام خمسة وأربعين عاماً ، فلما بلغ أرض سوريا قبّل بعده نزوله من الطائرة أول فلاح وأول جندي لقيهنا ، وحمد الله على سلامه الأوبة ، وسجد له شكراً .

والقرمي في رأي الدكتور «كيلاني» شاعر من طراز نادر في سيرته . وصراحته وابائه وحبه لبلاده وتمسكه بالعروبة .

ولد « القروي » في لبنان بقرية « البربارة » عام ١٨٨٧ ، في السابع عشر من نيسان وهو يوم الجلاء عن سوريا ، وفي هذا يقول معذراً :

ان فاخر الناس باهياهم فعيد ميلادي عيد الجلاء

وتلقى تعليمه في مدرسة القرية والجامعة الأمريكية ، ودرس في وطنه سبع سنين ، ثم هاجر عام ١٩١٣ الى البرازيل هرباً من ضائقة مادية وروحية ، وعمل بائناً متوجلاً في ديار الفرنية ، وقاسى البناء ، وغامر بالتجارة ، وصناعة ربطات المنق قما أفلح ، لأنه لم يخلق للتجارة وجمع المال ، بل فطر على حب الأدب والتأمل :

« إذا لم أصب مالاً فلما عن بطالة ، فللعلم أشغال وللمال أشغال » ويرد ابراهيم كيلاني تكوينه الجسدي والنفسي الى عوامل وراثية ، فقد ورث عن أبيه القوة الجسدية والصلف وحب « العلم » ، وعن آمه عنوبة الصوت والميل الى الفناء والموسيقا ، ويصف الشاعر زواج والديه فيقول :

« وقد عقد لديهما في الصيف ، وأسرة الناس السطوح ، وقناديلهم النجوم . ونواخذلهم عرض الفضاء ، فكنت أشهد السماء بعيني والدي ، وأنواع نبضات قلبي الخيالي على نبضات قلبيهما ٠٠ ٠ ٠ »

وكان « القروي » في حياته متصوفاً ، ورث عن محيطه حب الطبيعة وبساطة العيش والقناعة والزهد بالمال ، وتنزه عن المرأة والتمنّع ، فكان قليل الاحتفاء بمظاهره . وقد جعلت هذه العوامل شخصية متماسكة مترفة عن الانحدار الى التهافت على المادة يقول :

بعدت همتي فعمت كنوز الأرض لما عرفت قيمة كنزي
لا أبالي شمعت أم جعت والفن شرابي وعزّة النفس خبزي

وقد آل له انحدار بعض المفتربين الى أعمال وممارسات جلبت عليهم احتقار سكان المفترب الأصليين ، فنعتهم حتى الزنوج بكلمة « توركوا » احتقاراً :

كن بينهم دجل الزمان تظل توركوا محترر
حتى العبيد السود قد سخروا بنا مع من سخر

أما عفة الشاعر القروي وصراحته كانت لا نظير لها في سير أخلاق أهل مصر ، فقد اكتفى من الدنيا بموده والكتاب ، وأنف قبول مساعدة أصدقائه المهاجرين لشراء بيت يؤويه ، فتعوّل رصيد التبرع لطبع ديوانه ، فلم يستر عيباً من عيوب طفولته الا ذكرها ، ففتح شريط حياته الخفية على الناس ، بأسلوب رفيع يكشف عن قدرته الأدبية على الإبانة والتأثير ، والافصاح عن شاعر سامية تشير الاعجاب ، وتبعث على تقدير ما اتصف به من اباء وسمو :

لو كان يדרي حسودي ما اكا بدء في الحق ما اكلته جمرة الحسد
اتني صعلت الى مجلبي على جبل مما تهدم من روحي ومن جسلدي

وفطر الشاعر القروي على عشق الجمال ، جمال الطبيعة والفن ، وجمال القيم السامية ، فتغنى بالفضيلة والحب والصداقه والعروبة والوطن وعذاب الانسان في المهجـر بأسلوب حار وصادق ، وبوتر مشدود كأوتار عوده ، مدللاً على اتساع قلبه للحياة والكون وهو الذي يقول :

لي قلب يسع الكون فلا تسالوني : ما الذي تهوى ومن؟

* * *

◎ الشاعر الياس فرحات : ١٨٩٣ - ١٩٨٠ :

في الصورة التي رسمها ابراهيم كيلاني للشاعر المهجـري الياس فرحات، يطالعنا في بدايتها قدمه لزيارة دمشق ، وكان المؤلف «الكيلاني» أحد مستقبليه، وقد توقع أن يرى شيئاً هرماً . ويطلق الشاعر من باب الطائرة ، فإذا هو رجل قوي الهمة ممتلىء نشاطاً وحركة ، ذو بنية قوية ، وجبهة عريضة فيها معانٍ التعدي والرجولة . وتنسم شخصيته الجسدية على احساس عارم بتقدير المذات والأنفة ، وعشق العربية .

ويردنا «الكيلاني» الى طفولـة فـرحـات ، فقد نشأ طفلاً مدللاً بـ فعل ما يـشتـهي فـنشأ قـويـاًـ الشخصـيـةـ ، لم تـقـمعـهاـ قـيـودـ التـرـيـةـ الصـارـمةـ ، وقد أـنـفـ أنـ يـعـملـ معـ أـخـوهـهـ بـالـتجـارـةـ ، لأنـ ذـلـكـ العـملـ لاـ يـلـامـ طـبـعـهـ .

ولد «الياس فـرحـات» في قـرـيـةـ «ـكـفـرـ شـيـماـ»ـ بلـبنـانـ عامـ ١٨٩٣ـ ،ـ وـكانـ

في طفولته نزأعاً لاماشرة الكبار ، موئعاً بالتقليد . ولم يتعلم في مدرسة الضبيعة إلا أربع سنوات ، اذ هجر المدرسة منذ الماشرة من عمره ، وكان يتأنم لأنّه لم يتابع دراسته ، ولكنه عكَ على مطالعه دواوين الشعراء ، ولعل قلة علومه قد أسهمت في الحفاظ على صفاء روحه وبعدها عن التأثر ، فجاء شعره ابن القرىحة الصافية ، وشارة عفوية محببة، ثم اكتمل نضجه الشعري بالمارسة ، وأمدته الحياة بمناصر غنية طبقت شعره وعوّضت نقص الدراسة ، وهو يقول في ذلك :

يقول في ذلك :

يقولون عمن أخلت القرىض
 وأين درست العروض وكيف
 وما كنت يوما بطالب علم
 فقلت أخلت القرىض صبيا
 ومن خطرات عليل النسيم
 ومن نظرات العسان اللواتي
 فذا الكون جامعة الجامعات
 وهرب « الياس فرحات » من العمل التجاري في لبنان ، ليمارسه مضطراً في
 بلاد الغربة ، لكنه لم ينسجم مع عالم التجارة الذي يقوم على المقايسة :
 هل يستقيم النظم والثغر لأمرئ
 بيع ويشري مرغماً ويساوم

أو قوله :

يا شاعر العرب احنن ان يقال غدا
كحل التجاره اعمي شاعر العرب
سر في سبيل العلا الشواك منفردا
ولينذهب الناس افواجا مع الذهب
ان ضاق عيشك كن مساحاً احديه
لا تاجرأ يغتني بالغش والكتب
وقد آثر تجارة الأدب على بوارها بين قوم أتعاجم لا يفهمون الشرع ولا
يتذوقونه لكن أروع ما خلفه لنا وصف معاناته في كسب لقمة العيش وتنقله بين
الدساكر فوق عربته المخلعة التي يجرها حصانان هزيلان ، لكنه آثر معاناة الغربة
عن قبول النذر في الوطن .

فنمسي وفي أجفانا الشوق للكري ونضحي وجمر السهد فيهن يلعب

ونشرب مما تشرب الغيل تارة
والشوك شوك الورد مستتر
للغتل خلف نواضر الزهر
ذكأن محسوله حكمة كانت نتيجة تجارت به كالمتنبي ، من ذلك قوله :
لو يعرف الكبش ان القائمين على
تسميته يضمرون الشر ما اكلا
وقوله :

يسعى ليسلب طاوي البطن ماجمعها
والمرء وهو يداوي البطن من بشم
وقوله :

خوفا من الدهر بل خوفا من البشر
لا يقفل البشر الأبواب ان رقدوا
ومن حكمته العملية الواقعية :
ان الفصون اذا لم تلو تنكسر
لين للزمان متى اشتلت عواصفه
وقوله :

ادنى لربك من شريف ملحد
انا لا اصدق ان لسا ملحدا
وقوله :

ما دمت معترما حتى فانت اخي
آمنت بالله ام آمنت بالعجز
وفي رباعياته يغاطب الشاعر « فرحت » أحاسيس الناس وعقولهم في غنائية
ذاتيه تقترب من عقلية الشعب ، وبهذا لم يسجن نفسه في بعر ذاتيته ، بل
أطلقها ليتواصل معبني الانسان ، فصح عليه ما قاله الكاتب الفرنسي « فيكتور
هوغو » في تأملاته :

« ان حياتي هي حياتكم ، وحياتكم هي حياتي ، انتم تعحرون ما أحياء ٠٠ »
ويرى الناقد « الكيلاني » أن أصالة هذا الشاعر لا تكمن في تفرده فحسب ،
بل في قدرته على التعبير عن القيم الإنسانية ٠

ولم يذهب ابراهيم كيلاني بعيداً في تعليل شخصية الشاعر ٠٠ فالياس
فرحات في تقديره من ذوي الطبع العاطفي ، الذين يثبتون على اوضاع
يصعب تبديلها ، وترسم العوادث في نفوسهم ترجيحاً بعيداً لا يُمحى أثره ٠

ومن هنا كانت صعوبة تكييفه مع كل جديد ، وبه تمسك هربه من غربته ووطنه وعسر تكيفه يظهر في مواقفه الجدية ، وعدم التنازل عن قيمه وضيق ساحة شعوره وصلابة مواقفه ، وربطه القول بالسلوك :

يقولون لي صادق فلانا فانه أخو نجدة يرجى لساعة ضيق
فقلت لهم هذا صحيح وإنما علو بلاني لا يكون صديقي
فالشاعر يطبق وطبيته في أصفر المواقف وأجلتها ، انه من أصحاب المبادئ
الذين يظفرون باعجاب الناس ، لكنه يتعب في حياته بسببها فهو فارس من
فرسان العروبة المعودين .

★ ★ ★

Abbas Mahmoud Alquddas ١٨٨٩-١٩٦٤ :

وينقلنا الدكتور كيلاني في رحاب كتابه الى الكاتب عباس محمود العقاد الذي جاء في عصر افتتاح على كل جديد ، وتغلّ عن النمط الموروث من العادات والتقاليد ، فكان العقاد مجدداً يؤمن بالافتتاح وتجديد الأدب والفكر .

وليس في سيرة عباس العقاد ما يلفت النظر ، فقد ولد في مدينة أسوان عام ١٨٨٩ م ودرس في مدارسها ، وكان أبوه يصعبه الى مجالس الأدباء ، ورجال الفكر من تلامذة جمال الدين الأفغاني ومريديه ، فاستغنى بصحبتهم عن متابعة الدراسة ، وتميزت ثقافته ، وتأثر بالأفغاني الداعي للإصلاح والنهضة ، وأسعفته مطالعاته بنجاح في التفكير ، والتفاعل مع الثقافة العربية العالمية ، التي عرضها في مجموعات كتبه كالطالعات والمراجعات وساعات بين الكتب والفصول .

وقد أوتي « عباس العقاد » بدافع نفسيته الاستقلال الفكري ، وساعدته وضعه المادي على التفرغ للابداع الأدبي ، فلم يعمل في الوظائف ، غير أنه انخرط في غمار السياسة فانتسب الى حزب الوفد ، لكن طبيعته ردهه الى العمل الفكري ، وعشق المبادئ الإنسانية والقيم الجمالية التي تتجاوز العصبية الضيقة ، ونظم الشعر في أول حياته لكن نزعته العقلية لم تكن تتفق

وطبيعة الشعر الذي يقوم على المشاعر ، فكان أدبه النثري أكثر قرباً ليله الى التحليل ، وجاء شعره محكماً بالمنطق والحكمة والشك بالناس ، ولم يكن من تجلّاً في نتاجه بل كان ينبع الأفكار طويلاً للاختمار قبل أن تظهر للناس . وفي هذا التحضير قضاء على المغوفية وحرارة الشعور ، فلم يكن شعره ثمرة احساسه المباشر .

آمن « عباس العقاد » برسالة الأدب ، فهو في رأيه : صلة الروح ونداء الرائد ، وجمال الحياة . وقد جهد أن يعيد للأدب رونقه بالتنبّير له والممارسة ، ويؤمن أيضاً بأن الأدب لا ينبع من المغوفية ، بل لا بدّ للأديب من جهد ومعاناة ، إلى جانب الموهبة المتميزة ، والاعتماد على الذات والطبع ، وقد بنى تجديده على الأصالة الأدبية والحفاظ على اللغة العربية والافادة من آداب الأمم الأخرى في تجديد أساليب التعبير ومناهجه وتجلى أصالة العقاد في أسلوبه النثري ، ومحافظته على استقلاله الفكري ، كـ « مَا خَصَّ الأصالة في الأدب بكثير من الأبحاث النظرية والتطبيقية .

وأما الحفاظ على اللغة فقد آمن العقاد بقدرة اللغة العربية وزياياها التي تحسن في الذوق وتزيد الماني صقلًا وبياناً ، ويتوقف على المبدع حسن الاختيار من بعراها الواسع ، مما يستلزم من الأديب أن يتزود بأسرارها وأساليبها ، وأن يملك درجات عليا من القدرة البيانية توادي ما يملكون من القدرات المقلية ، فإن الأدب لا يقوم إلا على التوازن بين الفكر والتعبير عنه ، ونبع « العقاد » في تشره بالمواءمة بين الفكر واللغة ، فهو عميق الأفكار ، واضح التعبير ، دقيق المحاكمة ، بارع في اختيار مفرداته ، ويضفي على ذلك كلّ حماسه في طرح أفكاره والدفاع عنها . وأما تجديده الذي يقوم على الافادة من الآداب الأجنبية ، فقد أفاد « العقاد » من ثقافته الأجنبية وضمّنها آراءه وموافقه ، لكنه رفض من أن يكون تجديده على أساس تبعية مستوردة ، فهو يؤكد ضرورة تمثيلنا لتراثنا قبل أن نرتمي في أحضان الفكر المستورد وتغلب به .

ومع أن اعتداد « عباس العقاد » بنفسه وشخصيته ، فإن خصومه اعتبروا له بامتلاك أداة الأدب وعُدة البحث . . . فقال مصطفى صادق الرافعي فيه ، وكاننا متعارضين فكراً وأسلوباً :

« من آفة الذين يدعون النظر في كلام الناس ، أنهم يفقدون استقلال الفكر وابتکار القریعة ، وليس كذلك العقاد ، فان رأيه لقوة عقله وسلامة طبعه يظن متميزاً من رأي الكتاب ، مهيمنا عليه ، يؤيده أو يفيده ولكن لا يسمح أن يذوب فيه أو يتأثر به .. »

● خلیل مردم بک ۱۸۹۰ - ۱۹۰۹ :

لعل أكثر الدراسات منهجية وأصالة وجدة تلك التي قدمها الناقد الكيلاني عن الشاعر السوري خليل مردم بك ٢٠٠٠ استهلها بنشائته، فذكر أنه ولد عام ١٨٩٥ في دمشق من أسرة عريقة في المواجهة واليسير، ونشأ يتيماً فاقد العناية مما خلق لديه استعداداً للكتابة والعزلة والانطواء على الذات، غير أن يتمه عصمه عن مفاسد أبناء اليسار، وانقطع عن الدراسة طفلاً بعد وفاة أبيه، إلا أنه استعراض عن التعليم النظامي يدرسون خصوصية، فتعلم بعض الفقه على الشيخ عطا الكسم مفتى سوريا، وطرفاً من الحديث الشريف على المحدث الشيخ بدر الدين الحسّناني، و دروساً في الصرف والنحو على الشيخ عبد القادر الإسكندراني، وظهر ميله للشعر في سن مبكرة، مما حفّزه على قراءة كتب الأدب ودواوين الشعراء، وأعجب بكلام الاعراب فجمع منه قدرأً نشره في كتابه «الاعرابيات» وأولع بمحيطيه الدمشقي وعاداته وتراثه فعني بأمثاله وأدبائه، فحقق ديوان «ابن عنين» وهو شاعر من «حوران» عاش في دمشق و«ابن حيوس» و«ابن الغياط» الدمشقيين. وطبعته بيئه دمشق الناعمة وغوطتها النساء برهافة الحس والرقّة، ووفرت التهذيب والهدوء والتأدب وأنس المجالسة واللطف، كما كان لنشئه الأسري الرفيع أثر في سلوكه واعتداده بنفسه وطبقته دون صلف، فلم يكن متكبراً لكنه كان متربعاً عن مخالطة الناس صوناً لنفسه من الابتذال، ولم يكن يجهد بالدفاع عن طبقته في مواجهة التبدلات الاجتماعية، ولا عارض ذلك المدى الجماهيري الذي كان يطمح إلى ازالة الفوارق الاجتماعية، لكنه لم يتخل عن الاعتزاز بالألقاب المتواترة.

لم يتأثر «خليل مردم بك» بثقافة أجنبية ، وإنما عمل وسطه على تكوينه وهو وسط ثقافي عربي خالص ، كما صقلت بيئته دمشق روحه ، فهو واحد من

شعراء المدرسة الشامية التي حدد سماتها النقاد برقه الطبع وحلاؤه جرس الشعر ، والامتزاج بالطبيعة ٠٠ وما زالت تحفظ بهذه السمات بعده وأصحاب هذه المدرسة الشامية لا يمتنون كثيراً بالفلسفة والتأمل ، وإنما يفهمون الشعر غناء رقيقاً يفيض من العاطفة والحس ٠

وأعجب « خليل مردم » بالشاعر البغتري ٠٠ فكان شاعره المفضل ، ولا عجب في ذلك فهو من أعلام هذه المدرسة الشامية ، وشعره يمتاز بالرقى حتى سمي « سلاسل الذهب » وهو شديد الولع بالطبيعة وتشخيصها ٠٠
وخلال وصيحة أستاذة أبي تمام ، فلم يعقد شعره بالفلسفة ، وإنما جاري عفويته وصفاء طبعه ٠

وهو فؤادي بل ومتعة ناظري
بين الغمايل كالفراش العائر
من منظر تفسير وحسن باهر
ويوجنه حمرا وجفن فاتر
او ازرق زاه وابيض سافر
مرأة أحلامي ومرتع صبوتي
كم جولة لي ثم حاثرة الخطأ
يقتادني في كل شطر جاذب
والزهر يلقاني بشفر باسم
من أحمر قان وأصفر فاقع

والشاعر خليل مردم مولع بالتشخيص ، في وصفه حركة وحياة وخفة ، وتصدى لموضوعات تشق على الشعراء فأجاد ، من ذلك وصفه المبدع لفراشتين في حقل ، سخّر فيه حاسة البصر ، فجاءت القطعة حافلة بالألوان والحركة :

تسر الناظرين فراشان بروض نامم تتفازان
تبرجتا بنفس من سواد على اعطاف حلة ارجوان
اذا ما ثارتا فشارستان واما قرتا فشققitan
افانيين من العركات ذافت لها عينيوعي بها سانی

كما تناول في وصفه موضوعات انسانية ، فوصف الضحية والبزار الذي يذبحها ورمز بها لذبح الشعوب ، ووصف الرقص ممهداً الطريق في هذا الباب لغيره من الشعراء كنizar القباني ، وهو في وصفه لعادات أبناء طبقة التي أخذت

بأسباب المضارة الفربية يقوّم هذه العادات الوافدة ويتساءل عن مصير المجتمع . .
لكنه لا يرفضها . وفي وصفه نزعة تسجيلية ودقة ملاحظة يقول في وصف
الرقص :

فخاصتها بيمناه والقت
على مخوض عاتقه اليسارا
كان مواطئ الأقدام نار
يقلبي فهي لا تلفي قرارا
كرنم نافر يطوي القفارا
قطورا ينهيان الأرض نهبا
فتَعْنَطُفُ تارة وتعتد تارا
اذا يعطوا لها بالجيد دلت

وله قصيدة أخرى في الرقص مطلعها :

نفح الصور فهبتوا مسرعين
مثلاً نفرت طيراً في الصغير

وختها متسائلاً :

ليت شعري ، كيف حال الراقصين
بعدما الرقص فزا ذات الصدور
من هو النفس وخلجات الضمير؟

ويبدو أن الشاعر قد انساق وراء هوى نفسه في شبابه ، وكان مولعاً بالجمال
في مختلف أشكاله ، ورأى فيها نزوعاً إلى المطلق ، فهو صورة المثال على الأرض :

تعالى المبدع القدس مثال عنه مقتبس
فما أدرى أظل الله أم نوره قبس

وحين كتب الشاعر حليم دموس وقال :
عادة التقبيل لا أقبلها فهي سـم قاتل فينا نـزل

ردّ عليه خليل مردم قائلاً :

« لا أدرى ما الباعث على نظم هذا البيت ٩٩٠٠ هل كان عقب قراءتك
فصلأ عن الجذام والبرسام ٠٠٠٠ أم مرت بخاطرك عجوز عجفاء كان وجهها شنـ
بال٠٠٠٠ » .

ويبدو أن الشاعر « خليل مردم » بعدما تجاوز سن الشباب ، وعاني من المرض ، وانقضى من حوله الأصحاب ، مال للكتابة ، وتحسر على ضياع شبابه :

يا ليتني لما شربت الكا
س صرفا لم اثن
او انتي لما انتشت
من المدامة لم افن
بل ليتني لما شمنت
الورود لم اقطف واجبن
او انتي لما ارتويت
تركت شيئا للتمني
لم اتفق يوما بعلمي
في العواقب او بظني
حتى صحوت قرعت من نسم على الاسراف سني

وهي أبيات رائعة في مراجعة الذات . على أن الشاعر قدم لأمته الكثير ، ولم يذهب عمره سدى ، فقد عاش في فترة مناهضة الاستعمار ، فنذر شعره لوطنه سوريا ، لكنه لم يتوجه بالخطاب للمستعمر بل كان يؤثر أن يخاطب قومه ، فيحثهم على الوحدة الوطنية ، ويدركهم برسالة المروية ، ومن أروع قصائده الوطنية رثاؤه للبطل الشهيد يوسف العظمة وفيها يقول :

اليوسف والضحايا اليوم كثر
ليهناك كنت اول من بدأها
فديتك قائدًا حيا وميتا
رفعت لكل مكرمة صواما
مسيبة ميسلون وان انت
اخف وقيمة مما تلاما
فما من بقعة بدمشق الا
تمثل ميسلون وما دهاما

وله في ضرب مدينة دمشق بالقنابل عام ١٩٢٥ قصيدة يقول فيها :
باتت دمشق على الطوفان من لهب
يا دين قلبي من خطب تکابده
في ذمة الله والتاريخ ما لقيت
وفي سبيل الأمانى ما تصامد

ونلاحظ في شعره الوطني نزعةً عربيةً قومية شاملة ، وكان جريئاً في تحديد السلطات المنتدبة ، لكن شعره ظل بعيداً عن التعریض ، فهو أقرب إلى نصح قومه وإرشادهم وتذكيرهم بماضيهم العربي المجيد .

وفي دراسة عن الشاعر والنحوى «المروف» «محمد البزم» يتحدث «الكيلانى» عن فترة إحياء التراث إثر النهضة القومية ، وكان «البزم» أحد أعلام النهضة من الذين خدموا اللغة العربية ، وأخلصوا لها تدرисاً وابداعاً.

يرز «محمد البزم» في تدريس مادة النحو ، أما عن حياته .. فقد ولد بم دمشق عام ١٨٨٤ م من أسرة استقرت فيها منذ مئتي عام وافدة من العراق ، ووالده «محمود البزم» تاجر أقمشة . وشب ابنه على عمل أبيه . فلم يلتحق بمدرسة ولم يتعلم القراءة إلا بعد العشرين من عمره . كان يتعاطى بيع الأقمشة في سوق المترازين مع أبيه وعمه ، ولم يحفظ من العلم غير سور قصار من القرآن الكريم ، ويتاح له أن يطلع في بيت عمه على كتاب «المستطرف» فلم يفقه منه إلا القليل ، ثم أتيح له أن يدخل المكتبة الظاهرية وهي حافلة بشتى الكتب والمراجع ، فعفّرت رؤيتها لطلب العلم ، واتصل بالشيخ عبد القادر بدران ، فقرأ عليه ديوان المتنبي ، وفصولاً من كتاب «معنى الليبب» ، وقسمًا من «دلائل الاعجاز» وكتاباً في «الأصول» ثم اتصل بالعلامة جمال الدين القاسمي ، فقرأ عليه البلاغة والمنطق .

ودرس بعد ذلك على يد الشيخ صالح التونسي ، ثم ندب مدرساً للغربية في المدرسة الشمانية . ومحمد البزم مثال للرجل العصامي الذي بنى نفسه بجهده وجهاده العلمي الذي قاده إلى اتقان اللغة العربية وتعرف أسرارها . كان «محمد البزم» معرقاً في الطول ذا منظر يهيب وحركات هادئة ، في شموخه لون من التعالي والمهابة ، ومع اتزانه كانت روحه ثائرة ، ومناجه حادأ ، وأوقعه إخلاصه للعلم في خصومات ومجادلات ، ولا سيما في ميدان النحو الذي طمح أن يجاري فيه علماء كسيبوبيه والأخفش ، وكان ينفذ إلى خصومه من الناحية العلمية ، ولم يكن يتتجو من تصرفاته ولسانه تلامذته و المعارفه وزملاؤه سوى الشيخ سليم الجندى . كان محمد البزم بروز في التحول لكنه لم يؤلف فيه ، وأخذ على نفسه التحدث باللغة الفصحى في حياته العامة ، حتى أصبح يتكلمها بيسراً عجيباً .

ويروي عنه تلميذه «ابراهيم الكيلاني» أنه كان معه في المطاعم ..
فخاطب الخادم قائلاً بلغة فصيحة :

إئنني بقصة من المهم ، وإياك أن تذر عليها شيئاً من التوابل والأفواه
وجنبي ما استطعت الحامض والزيت .. فوجم الخادم محتاراً ..

كان محمد البزم يأخذ طلابه بالشدة ، فالويل لهم إذا غلطوا ، فهو يعلق
على غلطهم بمثل قوله : ويل للمربيّة من أمثالك .. أو : ليتك رزقت الخرس ولم
تجب .. وقد ألق طلابه منه ذلك ، فكانوا يتقبلون منه الهجوم ، ويثيرونه
أحياناً ليسعوا ما يمتعهم ، وهو يرى في ذلك تطريّة للدرس ، وجذباً لطلابه
وترويجاً عنهم ، ويبدو أنه اعتمد منهجاً معيناً في تدريس النحو .. فمال إلى
تحديده وتفقيده من خلال كلياته ، وأمعن في التطبيق عليه ، وحبه إلى نفسه
طلابه بأساليب تربوية ، وكان يحسن الظن بقدرة طلابه على تمثيل هذه المادة
التي يرى أنها اهتمت بالجفاف والجمود ، فهي أدعي لإثارة تفكير الطالب وإمتعاه ..
فمن تعريفاته الطريفة للحال : هو نعٌ خالٌ منعوه فموقب بالنصب ..

كان محمد البزم يؤمن أن النحو علم ينسجم في بساطة وسهولة مع طبيعة
العرب الذين ابتدعوه ، وقد علقت به أو ضار على من المصوّر غيرت معالمه ،
وطرأت عليه أحوال نقلته من علم عمي إلى علم نظري ، ويعتقد أنه علم عملي
يجب أن يرى وليس ، ويرى «البزم» أن الأجانب هم الذين عقدوا النحو
انتقاماً من العرب ومنهم سيبويه .. وأن عملهم كان جزءاً من نزعتهم الشعوبية ..
يقول في ذلك بمناسبة تكريمه «الموري» :

واصبح نحو العرب في حوز عصبة شعوبية أرباحه ومتاجرها
فكشفت من أحوالهم كل فاضح وأحللت كلا حيث تبلو مناحرها

كان عقل «محمد البزم» أقوى من إحساسه ، وذكاً أقوى من شاعريته
وتحصيله اللغوي فوق مستوى متلقي شعره ، فناء نظمه تحت ثقل ثقافته
اللغوية التي كانت سداً منيعاً بينه وبين من يكتب لهم ، وخاصّم «حمد كرد علي»
في مهرجان «أبي العلاء الموري» بسبب بعد شعره عن معاصريه ، فقد كتب

قصيدته في المري .. وجعلها في مائة وخمسين بياناً ، وأوكل أحدهم ليقرأها ، وكانت مثلقة بالغريب ، فلم يصح إليها المضور ، وجلتهم من أنصاف المتعلمين أو من يرون أن ذلك اللون من الشعر قد تجاوزه العصر ، وساد الهرج والمرج في القاعة . فأمر محمد كرد علي بالتوقف عن إلقاءها على أن تنشر . القصيدة في مجلة المجمع العلمي العربي . وعد « محمد البزم » ذلك إهانة له ، وانتقاداً من قدره ، فعمل عليه حملة شعواء متناسياً فضله ، غير مقدر لظرفه .

ونلاحظ . أنه في شعره مقلد متبع ، تغلب عليه الصنعة ، وفيه نفس المتنبي وشدة أسره وقوه نسجه ، لكن ليس فيه موهبة المبدع المبتكر ، هو يقلده في الحكمة وطلب المعالي والغخر :

ولو شئت سيرت التواقي جحافلاً
وأوقرت اسماعاً وكان لي الفوز
وان قناء الشعر لو ماد متنها
لقومها مني ومن قلسي غمز
اذا انشد الأقوام شعري حلا لهم
وبعض قريض القوم مطعمه مزّ

كان « البزم » شخصية منطلوية على ذاتها ، لا يخالط الناس ، ولا يكثر من الأصحاب ، لكنه شارك في شعره أحداث وطنه وأمته .. فرشى قائداً للثورة العربية .. ومجند نضال البطل حسن الغراط :

يا مؤثر الموت في إنقاذ موطنه ركبت صعباً فلا لاقت خذلانا
سيرت ذكرك في الآفاق تحمله جوائب العو افراحها وأحزانا
وليس عندك من مال ولا عدد الا العزائم قد مثلن ايمانا

كما استنهض الهم ، وتغنى بأجاداته ، وتالم لنكساتها ، وعالج أدواتها الاجتماعية .. وللبزم مقالات ثورية منشورة قليلة . العدد يميل فيها إلى استخدام اللفظ الغريب ، والعبارة الجزلة ، لكن قلتها لا تؤهله لأن يُدرج بين كتاب النشر في عصره ..

في نهاية حياته ، تعاورته العلل والأوجاع ، وكف بصره قبل وفاته ..



يرى الدكتور ابراهيم الكيلاني في بحثه وترجمة حياة العلامة محمد كرد علي أنه أستاذ الجيل بلا منازع ، وصاحب اليد الطولى في بعث التراث العربي . ولد الأستاذ الرئيس محمد كرد علي في دمشق عام ١٨٧٦ م ، وتلقى علومه في المدرسة الأموية ، فالرشدية المسكونية ، ونال اهتمام ورعاية أبيه الأمي الذي حرص أن يكون ابنه متلماً ، فاشترى له خزانة كتب وهياً له أستاذة يدرّسونه ، واتصل بأعلام النهضة الثقافية في سوريا ، وعني بمطالعة كتب التراث ، وأتقن اللغة الفرنسية ، فاتسع أفق اطلاعه ، وكان قد اتخذ له مبدأ في العمل : أن يقرأ أكثر مما ي مؤلف .

أسهم « محمد كرد علي » في تحرير جريدة « الشام » في مطلع شبابه ، ورفق مجلة « المقطف » بدراسات متنوعة . وضيق عليه العثمانيون الخناق أيام السلطان عبد الحميد ، فنزح إلى مصر ، وشارك في تحرير جريدة « المؤيد » ، وأسس مجلة « المقتبس » التي أطلق اسمها على جريدة أصدرها في دمشق بعد عودته إليها إثر الانقلاب الشهانى ، وسافر إلى أوروبا . فكان ثمرة أسفاره كتابه « غرائب الغرب » ثم تولى رئاسة ديوان المعارف زمن الحكومة الفيصلية ، فعمل على اصلاح التعليم بما يلائمه روح الأمة العربية ، وطور ديوان المعارف حتى تحول إلى مجمع علمي تم تأسيسه في عام ١٩١٩ م وشغل رئاسته ، وعين وزيراً للمعارف في حكومة الشيخ تاج العسيلي ، فسعى إلى تأسيس مدرسة الآداب العليا ، ولم ينقطع عن التأليف ، فمن آثاره :

خطط الشام - رسائل البلفاء - أمراء البيان - الإسلام والحضارة العربية - كنوز الأجداد - أقوالنا وأفعالنا - المذكرات - المعاصرون في تراجم الأعلام . ويشير الدكتور الكيلاني إلى عصامية كرد علي الذي كون نفسه في ظروف سياسية واجتماعية قلقة بفضل إراداته وإخلاصه للعلم ، وتفانيه فيه ، حتى استطاع أن يبدع في شتى المجالات التي عمل فيها ، فكان صحفياً بارزاً ، ومؤرخاً متميزاً ، وأديباً طاع له البيان ، ومفكراً منفتح الأفق عميق التفكير .

ويصفه الكيلاني - وهو تلميذه - شخصية محمد كرد علي الجسمانية والنفسية ، ويشير الى صلابة مواقفه وقوته إرادته ، فيرد صلفه الى أصوله الكردية من جهة الأب ، والشركسية من جهة الأم ، فهو من النموذج العصبي ، سريع المضب ، سريع التعلو الى الرضا ، مع ما وراء ذلك من نقاط السريرة ، وقد أهل طبعه لواقف جريئة وصراحته في القول جرت عليه خصومات مع أعداء العربية ، فحارب أولئك الذين وقفوا اعثرة في مسار النهضة والتقدم .

كانت له مواقف أبرزها الدفاع عن اللغة الفصحي في وجه أنصار العامية وكتابتها المروفة اللاتينية ، ورافقتها - يومئذ - اتجاه بالطلبة لأدب اقليمي يكون أقرب تعبيراً عن روح الطبقات الشعبية ، وتورّط في هذه الدعوات أعلام بارزون ، وفند محمد كرد على حجج هؤلاء الدعاة في المجمع ، وبين خطورتها على تراثنا ، وطمأن الناس أن النهضة الفكرية والثقافية التي تشهدها الأمة العربية كفيلة برفع شأن اللغة الفصحي ، وترقي بها ، وتقرب الشقة بين العامية المحكية وبينها ، وسفه حجج المدعين صعوبة اللغة العربية وعجزها عن مجاراة العصر ، وقد جرت عليه صراحته الدخول في معارك وخصومات مع بعض أعلام عصره .

وأفضى « الكيلاني » في تتبع هذه الخصومات مما لا يفيد إلا زراعة بالعلماء الذين بلغوا من المعرفة درجة ممتازة ، لكنهم ظلوا بشراً لم يرفهم العلم الى رتبة الترفع عن المقد والتنزه عن الضفينة ، إلا أن « الكيلاني » دون نوذجاً من النقد بين عمالقة الأدب للأمانة والتاريخ .

* * *

الشاعر محمد الفراتي : ١٨٨٠ - ١٩٧٨

هو شاعر من مدينة دير الزور ٠٠ وأغفل « الكيلاني » زمن ولادته وظروف نشاته ، واكتفى بالاشارة الى شخصيته اللطيفة وأدبه الجم ، وصوفيته ٠ وتحدث عن شعره حديثاً وجيزاً ، فحلل قصيدة « يا موت » التي يقول فيها :

اليك يا موت هني جهلت ويحك قدرى
لا بد من حمل نفسى يوماً وان طال عمري

ورأى أنه لم يرق إلى حكمة «المتنبي» في الرثاء ، بل أثر الالتصاق بالحكمة الواقعية البعيدة عن التجريد .

والشاعر محمد الفراتي مع حبه للحياة ، فإنه حرم لذائذها ، فانتقل حرمانه ترفعاً وتسامياً :

فلو كنت مدحاً كشوفي لما سفت
عليَّ السوالي من شقائي ومن نفسي
إذا كنت أكتال المديح لعاهملي فاصبح من نعمي الحياة كما أمسى
ويتقد «الفراتي» مجتمعه الذي لا يقدر الموهوب ، ويمنع البسر والدعة
من لا يستحقهما :

قضيت عمري كلَّه بين الدفاتر والمعابر
أتريد مثلي أن يفكر بالرآبض والمتأجر
حسبي باني شاعر والشعر مغفرة المفاحر

نشأ «محمد الفراتي» في بيضة دينية محافظة ، ودرس في الأزهر ، وتعلم العلوم العصرية ، فجمع بين مادية العلم وروحانية الدين ، وطُوّف في الآفاق ، وشهد تقلب الأحوال ، فانطبع شعره بالحكمة حصيلة تجارب الحياة والنظر في أحوال الأمم ، وتقلب الأيام ، فينتهي به المطاف إلى اللجوء للخالق هرباً من نزعات العقل وشكوكه :

أجذبني إليك يا قوة الله إلى حيث تنطوي الأكونان
أجذبني فقد سنت مقامي مع عقلي وشفتي الهجران
إن قلبي إليك ييرأ من عقلٍ سليب أذلة الغسوان

وقادته نزعته الدينية إلى صوفية رستت لديه بعد شكوك وحيرة وتساؤلات قادها تأمله بأحوال الكون والوجود :

اني أسفت على الأيام اقطعها
بالترهات وفيما ليس من شغلي
ولا استفدت سوى الآلام من عملي
مما جنحت سوى الآلام من عيشي
فمررت الهو بها كالطفل بالوحش
معارف وعلوم كم شقيت بها

يا ضيعة العمر اذا فنيت مع عظمه
بالقال والقيل والتعليق والعدل
علمت ان سبیل الحق واحدة
فلم ضلت بالآلاف من السبل

وندر « الفراتي » قلمه ليقطة أمته ومسايرة الركب المضاري ، لكن شعره
ظل خافتًا لم ينفذه الى أسماع الجماهير في زمان بُرُز فيه شعراء كالكاظمي
والرصافي وشوفي والزهاوي وحافظ ابراهيم .. من سدوا عليه منافذ
الشهرة ، مع أن شعره متعدد الأغراض والاتجاهات ، يحاكي شعر القدامى في
بساطته وعفويته وجزالة سبكه ، فهو شاعر مطبوع ، غنى في غير سربه ، وجاء
في زمان تحول فيه الشعر وتبدلاته أذواق الناس ، إلا أنه أثرى الأدب العربي
بترجماته الشعرية لبعض آثار الشعر الفارسي كالبستان للشاعر سعدي
الشيرازي ، فأدى للأدب خدمة جليلة .

* * *

هذه بعثة عن كتاب « شخصيات وصور أدبية » للناقد الدكتور ابراهيم الكيلاني
ترسم فيه خطى غره في الترجمة لأدباء وشعراء .. وقد أجاد في اختيار وتقدير
ترجمات لأعلام أدبية من سورية .. ندر ان نجد لها ترجمة وافية شاملة في مصادر أخرى،
وبذلك فقد قدم خدمة جليلة لأدبنا المعاصر . وقد اختارت من الكتاب الشخصيات
الأدبية الذين كانت ولادتهم في نهاية القرن التاسع عشر .. ويمكن تصنيفهم مع أعلام
التراث العربي القريب .

دمشق : عبداللطيف ارناؤوط

* * *

سِمْا طِلَّ الرُّوعِ

عبد الوهاب الشیخ خلیل*

والأمر أعجز الباب الآلى نظموا
أم أذكى القلب والأشواق تضطرم
هيا ببنسي جلال البيت والحرم
في صحبة فتية يحدوهم الشم
فان قطعنا سعيقاً لفتنا علم
على الليان وتشجو ركبنا القسم
من الذنوب نفوس شوقيها عرم
لم يبق إلا الرجافى القلب والندم

من أين أبداً حار الفكر والقلم
الذكر الدرب كم وادٍ مررت به
قال الرفاق نعج البيت قلت لهم
وسمني الدرب في سلك الحجيج ضعى
نطوي الدروب وتطويننا معاطفها
لليل" وليل" نجوب الوعر نرغمه
حتى وصلنا الى الميقات فاغتسلت
وأسلت أمرها تائهة

بيان إحرامها والهدي والكرم
ومن شذاها رياض الخلد تبسم
وكم تلاقت على أصدقائها أمم
وقد تسابق منا القلب والقدم
روح الطواف وركن حوله ازدحموا
إلى النجاة فيما يشراهمو غنمها

سَرَنَا إِلَى اللَّهِ أَرْوَاحًا يَغْلُفُهَا
نَقُولُ لَبِيكَ وَالرَّحْمَنَ يَسْمِعُهَا
«لَبِيكَ» ۰ ۰ «لَبِيكَ» كَمْ ذَابَتْ بِهَا مَهْجُ
لَبِيكَ وَحْدَكَ جِئْنَا نَبْتَغِي صَلَةً
وَرَاعَنَا مَحْفَلُ الْعِجَاجِ يُضَغِّبُهُ
تَعْلَقُوا بِعِجَالِ الْعَرْشِ تَوَصَّلُهُمْ

• شاعر من سوريا (*)

غَيرِ الْفَوَادِ وَدَمْعُ الْمَيْنِ يَنْسِمْ
مِنْ غَيْرِ قَوْلٍ ، لَقَدْ جَانَافِيَ الْكَلْمَ
مَا كَنْتُ أَحْسَبُ أَنَّ الشَّمْلَ يَلْتَهِ
فَهُلْ مَلَذٌ لَدِيْ رُكْنِيْكَ اَعْتَصَمْ
فِيْضُ الصَّفَاءِ بِصَغِيرِ الْوَهْمِ يَرْتَضِمْ
وَذَبَتْ فِي دَارَةِ الطَّوَافِ لَا جَسَدْ
أَطْلَوْفَ بِالْكَعْبَةِ الْفَرَاءِ أَسَالَهَا
يَا قَبْلَةَ اللهِ إِنِّي جَنَّتْ مُحْتَسِبَا
فَالنَّفْسُ تَهْفُو وَزَيْفُ الْعَصْرِ يَغْدِعُهَا
إِنِّي سَئَمْتُ حِيَاةً فِي تَنَاقِضِهَا

* * *

خَوْفُ الْمَقَابِ وَفِي رُوَاعَاتِ النَّهَمِ
لَا تَأْسِ وَيَحْكُ وَاغْنَمْ مِثْلَمَا غَنَمُوا
هُنَا الْمَلَائِكَ قَدْ لَبَّوْا وَقَدْ خَدَمُوا
لَعْلَهُ ذَنْبُكَ فِي الْأَعْتَابِ يَنْعَدِمْ
وَرَحْتُ أَبْكَى بَكَاءَ الْطَّفَلِ رَوْعَهُ
حَتَّى أَفْقَتْ عَلَى حِسَّ يَؤْبَنِي
هُنَا النَّبِيُونَ قَدْ لَاذُوا بِخَالِقِهِمْ
فَاسْفَعْ فَوَادِكَ فِي اَعْتَابِ حَضْرَتِهِ

* * *

لَمْ يَبْقِ إِلَّا فَوَادِ هَائِمٌ وَفِيمْ
يَا قَبْلَةَ اللهِ مَا غَيْرِ الرَّضَا عَدِمْ
وَهَمْتُ أَحْتَضَنَ الْأَرْكَانَ الْثَّمَاهِ
يَا قَبْلَةَ اللهِ فِي رَكْنِيْكَ عَاقِبَتِي

* * *

يَا لَيْتَ صَحْنِيَّ فِيمَا ذَقْتَ قَدْ عَلَمُوا
إِنِّي بِبَابِكَ يَا غَفارَ مُعْتَصِمْ
فَالْفَكَرُ يَهْزِمُنِي طُورًا وَيَنْهَمُ
إِنْ لَمْ تَقْلِنِي فَانِ الْجَبَلِ مُنْصَرِمْ
وَشَاءَ صَحْنِيَّ إِنْهَاءَ الطَّوَافِ مَعَا
نَاجَيْتُ رَبِّيَ بِقَلْبِي ذَائِبًا بِفَمِي
أَغْفِرْ ذُنُوبِي وَانْصَرَنِي عَلَى فَكَرِي
تَعْشَرُ الرَّأْيِ فِي ذَهْنِي فَخَذْ بِيَدِي

* * *

مِنَ الضَّمِيرِ تَهَاوِي وَالْمَهْدِي نَسِمْ
فِيْهِ السَّكِينَةُ وَانْدَاحَتْ بِهِ النَّعْمَ
غَبَارُ أَوزَارِيَّ الْجَلَّسِيَّ وَأَبْتَسِمْ
وَأَقْبَلَتْ نَسْمَةُ عَذْرَاءَ صَافِيَةَ
فَلَامَسَتْ مَوْطِنَ الْأَسْرَارِ فَازَدَهَرَتْ
وَعَدَتْ أَنْفَضَ عَنْ جَنْبِيَّ مُغْتَبِطَا

نشاطات في خدمة التراث

حلب .. وطريق الحرير

على القيمة*

مدينة فريدة من نوعها في العالم ، فهي قديمة قدم التاريخ ،
حلب وهي تحمل كل سيماء المدينة المعاصرة ، وكانت موجودة ومزدهرة
في كل مراحل التاريخ ، ولعبت أدواراً هامة في تاريخ الشرق العربي
القديم وفي تاريخ العرب المسلمين .. أنها حلب أو حلبا ، وتعني النحاس
باللغة العمورية ، فقد كانت منذ القديم مركزاً لتجارة النحاس ، وورد اسمها
(أرمان) أو (أرماني) في عهد سارغون الأكادي منذ عام (٢٥٠٠) قبل الميلاد .
وأصبحت هذه المدينة عاصمة لملكة (يملاخ) واستمرت مزدهرة في
مراحل التاريخ المختلفة ، ومحطة هامة في طريق العبرir العالمي .

ومن خلال هذه الأهمية والخصوصية النادرة دفعت وزارة الثقافة في نطاق نشاطاتها
المتعددة للعقد العالمي للثقافة الذي أقرته منظمة اليونسكو لإقامة الندوة الدولية: حلب
وطريق الحرير، التي رعىها السيد الرئيس المناضل حافظ الأسد، وأشرف على إلإشراف عليها المديرية
العامة للأثار والمتاحف، وذلك بين ٣٠ و ٤٢ يونيو ١٩٩٤، وشارك فيها (٤٢) باحثاً ومتخصصاً
ومؤرخاً قدموا من بعض الدول العربية والأجنبية بالإضافة إلى سورية .

مواضيع هذه الندوة الدولية كانت حول أربعة محاور :

● المحور الأول :

– الوسط الطبيعي لمنطقة حلب : معطياته المغرافية ، الجيولوجية ،
البيومورفولوجية ، والبيئية القديمة .

(*) كاتب وباحث في التاريخ وأثار ، عمل في حقل الآثار والمتاحف أكثر من شرين عاماً ، ونشر العديد من الكتب
والدراسات الهامة عن تاريخ وأثار وفنون وحضارة سوريا العربية، يعمل حالياً معاوناً لوزير الثقافة في سوريا .

● وكانت أولى هذه المحاضرات للدكتور عبد الرحمن حميده حول «المعطيات الجغرافية عن منطقة حلب» الذي تطرق إلى ما تتمتع به هذه المنطقة من وضع جغرافي متميز على صعيد الاتصالات الأرضية بين بلاد ما بين النهرين والخليج العربي من ناحية ، وبين البحر المتوسط الشرقي من ناحية أخرى ، وذلك بعد اجتياز مصر بيلان الذي لا يتجاوز ارتفاعه (٦٠) متر والذي يقود بسهولة إلى اسكندرونة بعد اختراق سهل العمق .

وتبدو حلب في وسط منطقتها وكأنها المنكبوت في قلب شبكتها المؤلفة من شبكة طرق ، مما منعها موضعًا ممتازاً كعقدة موافلات ونواة تجارية بين القارات الثلاث في العالم القديم ، وإذا كانت المواد الأولية المدنية لا تتوافر بكثرة في هذه المنطقة ، فإن المواد الأولية الزراعية تقدم أساسات صناعية نشيطة ، وفضلاً عن ذلك فإن الحركة التجارية البرية والبحرية كانت تقدم لها منذ أقدم العصور المواد الأولية والشمينة من الشرق ، ولا سيما العرير نظراً لوقوعها على محور تجارة هذه المادّة .

● وبحث «بول سلانلافيل» في التغيرات المناخية في سوريا والشرق الأدنى خلال العشرين ألف سنة الماضية » فأكد على وجود علاقة تبادلية بين التغيرات المناخية والتطور الديمغرافي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي في المجتمعات الإنسانية ، فالمستوطنات تتراجع نحو المناطق الأقل سوءاً ، وتتضاءل في الفترات التي يسود فيها المناخ ، في حين . وبحسب المناخ تزداد كثافة الواقع وتتوسّع إلى أبعد من حدود مناطق العصارات المطرية ، ومن جهة أخرى ، نجد أن التطور في المجتمعات الإنسانية غالباً ما يتفاوت مع الفترات التي يصبح فيها المناخ غير ملائم ، وكان الإنسان يدفع دفعاً ليجد حلولاً للاستخدام الأمثل للمكان والأرض (الانتقال من البداوة إلى الاستقرار حصل في فترة جافة في بداية الآلف الثامن قبل الميلاد) وهذا يعني أن التغيرات المناخية قد شجعت التطور الاجتماعي الاقتصادي وزادت من سرعته في المجتمعات الإنسانية المشرقية .

● ونقف مع ملاحظات « جاك بيزانسون وبرنارد جبير » حول تبدلات المحيط «الجيوب» - بيئي في سوريا الشمالية ، لنصل إلى دراسة الوسط الطبيعي لحلب وموقعها الجغرافي مع الدكتور عادل عبد السلام ، فيشير إلى أهمية الموقع

الجغرافي الفريد الذي جعل من حلب مركزاً تجارياً واستراتيجياً بارزاً، ويتميز بالخصائص التالية :

- ١ - يبعد موقع حلب مسافات متقاربة عن كل من الفرات (شرقاً) والبحر المتوسط (غرباً) وعن جبال طوروس (شمالاً) والجبال الوسطى (جنوباً) .
- ٢ - أرض موقع حلب منخفض شبيه بوعاء واسع ترتفع حافاته تللاً بارزة حوله ، تعلو في الشمال والغرب وتتخفّض في الجنوب والشرق ، يشّقه وادي نهر قويق في الغرب ، وتوسط هذا المنخفض تلة كبيرة ، وأخرى غربيها ، مما تلّة القلعة وتلّة حي العقبة الأصفر التي كانت الموقع الأول لمستوطنة حلب ، مما أكسب موقعها قيمة استراتيجية كبيرة وأمن لها حماية طبيعية ودفاعاً سهلاً .
- ٣ - يفرض وضع التضاريس وتوزيعها على الطرق الرئيسية القادمة من الشرق إلى شمالي سوريا أن تلتقي في موقع حلب .
- ٤ - تتصل منطقة حلب بآسيا الصغرى وبشغور البحر المتوسط بمرات ومفازات تخترق الجبال المحيطة بها ، وبالتالي فإن الطرق المؤدية إليها تخرج من حلب كما تلتقي القادمة منها فيها .
- ٥ - حلب في موقع تلتقي فيها أقوام الجبال مع سكان السهول والهضاب الشامية والرافدية ومع أقوام البحر المتوسط ، تتبادل فيها الأفكار والثقافات في أثناء تبادل المنتجات والسلع التجارية ، فهي موقع تجاري مهم أمين محمي ، ومكان لتمازج الحضارات منذ القدم .

ان وجود مدينة حلب على مفترق الطرق التجارية الرئيسية أقدم من وجود طريق العريير ، فطريق العريير من بدايتها حتى نهايتها كانت في أساسها موجودة أخذت اسمها من سلعة العريير التي نقلت على امتدادها في زمن ازدهرت فيه صناعته وتجارته وكثير الطلب عليه ، لذلك طريق العريير هي واحدة من شرائع التجارة القديمة المارة بحلب ، وجدت بتل العريير ودامت بعد تراجع أهميتها وانتشار انتاجه خارج الصين ، وكان لحلب دور بارز في جذب تجار سلعة

العرير والقوافل الناقلة لها ولسلع أخرى وتنشيط حركة التبادل على الطرقات التجارية عامة ، وعلى طريق العرير خاصة .

● ويقوم محمد بهجت قبيسي بتفسير بعض أسماء الأماكن الجغرافية القديمة في منطقة حلب وتغومها ، فقد ثبت بالخبرة لا الخبر أن أسماء القرى والمدن القديمة قبل دخول الإسكندر المتدوني للمنطقة في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد كانت تمثل ثلاثة مدلولات :

- ١ - أسماء ذات دلالات طبيعية (حلب - دفنا (انطاكية) وابل) .
- ٢ - أسماء ذات دلالات عسكرية مثل حرستا وبقرحا وماري وتتوول وتلمر .
- ٣ - أسماء ذات دلالات دينية مثل : بليرمون وسرجلا وببيلا .

أما الأسماء ذات الدلالات الشخصية والانسانية مثل : انطاكية على اسم انطليوس وسلوقيا على اسم سلوقيوس ولاودكيا على اسم لاودكيا وأفاميا على اسم آبامي . . . فهذا النوع من التسميات لم يعرف إلا بعد فترة الاحتلال الاغريقي للمنطقة ، ولما دخل العرب العدانيون إلى المنطقة فان أصحاب البلاد أنفسهم أعادوا التسميات القديمة الى سابق عهدها بعد فترة غياب دامت زهاء الألف سنة .

● ويبرز عبد الهادي التازى ، أهمية رحلة ابن بطوطه بكونها تراثاً عربياً أصيلاً ، بما يمثله من بعد دولي واسع ، فقد عايش ابن بطوطة طائفنة من الأمم وحاور عدداً من الحضارات ، ومن ثم كانت رحلته مرجعاً لكل من تهمه خريطة عالم الأمس وتهمه كذلك محطات العرير .

● المحور الثاني :

حلب عبر العصور (السمات العضارية العامة)

● أولى محاضرات هذا المحور كانت للدكتور سلطان محيسن عن « منطقة حلب في العصور العجرية » حيث تناول بالبحث المنطقة الممتدة من جرابلس وحوض الفرات الأعلى في الشمال الشرقي إلى وادي عفرين في الشمال الغربي هبوطاً إلى حوض نهر قويق والمتخ ومنطقة خناصر ، فسبعة الجبول في

الجنوب ، وقد جرت على امتداد هذه المنطقة أبحاث وتنقيبات أثرية تناولت عصور ما قبل التاريخ في اطارها الجغرافي والجيولوجي الرباعي وتبين أن منطقة حلب ذات الموقع المتوسط بين المناطق الساحلية في الغرب وسهول الجزيرة والفرات في الشرق ، قد توافت فيها مقومات وجود الإنسان الأول من ماء وغذاء وحيوان وخامات صوانية جيدة ، وأنها أعطت حضارات ذات صفات مشتركة بين المنطقة متوسطية السكن من جهة، ومنطقة الفرات من الجهة الأخرى .

لقد تكاملت الأبحاث والنتائج العلمية التي قام بها مجموعة من العلماء ، وأعطتنا صورة مفيدة عن انسان العصور العجriة في منطقة حلب ، يمكن ايجازها على النحو التالي :

١ - العصر العجري القديم الأدنى (الباليوليت الأدنى) : لم يعثر - حتى الآن - في منطقة حلب على دلائل أكيدة تعود الى بداية العصر العجري القديم الأدنى ، وتعاصر ما هو معروف من مناطق أخرى كحوض نهر الكبير الشمالي أو حوض العاصي .

٢ - العصر العجري القديم الأوسط (الباليوليت الأوسط) : في هذه المرحلة التي تعود الى نحو (١٠٠٠٠) سنة خلت ، ظهر انسان النياندرتال الذي انتشر وبكثافة في كل أرجاء سوريا والمشرق ، وتعدّ منطقة حلب من أهم وأغنى مناطق هذا العصر ، فقد عثر على آثار النياندرتال في الكثير من الواقع ، بعضها على السطوح أو ضمن المصاطب النهرية وفي المقاور والملاجئ الجبلية ، وتعدّ الأدوات الحجرية الشاهد الأهم من تلك الواقع وهي من النوع المسمى اللفلوازي - الموستيري ، وفيه انصال وحراب ومقاحف متقدمة الصنع ، وجدت هذه الأدوات في وديان الفرات والساجور وقويق وحتى منطقة خناصر وفي وادي عفرين .

وتعدّ مغارة « الديدرية » في وادي عفرين ، الموقع الأكثر أهمية ، فهي اضافة الى معطياتها الأثرية والنباتية والحيوانية قدمت ولأول مرة من سوريا بعض أجزاء هيكل عظيم لانسان النياندرتال .

٣ - العصر الحجري القديم الأعلى (الباليوليت الأعلى) : لا وجود لآثاره في منطقة حلب ، وتعود آثاره إلى نحو (٤٠٠٠) سنة حلب .

٤ - العصر الحجري الوسيط (الميزوليت) : ان وادي عفرين أهم منطقة أعطت دلائل حضارات المصر الحجري الوسيط ، وتعود إلى نحو (١٣) ألف سنة قبل الميلاد .

٥ - العصر الحجري (النيوليت) : وجدت آثار هذا العصر في العديد من التلال الأثرية التي تضم بقايا القرى الزراعية الأولى سواء في حوض قويق والجبول أم في وديان الفرات والساجر ونبج أو في وادي عفرين .

● وقدمت «يسرى الكجك» دراسة أولية عن مراكم الاستيطان الأولى في حوض الساجور ، حيث أخذت آثار الاستيطان تظهر في هذه المنطقة بدءاً من المصر الآشولي الأولى في الباليوليت الأدنى ، وقد استقر الإنسان في المناطق القريبة من السطوح الفنية بالصوان والقرية من المياه ، فأقام بكثافة واضحة في منطقة منبع وبخاصة على أطراف نهر الساجور ووادي رميلة ، كما ظهر في مواقع عرب حسن ، شيوخ فوكانى ، شيوخ تحانى ، حلونجي ، حمام كبير ، محسنلي ، وغيرها ، وتصل إلى نتيجة مفادها أن منطقة منبع عموماً وحوض الساجور خصوصاً كانت منطقة زاخرة بالحياة منذ العصر الجوى القديم
قدم الإنسان المنتصب لسكنها وتوسّع في هذا الانتشار الإنسان النياندرتالي ، ولم يهجّرها الإنسان العاقل بعد ذلك ، إنما استمر في التحرك بينها وبين وادي الفرات وسهل العمق وجبل سمعان ، وبذلك نلاحظ أن محافظة حلب الحالية كانت عامرة منذ قدم الأحقاب الإنسانية .

● ويبينت جاك كوفان عن «دور الفرات الأوسط في تكوين المجتمعات الزراعية - الرعوية الأولى وانتشارها» فيشير إلى أن الفرات الأوسط السوري بالإضافة إلى واحة دمشق ووادي الأردن كانت المنطقة الأولى في العالم الذي نشأت فيها القرى الزراعية منذ (٩٨٠٠) سنة ، وقد لوحظ في موقع المريبيط بداية لزراعة غير مدجنة منذ بداية العصر النيوليتي ، ومنه انتقلت إلى موقع أخرى ، وأصبح الفرات الأوسط مركزاً للمضاربة باكرة كانت الأولى من نوعها في العالم .

● وقدم أنطون سليمان دراسة عن «حلب في منتصف الألف الثالث والثاني قبل الميلاد من خلال حفريات الأننصاري» فألقي الضوء على مدى التطور التاريخي والمضارى لمدينة حلب ويوضح علاقتها الثقافية بالدول المجاورة .

وموقع الأننصاري يحلب أحد أهم الواقع الأثرية لمضاة شمال سوريا ، أسفر عن نتائج تقول بأن العلاقات التجارية بين دول مصر ، وبلاط ما بين النهرين والأناضول لا يمكن أن تكون إلا عن طريق شمالي سوريا ، حيث كانت هناك في الألف الثاني قبل الميلاد طرقاً للتجارة البرية ، والطرق الرئيسية كانت تمتد محاذية مجرى الفرات وتتفرع بعد وصولها إلى إيمار «مسكنة القديمة» إلى الساحل والجنوب ، والذي يقع على الطريق الجنوبي من مدينة حلب ، وكان الآشوريون والبابليون بحاجة ماسة إلى أخشاب وحجارة جبال الأمانوس وطورووس وجبال لبنان منذ عهد سارجون الأكادي ، مما يؤكد أهميتها بالنسبة لبلاد الرافدين ، وما يميز مستوطنة الأننصاري عن بقية المراكز الحضارية في الشرق ، كونها تقع في سهل مستو وبالقرب منها تقع هضبة الراموسة ومدينة الحمدانية الحديثة ، وينفرد هذا الموقع بصناعة الفخارية المحلية ذات النوعية العالية ، وقد كانت الأننصاري من أكبر المراكز الحضارية المستقلة في شمال سوريا ، وربما كان هذا المركز هو مدينة حلب القديمة نفسها ، والتي كانت تعرف باسم أرمان أو يمحاض ، ولعل هذين الاسمين هما تسمية قديمة واحدة لمدينة حلب الحاضرة.

● الدكتور «هورست كلينغل» قدم عاصفة عن «إله الطقس السوري والعلاقات التجارية» حيث كانت حلب مركزاً لعبادة إله الطقس الذي عبد في مناطق عديدة من سوريا كانت تعمد على الزراعة ، وقد عُرف هذا الإله بأسماء عده من الألف الثالث قبل الميلاد ، وقد ظهر لأول مرة في الرقم الإبلائي وُعرف في ذلك الوقت باسم (حدا / حدو) ولا يمكن تحديد مكان وجود معبده بشكل مؤكّد في مدينة كثيفة السكان كحلب .

سجلت أهمية إله الطقس في حلب بشكل واضح ، في نصوص ماري العائدة للقرنين التاسع والثامن عشر قبل الميلاد ، وهو مذكور كإله المدينة الذي قدم له الملك «زمري - ليم» تمثاله ، وتمتع كهنته باحترام حكام سوريا وبلاط ما بين النهرين ، ثم ظهرت أهميته في نصوص الأناضول ، فالمملوك الحثي «حاتوشيلي»

الأول (القرن السابع عشر قبل الميلاد) تباهى بأنه أسر تمثال إله الطقس الملبي، ثم نصب التمثال وعبد في العاصمة «حاتوشـا» لقرون عديدة ، أما في سوريا فقد عرف هذا الإله من ملك آلاخ «إدريمي» الذي كرس كالله وإله والده ملك حلب ، كما اعتبر ملوك آلاخ أنلاحقون (آلاخ مدينة لا تبعد كثيراً عن مصب العاصي) هذا الإله كأهم ألهتهم ، كما هو واضح في نقش اختامهم ، ونظرًا للدور الكبير الذي لعبه الموريون في شمال سوريا ، أطلق على إله الطقس الاسم الموري «تشوب» .

● فاروق اسماعيل ، كانت عاصمته عن «المركز التجاري (كاروم) في الألف الثاني قبل الميلاد» فمع نمواً لفعاليات التجارة وتنوعها برزت الحاجة إلى وضع أساس تنظيمية للحياة الخاصة بها ، ويد المركز التجاري (كاروم) الذي أسسه الآشوريون في كانيش في منطقة الأناضول ، أبرز مراكز الألف الثاني قبل الميلاد ، وقد عثر فيه على مئات الوثائق المسماوية المدونة باللهجة الآشورية القديمة ، وهي تصور بجلاء دقة العلاقات والنشاطات التي كانت تمارس هناك ، كما انتشرت تلك المراكز في سوريا أيضاً ، فقد أنشأ التجار الذين كانوا يتنقلون بين بلاد بابل وسوريا الداخلية مركزاً هاماً في مدينة ماري ، كما تشير الوثائق المكتشفة في تل ليلان (شيخنا) (شوبات انليل) إلى وجود مركز تجاري فيها ، وكان يجمع القوى التجارية في منطقة مثلث الماء الابور . ومن خلال نصوص ماري يتضح أيضاً أن مدينة قطنه (تل المشرفة) كانت ملتقى التجارة ، وكانت تضم مركزاً تجارياً ، وأن مدينة إيمار (مسكناً) كانت مرفأ نهرياً ومحطة تجارية تربط بين شرق الفرات وغربه .. وكان النشاط التجاري الذي يمارس فيه الأسواق التجارية في المدن الكبرى الواقعة داخل البلاد مثل حلب ودمشق وبيروت

● ويدرس «فيصل عبد الله» (دور السلالة الملية الأولى في تجارة الشرق وشمال سوريا في القرنين الثامن عشر والسابع عشر قبل الميلاد) فيتطرق في محاضرته إلى تميز حلب في هذه المرحلة بالقوة .السكرية والتجارية على حد سواء ، وقد سجلت مئات النصوص الاقتصادية كميات كبيرة من المواد الأولية التي ترسل إلى ملوك حلب وت تخزن في مستودعاتهم ، يعاد تصديرها باتجاه البحر (يعـرـاـيجـهـ) أو شبه جزيرة الأناضول .

المحور الثالث :

التجارة ، ظهورها وتطورها عبر العصور

● من الأبحاث الهامة التي تطرقت لهذا الموضوع ، كانت معاصرة الدكتور «عيد مرعي» الذي بحث في (التجارة بين ماري وحلب في القرن الثامن عشر قبل الميلاد) من خلال محفوظات ماري الملكية ، التي تعرف من خلال ترجماتها دور سوريا في القرن الثامن عشر قبل الميلاد وبخاصة في المجال التجاري حيث تتحدث النصوص عن المنتجات المختلفة التي كانت ترسل من حلب إلى ماري أو بالعكس مثل : الخمر والمسل وزيت الزيتون والأخشاب المختلفة التي كانت ترسل من حلب إلى ماري أو بالعكس مثل : الخمر والمسل وزيت الزيتون والأخشاب المختلفة التي كان المرء يحصل عليها من المجال والمناطق القريبة من يماغض كالأمانوس وطوروس ، وتمر عبر مملكة يماغض متوجهة إلى ماري وببلاد ما بين النهرين .

وقد لعب نهر الفرات دوراً هاماً في عملية التبادل التجاري والمواصلات بين ماري ويعاض بشكل خاص ، فالبضائع والمنتجات كانت تنقل عبره في سفن متخصصة بذلك ، فنوصو ماري تذكر سفناً متخصصة في نقل الخمر وأخرى متخصصة في نقل العبوب وثالثة متخصصة في نقل الجواريش ، وكانت ايمار (مسكنة حالياً) بمثابة ميناء لمملكة يماغض على نهر الفرات تؤمها السفن ويقصدها التجار وتؤلف عقدة مواصلات نهرية وبرية هامة بين بلاد الراfibين وشمال سوريا حيث يمر عبرها الطريق البري القادم من ماري والمتوجه غرباً إلى حلب فسواحل البحر المتوسط الشرقية .

ويشير الباحث إلى أن التجارة بين ماري وحلب كانت تجارة ملكية، فالمملوك هم الذين يرسلون أو يتلقون البضائع والمنتجات المختلفة كما يظهر من النصوص . أما العمليات التجارية فيقوم بها التجار ولكن بتكليف من ملوكهم .

● وقدم «جان شارل» والتي دراسة عن «حلب وطرق تجارة الشرق

الاغريقية والرومانية » تطرق فيها الى استمرار دور حلب التجاري في المهددين الهيلينستي والروماني ، حيث عرف سلوقيس نيكاتور أهمية حلب فامن منطقة العبور الاجبارية التي تتمتع بها حلب في ملتقى طريق التجارة الرئيسي في آسيا الوسطى وحوض دجلة والفرات ٠٠

لقد احتلت المدن الاغريقية والرومانية النقاط التجارية الرئيسية مكان عواصم الآلف الثالث والثاني قبل الميلاد ، ومراكم التجارة القديمة في سوريا الشمالية ، فقادت لاوديسا قرب اوغاريت ، وسلوقية قرب المينا ، وأفاميا فوق نيبا وبيريه فوق حلب ، كما أخذت أنطاكية دور آلااخ (تل عطشانة) واحتلت دورها الاقتصادي الهام ٠٠ وما كانت المراكم التجارية لم تتغير أبداً على طريق الشرق فان نشوء هذه المدن ، ارتبط بعملية الاستمرارية لا بعملية التغيير ، ويتبين من دراسة أسلوب توزعها أن خطة سلوقيس لم تكن عسكرية ، فهو لم يتقدم في منطقة صحراوية على الرغم من قلة الشواهد والتنقيبات الأثرية ، واذا لم تكن حلب الآلف الأول قبل الميلاد بنفس ازدهارها في الآلف الثاني قبل الميلاد ، الا أنها لم تكن مجرد أنقاض عند تأسيسها وتوسيعها من قبل سلوقيس ، وأما التل الذي نشأ مكان معبد حدد / تшوب ، فقد أصبح اكروبول المدينة الاغريقية الرومانية وفق مخطط مشابه لمحطات مدن معاصرة له مثل آفاميا ، ثم لم يلبث أن تحول إلى قلعة المدينة في القرون الوسطى ٠

لقد كانت حلب / بيريه / نقطة اجبارية على الطريق الواصلة بين أنطاكية وهيرابوليس والفرات واستمرت بازدهارها في زمن الرومان حيث انتقلت إلى قلب المقاطعة الرومانية ، وبعد معركة اليرموك والفتح العربي كانت الأولى في سك العملة في عهد الخليفة عبد الملك / ٦٩٣ - ٦٩٤ م / وهذا دليل آخر على الاشعاع الاقتصادي الدائم لهذه المدينة القديمة ٠

● ودرس محمد زيد موضع « النشاط التجاري في حلب خلال القرنين الرابع والخامس للهجرة / العاشر والعادي عشر للميلاد » فتطرق الى دور حلب في عهد الروم الغزاوة وغيرهم ، حيث غدت أثناء النفوذ البيزنطي عليها أحد المنافذ الرئيسية الهامة لتجارة بيزنطة مع العالمين العربي والإسلامي في الشرق ، وحلت بذلك محل أرمينية التي فقدت أهميتها في هذه الفترة ٠٠٠

ويشير الى وجود أماكن مقدسة ومشاهد ومتاررات في حلب دفعت بالكثيرين للتوجه اليها وهذا مما ساعد على التجارة ونشاط عملياتها التجارية ، وطرق الى دور الاسلام وتعاليمه وحجمه على العمل التجاري وأثر ذلك في نشاط العركة التجارية في حلب وغيرها من المدن الشامية .

وكانت محاضرة «نعمان جبران» عن «حلب ، محطة على طريق العرير وأثر الصليبيين والمغول عليها » . فأشار الى أن الطرق التجارية كانت تتأثر بالتطورات السياسية والعسكرية وتبادل القوى السيطرة على أهم المعاابر التجارية ، ومن هذا المنطلق يرصد الآثار الإيجابية والسلبية التي أثرت على حلب كمحطة على طريق العرير من خلال تصارع القوى المختلفة حول الاستفادة من المناطق التي تلعب دوراً هاماً في النشاط التجاري ويدو ذلك أكثر وضوحاً في فترة الغزو الصليبي لبلاد الشام ، حيث كان من ضمن استراتيجياتهم السيطرة على المناطق المهمة استراتيجية واقتصادياً والعمل على قطع الاتصال أو اعاقة بين المناطق الإسلامية ، ضمن هذا التوجه كانت أنطاكية والرها من المناطق الإسلامية ، ضمن هذا التوجه كانت أنطاكية والرها من المناطق الصليبية المحتلة التي هددت اقتصاديات حلب وطرق تجاراتها ، فالرها مثلاً شكلت ولدة (٤٠) سنة تهدىداً للطرق التجارية بين حلب والموصل علاوة على الغارات الصليبية المتكررة على مناطق حلب وما رافق ذلك من ضربات لاقتصاديات المنطقة .

وبعد حركة الافاق العربية الإسلامية منذ عهد عماد الدين زنكي شكلت حلب ومناطقها نقطة هامة في العسابات الاستراتيجية للصليبيين والمسلمين في محاولة من كل طرف للفوز بحلب لما تمثله من أهمية على الصعيدين الاستراتيجي العسكري والاقتصادي .

واثر اخفاق الصليبيين في السيطرة على حلب او تحبيدها لجؤوا الى محاولة الاستفادة من موقعها التجاري وذلك عن طريق المراسلات وعقد الاتفاقيات التجارية ، وتبرز أهمية حلب في فترة الحكم المملوكي ولكن بشكل متغير في البداية ، وقد استطاعت في بعض الفترات أن تزدهر وتعمق دورها التجاري .

● المور الرابع :

حلب وتجارة العرير

● كانت بداية هذا المور محاضرة للدكتور «شوقي شعث» عن «حلب وتجارة العرير وصناعته في العهدين المملوكي والОсمااني» حيث نجد أن انتاج العرير وبخاصة المقصب منه قد تركز في أواخر المهد الأيوبى والمهد المملوکي الأول في مدينة حلب ، وقد بربعت حلب في تصصيب العرير وتاجرت به مع أوربا التي كانت تتقبل على شرائه نظراً لجودته ورخص أسعاره بالمقارنة بأسعار العرير الذي كان يجلب من أواسط آسيا ، وقد كانت حلب في العصر المملوکي الأول محطة هامة للتجارة بين الهند والبنديقة (فينيسيا) بايطاليا وحافظت على ذلك فترات طويلة بسبب مهارة أهل حلب التجارية حيث أصبحت الأعمال التجارية لدى العلبين من أهم الأعمال ممارسة وبسبب التقاء عدة طرق تجارية عند حلب من أهمها الطريق التي كانت تعرف بطريق الهند التي تنطلق من حلب الى بغداد فالبصرة فبغداد فهرمز ثم الهند .

وقد لوحظ أن هذا الطريق انتعش في الفترة الأيوبية ، ولكنك فقد أهميته حينما تعرضت حلب وبلاط الشام الى الغزو المنولى ، حيث تحولت الطريق الى الجنوب فأخذت تستخدم البحر الأحمر الى عدن ومن ثم الى الهند ، الا أن هذا التحول لم يدم طويلاً فعاد الى سابق عهده بعد أن زالت أسبابه على أثر موقعة عين جالوت ، وأصبحت حلب من جديد مركزاً لتجارة الهند وظل هذا الطريق على نشاطه وازدهاره حتى اكتشاف رأس الرجاء الصالح عام (٩٠٣ هـ / ١٤٩٧ م) من قبل البرتغاليين ، حيث تحولت الطريق التجارية عن حلب من جديد ، لكن حلب لم تفقد شروتها بالكلية إنما بقي فيها من التجارة جانب عظيم لا يوجد مثله في كثير من المالك .

● وقد ممدوح حريري دراسة ميدانية عن «صناعة وتجارة المنسوجات العريرية في حلب» فأشار الى ازدهار حلب منذ القديم بمنسوجاتها وبخاصة

العرينية منها ، التي حظيت بشهرة واسعة في هذه المدينة ومنها انتقلت الى فرنسا ثم الى اوربا، فضلاً عن انتشارها في منطقة الشرق الأوسط . وقد عرفت الخيوط العرينية الطبيعية منذ عهود سعيدة ، فكانت تربية دودة المقرن منتشرة في مناطق سواحل بلاد الشام وعلى ضفاف نهر العاصي ، وتوسعت في جبال الساحل السوري ، وقد تميزت مهارة صناع النسيج العريني بحلب بالانتاج الرائع والفرد ، وعرف نسيج العريني بحلب بطرازه التشكيلي الزخرفي، ونقشه الجميلة ، وفي حلب ظهر ، وربما لأول مرة في صناعة النسيج في العالم القديم ما يعرف بـ « النقاش » والذي بدأ تظهر معه ملامح الابداع في التصميم والاختراع للأشكال المتطابقة مع الألوان التي تتناسب وذوق المستهلك بينما كان ، وكانت صناعة خيوط الذهب والفضة التي تضاف الى النسيج العريني خاصة بمدينة حلب .

* * *

وهكذا كانت ندوة حلب وطريق العريين بما تضمنته من ابحاث ودراسات هامة وجديدة قدمها نخبة من كبار المختصين والعلماء ، فرصة هامة لتعرف جانب من جوانب حضارة وعقلنة هذه المدينة الغالدة التي تعتبر بحق واحدة من أبرز المحطات التجارية على طريق العريين والتجارة بين آسيا من جهة وأوربة ، وعالم البحر المتوسط من جهة أخرى ، وكانت وراء شهرة طريق العريين وازدياد أهميته على امتداد نحو الف عام من القرن الثاني قبل الميلاد حتى القرن الثامن للميلاد ، وقد حافظت هذه المدينة على عظمتها وازدهارها وتطورها بفضل نشاط اهلها وأهمية موقعها وتتوفر عناصر استمراريتها وحيويتها .

